



الاستشراق النسائي

قصة حضارة في عيون غربية منصفة

تأليف :

أحمد أبو زيد

التصنيف والتوضيب في الإيسيسكو
رقم الإيداع القانوني : 2017MO2534
ردمك : 978-9981-26-637-7

السحب : مطبعة الإيسيسكو
الرباط - المملكة المغربية



المحتويات

7 تقديم :

9 مقدمة :

الفصل الأول

13 من ألمانيا.. المستشرقة أنا ماري شميل السفيرة الرفيعة بين الإسلام والغرب

الفصل الثاني

43 من ألمانيا.. المستشرقة زيجريد هونكه مؤمنة آل فرعون

الفصل الثالث

95 من بريطانيا.. المستشرقة كارين أرمسترونج العاشقة المحبة للإسلام
ونبيه محمد، ﷺ

الفصل الرابع

133 من إيطاليا.. المستشرقة لورا فيشيا فاغليري ودفاعها عن الإسلام

الفصل الخامس

145 من بريطانيا.. الليدي ايفلين كوبولد ورحلة البحث عن الله

الفصل السادس

157 من إيطاليا.. المستشرقة ريتا دي ميليو وتسويق الإسلام في الغرب

الفصل السابع

175 من ألمانيا.. المستشرقة كريستيانا بولوس وخطوات على طريق الإنصاف

الفصل الثامن

183 من روسيا.. المستشرقة فاليريا كيرتشينكو وترجمة الأدب العربي

الفصل التاسع

189 من إيطاليا.. المستشرقة إيزابيلا كاميرا ورحلة مع الأدب العربي

تقديم

لقد حظي رسول الإسلام، عليه أفضل صلاة وأزكى سلام، بقدر كبير من الاهتمام والمتابعة، وخصّصت حوله دراسات كثيرة، وعُرفت برسائله القائمة على الرحمة، وصرّح بذلك، وكتبه عدد من المستشرقين الباحثين من الرجال والنساء وسط المجتمعات الغربية، مدللين على صدق نبوة رسول الإسلام، وعالمية رسالته الطاهرة في دراسات تتميز بالنزاهة والموضوعية والإنصاف.

وسعيّاً للتعريف بهذه الجهود الغربية في دراسة رسالة الإسلام ونبيه الكريم، تُصدر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - اليوم كتاباً يحمل عنوان: (الاستشراق النسائي، قصة حضارة في عيون غربية منصفة) لمؤلفه الأستاذ أحمد أبو زيد، يقدم نماذج من النساء الغربيات العالمات، تخصصن في دراسة الشرق الإسلامي وحضارته، كأمثال المستشرقة الألمانية : «الدكتورة «آنا ماري شميل»، والبريطانية : «كارين أرمسترونج»، والإيطالية : «لورافشيا فاغليري»، والروسية : «فاليرا كيربتشينكو»، وغيرهن. ويحاول المؤلف من خلال تحليلاته أن يبرز أهم الأعمال والمجهودات العلمية لتلك المستشرقات الغربيات النبيلات، وهي جهود منصفة، عملت على تصحيح التصورات الخاطئة، التي تبثها دعايات الأوساط المغرضة في الغرب عن الحضارة الإسلامية، وقضايا العالم الإسلامي بشكل مستمر، عبر وسائل الإعلام والقنوات الفضائية، أو في كتب التاريخ والمقررات المدرسية، وخلال الحملات الانتخابية، وما سوى ذلك من المجالات والمناسبات.

ووعياً بضرورة العمل على تصحيح الأفكار الخاطئة عن الحضارة الإسلامية وقضايا العالم الإسلامي، ونشر ما يقابلها من معالم دين الإسلام الصادقة، لتصحيح الصورة المشوّهة لدى المجتمعات الغربية، وتعزيز روح التعايش والحوار السلمي بين الشعوب والأمم، فإنّ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - تُولي في برامجها عناية خاصة بمتابعة ما يكتب عن الإسلام والمسلمين، ومن ضمنها كتب الاستشراق. وإنّ تخصيص كتاب عن موضوع الاستشراق النسائي، هو سبق علمي يستحق التقدير والاهتمام، وسيسدّ مثل هذا المؤلف خصوصاً في المكتبة العربية.

وفي هذا الصدد، يسرّنا أن نقدم هذا الإصدار إلى الباحثين والمهتمين، شاكرين المؤلف الأستاذ أحمد أبو زيد على اختياره لهذه الموضوع الجدير بالاهتمام، وعلى الجهود التي بذلها في إعداد هذا الكتاب القيّم، راجين من الله تعالى أن ينفع به نفعاً عميماً.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

- إيسيسكو -

مقدمة

ضم الاستشراق الغربي كوكبة من أولئك العلماء والمفكرين والباحثين المنصفين، الذين اتصفوا بالنزاهة العلمية والموضوعية في نظرهم للإسلام وللشرق الإسلامي، وسعوا للتعرف على الحضارة الإسلامية وثقافات الشرق وعقيدته، وسجلوا في دراساتهم شهادة إنصاف لهذه الحضارة العالمية، وبدا ذلك واضحاً في بحوثهم الجادة التي تمتاز بالأمانة العلمية والدقة والموضوعية.

ولا شك أنّ الصورة المشوّهة في الغرب عن الإسلام وحضارته، قد ساهم في تشكيلها نفر غير قليل من المستشرقين المغرضين، الذين لم يلتزموا في دراساتهم عن الإسلام بالحياد العلمي والباحثي، واتجهوا إلى تشويه الحقائق لخدمة أهداف غريبة محدّدة، سعت إلى تحجيم الحضارة العربية والإسلامية، والوقوف في وجه انتشارها كحضارة عالمية.

ولكن رغم الصدام الحضاري والعسكري، وربما الديني بدرجة أو بأخرى بين الغرب والشرق، ورغم هذه الجهود الاستشراقية المغرضة، لم يخل الغرب من أصوات تميل للعقل والإنصاف، وتتحرى الحقيقة في أبحاثها ودراساتها حول الإسلام وحضارته، سواء كان ذلك بدرجة كبيرة أو قليلة.

والسمة المميزة لجانب كبير من هذا الاستشراق النزيه، أنه كان منزهاً عن الأغراض والأهداف السياسية، وكان ذا طابع تأسيسي، حيث إن القضايا الهامة في تاريخ الاستشراق كافة، إنما قام بها هؤلاء المستشرقون، الذين اهتموا بالتراث العربي كمؤرخين وباحثين مهتمين بالتاريخ اهتماماً موضوعياً، وقد التزم هؤلاء بالمكتبة وحدها، فقاموا بتدقيق المخطوطات كبداية لعملهم وأبحاثهم، ثم قدموا أعمالاً عامة عن التاريخ والحضارة الإسلامية وعن اللغات السامية ككل، وصارت جهودهم أسساً ثابتة نهض عليها الاستشراق الموضوعي على مرّ العقود.

وهذا الكتاب يركز على الجهود الاستشراقية النسائية، والتي لم تنل من اهتمام الباحثين مثلما نال الاستشراق الذكوري، حيث ضمت الحضارة الغربية المعاصرة نماذج متعددة

لنساء تخصصن في الاستشراق والدراسات الإسلامية، وتميزن بالنزاهة والموضوعية في نظرتهم للإسلام وللشرق الإسلامي، والسعي للتعرف على الحضارة الإسلامية وثقافات الشرق الإسلامي وعقائده، وقد سجلت هاته المستشرقات المنصفات في دراساتهم شهادة إنصاف لهذه الحضارة العالمية، وضمت المكتبات العالمية عشرات الكتب التي ألفنها بعدد كبير من لغات العالم، لتكون دليلاً صريحاً على عظمة هذا الدين العالمي، الصالح لكل زمان ومكان.

ويعرض الكتاب لتلك النماذج النسائية النبيلة، التي وصلت إلى أعلى الدرجات العلمية، وتخصصت في دراسة الشرق الإسلامي وحضارته، من أمثال المستشرقة الألمانية الدكتورة "آنا ماري شميل"، والمستشرقة الألمانية الدكتورة "زيجريد هونكه"، والمستشرقة البريطانية "كارين أرمسترونج"، والمستشرقة الإيطالية "لورا فشيا فاغليري"، والمستشرقة الروسية "فاليريا كيربتشينكو"، والبريطانية الليدي "ايفلين كوبولد"، والألمانية "كريستينا بولوس"، والإيطالية "ريتا دي ميليو"، و"إيزابيلا كاميرا".

إننا هنا أمام كوكبة من المستشرقات الغربيات، اللاتي أنار الله بصيرتهن، فانفتحن على البحث الجاد عن الحقيقة، وأخذ كل منهن على عاتقها تصحيح المفاهيم المزورة السائدة عن الإسلام في الغرب، وتفنيد الأساطير الرائجة بتأثير ركام قرون من التعصب الأعمى، يجري ترسيخه عبر آلة الدعاية الغربية، ممثلة في الكنيسة والمدارس ووسائل الإعلام ومراكز الأبحاث الغربية.

وسوف نرى من خلال الكتاب أبرز الجهود الاستشرافية المنصفة لهاته الغربيات النبيلات، تلك الجهود التي استهدفت مواجهة التصورات غير العلمية، التي يبنها بعض أدياء الغرب عن الحضارة الإسلامية، وقضايا العالم الإسلامي عبر وسائل الإعلام الغربية.

وقد تناولت جهودهن البحثية عدداً كبيراً من الموضوعات الهامة، المطروحة على الساحة الإعلامية حول النبي محمد، ﷺ، وسيرته وأخلاقه، والعديد من القضايا والشؤون الإسلامية، مثل قضايا الجهاد والأصولية والديمقراطية والمرأة، والخوف من الإسلام، وأثر الحضارة الإسلامية على أوروبا، وصلة الغرب بإنجازات الحضارة الإسلامية، وصورة الإسلام لدى المجتمعات الغربية.

واستهدفت هذه الجهود عرض قصة الحضارة الإسلامية، وتنبيه الغرب بأن عليه أن يتوقف عن أن يجعل من العالم الإسلامي شيطاناً مخيفاً، وأن يكون هناك موقف متفهم

ومتسامح إزاء العالم الإسلامي، والذي يعدّ أقرب الدوائر الحضارية لأوروبا، وأكثرها أثراً فيما تعيشه أوروبا وأمريكا اليوم من حضارة انتقلت إليها عبر الأندلس وصقلية وغيرها في زمن ازدهار الحضارة الإسلامية، ورقبها وتقدمها.

كما أنّ جهود هاته المستشرقات توجه نقداً حاداً لكتّاب الدعايات في وسائل الإعلام الغربية، الذين ينشرون تصورات خاطئة عن الإسلام، بعيدة كل البعد عن الأمانة العلمية والضمير الأخلاقي، وتصف الحضارة التي نشأت في ظلّ الإسلام بأنها واحدة من الأعمال الإبداعية الجبارة في تاريخ الإنسانية، وقد استفادت أوروبا في العصر الوسيط الكثير من هذه الحضارة، إلا أنها للأسف لم تعترف لها بهذا الجميل.

وهذه الأصوات النسائية النبيلة لباحثات ومستشرقات ومستعربات، وصلن إلى قمة الرقي العلمي، تعدّ شهادة حقّ وصدق لحضارة الإسلام، فهي - كما سنرى - جهود علمية جادة، قصد من ورائها إعادة النظر في الكثير من الأحكام المسبقة، والمفاهيم المغلوطة المنتشرة في الغرب عن الإسلام والعالم الإسلامي، ويجب أن تحظى هذه الجهود العلمية وأصحابها بما تستحقه من اهتمام وتقدير في العالم الغربي نفسه، حتى ينتصر الفهم الصحيح للإسلام وحضارته على النظرة السقيمة، وتتغلب الموضوعية في البحث على الغوغائية الإعلامية، التي لا همّ لها من وراء التشويه المتعمد للإسلام، إلّا ترسيخ أسباب الكراهية والعداء بين الإسلام والغرب.

أحمد أبو زيد

القاهرة في / أغسطس 2016م

الفصل الأول

من ألمانيا .. المستشرقة آنا ماري شميل السفيرة الرفيعة بين الإسلام والغرب

تعدّ المستشرقة «آنا ماري شميل»، عميدة الاستشراق الألماني للعلوم الإسلامية، من أشهر المستشرقين الألمان المعاصرين، ومن كبار علماء ألمانيا، كانت تعمل أستاذة بجامعة بون وغيرها من الجامعات، وهي من أوائل المستشرقات اللاتي عشقن الإسلام، وقضين جلّ حياتهن في الدراسة والبحث عن حقائق هذا الدين وحضارته، وقد توفيت في يناير 2003م، بعد حياة حافلة بالبحث العلمي، عن عمر يناهز الثمانين عاماً، قدمت خلاله العديد من الكتب عن الإسلام والمسلمين، وتركت وراءها تراثاً غنياً من الدراسات الإسلامية، سيظلّ دائماً شاهداً على نبل المقصد ومحبة الحقيقة، وشرف الكلمة والتجرد من الهوى والغرض، في عالم معاصر مملوء بالمتخوفين من الإسلام والداعين إلى الخوف منه، ما شكل ولا يزال إشكالية كبرى هي «الإسلاموفوبيا» البغيضة، التي لا تزال تضرب في جنبات الغرب حتى الساعة.

لقد نذرت شميل حياتها العلمية والعملية، على امتداد ما يزيد على نصف قرن، في خدمة الإسلام، ديناً وحضارة وثقافةً، وفي الدفاع عن العرب والمسلمين في العالم كله.

فهي صاحبة مشروع ضخم وتجربة فريدة في مجال الاستشراق، وتعدّ من المستشرقين الأوروبيين القلائل في القرن العشرين، الذين أرسوا قواعد صحيحة في الدراسات، فقد وهبت الرؤية الاستشرافية حقّها، ونطقت بحقيقتها، بلا أدنى مغالطات أو تشويه، بعيداً عن استعلاء الغرب على الحضارات الأخرى، كما هو سائد لدى العديد من المشتغلين في حقل الاستشراق، واستطاعت هذه الباحثة أن تكون نموذجاً راقياً، وأن تؤلّف، عبر إبحارها المعرفي، ما يفوق الثمانين كتاباً بلغات مختلفة.

وكانت من أبرز وأكثر المستشرقين إنصافاً للإسلام، فقد أحبت الشرق الإسلامي كثيراً، وألفت العديد من الدراسات الإسلامية حول مبادئ الإسلام، والقرآن الكريم، والحديث النبوي، والزهد، ومكارم الأخلاق الإسلامية، والتصوف، وترجمت العديد من روائع الأدب

العربي إلى عدد من اللغات العالمية الحية، حيث كانت تجيد اللغة العربية إلى جانب عشر لغات أخرى.

ويُعرف عن شميل أنها من أكثر المستشرقين الألمان دراية بالإسلام، فضلاً عن كونها قد ساهمت، دون أدنى مبالغة، في حدوث نقلة نوعية في مدرسة الاستشراق الألمانية، ومن أهم سمات هذه النقلة الانفتاح بموضوعية وإيجابية، على الثقافة الإسلامية، وإدراك أهمية الحوار الحضاري والتواصل الفكري مع الآخر.

وكانت نموذجاً للذين أحبوا الحضارة الإسلامية بصدق، ووقفوا على الإسهامات العظيمة التي قدمتها للإنسانية، وقدموا من خلال دراساتهم وأبحاثهم خدمات رائعة للإسلام، بل وقدم بعضهم توضيحات باهظة لأجل الثبات على مواقفهم، فقد اهتمت شميل بدراسة الإسلام، وحاولت تقديم هذه المعرفة بأسلوب علمي موضوعي للمجتمع الغربي.

وتجردت عن الهوى الشخصي والتعصب المذهبي، فنجحت في إدراك الكثير من الأهداف السامية التي عجز عن تحقيقها غالبية نظرائها، كما ارتكزت على الكثير من الحب والرغبة في اكتشاف الجوانب المضيئة فيها⁽¹⁾.

ولقد نعاها المجلس الأعلى للمسلمين بألمانيا بعد وفاتها، ووصفها بأنها «كانت السفيرة الرفيعة بين الإسلام والغرب، وكانت شخصية نادرة كرسَتْ حياتها في دأب وحب لإزالة الشكوك لدى الغربيين حول الإسلام الحنيف»، معتبراً رحيلها فجوة يصعب سدّها في جدار حوار الحضارات.

فقد كرسَتْ جهودها منذ صباها لدراسة اللغات والآداب والحضارات الشرقية، وأحبت العربية وفتنت بها حتى قالت «العربية لغة الفردوس»، وأتقنت من اللغات الشرقية: الفارسية والتركية والأوردية والسندية والسيريكية والباشتوية والبنجابية، وترددت في حياتها على عواصم بلدان إسلامية عدة طلباً للعلم، وتعزيز معرفتها بالثقافة الإسلامية، إضافة إلى تدريس الإسلام في عدد من الجامعات، مثل جامعة هافارد الأمريكية.

وترددت أنباء عن اعتناقها الإسلام، غير أنها لم تشهر إسلامها حتى وفاتها، وقد وصفها المفكر الإسلامي «عبد الحليم خفاجي» في بعض كتبه بـ «مؤمنة آل فرعون»، وأدرك العلماء

(1) إميل أمين، آناً ماري شميل.. عشر سنين على رحيل صديقة الإسلام والمسلمين، جريدة الحياة، لندن، 2 مارس 2013م، في: <http://alhayat.com/OpinionsDetails/488119>

والمفكرون المسلمون مكانة هذه المستشرقة، وعرفوا لها قدرها وامتدحوا أمانتها ونزاهتها العلمية والبحثية حول الإسلام وحضارته.

• سيرة ذاتية

ولدت ماري شمل بمدينة "إيرفورت" الألمانية، في 7 أبريل 1922، لعائلة بروتستانتية تنتمي إلى الطبقة الوسطى، حيث كان والدها من عائلة من صناع النسيج، ولكنه كان عاملاً متوسطاً في خدمة البريد والتلغراف، أما أمها فتنسب إلى بلدة صغيرة بالقرب من بحر الشمال، وإلى عائلة من قباطنة السفن المستقلين، الذين يطوفون بحار المعمورة طلباً للرزق.

وقد نشأت كطفلة وحيدة في جوّ تسيطر عليه غبطة الحياة وحبّ الشعر، وكانت منذ طفولتها شغوفاً بكل ما يتعلق بالشرق، ومعجبة بكل ما هو روحاني وصوفي في الإسلام، والأديان الشرقية الأخرى. ولذلك بدأت تتعلم اللغة العربية في سنّ الخامسة عشرة، وترعرعت في حقبة حرجة من تاريخ ألمانيا الحديثة، فقد تزامنت نشأتها مع بداية ظهور الاشتراكية القومية (النازية) إلى الحكم، ولكنها في هذه الأجواء المملوءة بالشعارات العرقية، التي كانت تمجد العرق الآري، وتعلّى من أهمية أن يكون المرء ألمانيا، بدأت بتلقي دروس خاصة في العربية، وأقلعت في اتجاه عالم اللغات السامية.

وفي عام 1939م نزلت مع أسرتها إلى برلين، وفيها بدأت دراستها الجامعية للاستشراق، وبعد عام واحد سجلت رسالتها للدكتوراة حول "مكانة علماء الدين في المجتمع المملوكي"، تحت إشراف "ريشارد هارتمان"، وقد انتهت منها في نوفمبر 1941م، وهي في التاسعة عشر من عمرها، ونشرتها عام 1943م في مجلة "عالم الإسلام" تحت عنوان "ال خليفة والقاضي في مصر في العصور الوسطى المتأخرة".

وفي نوفمبر من عام 1941م، عملت كمتترجمة عن التركية في وزارة الخارجية الألمانية، وكانت في وقت الفراغ تواصل اهتمامها العلمي بتاريخ المماليك، حتى تمكنت من عمل فهارس لتاريخ ابن إياس. وفي مارس 1945، قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية بقليل، حصلت على درجة الأستاذية من جامعة "ماربورغ"، بعد حصولها على الدكتوراة الثانية، حول "البنية الاجتماعية للطبقة العسكرية في دولة المماليك".

وعندما أُعيد تنظيم الجامعات الألمانية بعد الحرب، وجدت مكاناً لها في جامعة ماربورج، التي كانت تبحث عن خلف لأستاذ العربية الذي أقيل بسبب علاقته بالنظام

النازي، وكانت في الثالثة والعشرين من عمرها، كما كانت أول سيدة تلقى بعد الحرب محاضرة عن التصوف الإسلامي في ربيع 1946م.

وفي عام 1951م، حصلت على دكتوراة ثالثة، تحت إشراف "فريدريش هايلر"، وكانت بعنوان: "دراسات عن مصطلح الحبّ الصوفي في التصوف الإسلامي المبكر"، وفيها ربطت شميل اهتماماتها العلمية بالتصوف، وقامت بتحليل العلاقة بين الله والإنسان، جواباً على ما تميزت به النازية من قسوة وعنف، وهذا يبين سوء ظنّها بالمشروع السياسي لنظام هتلر، الذي يشاركها فيه الكثير من معاصريها، هذا المشروع الذي لم يفسد السياسة وحدها، ولكنه دمر مستوى العملية السياسية على الإطلاق.

وقامت شميل سنة 1952م، بأول زيارة لها إلى العالم الإسلامي، وبالتحديد إلى تركيا التي عادت إليها عام 1956م لتستقر بها خمس سنوات، حيث عملت كأستاذة مساعدة في العلوم الإسلامية واللغة العربية في كلية أصول الدين بجامعة أنقرة، لتشغل لاحقاً منصب أستاذة كرسي تاريخ الأديان في كلية العلوم الإسلامية بالجامعة ذاتها، وكانت تلقي دروسها باللغة التركية، وكثفت دراساتها في تلك الفترة عن الإسلام في شبه القارة الهندية، وكان حبّها للشاعر والمفكر الباكستاني الكبير محمد إقبال، هو الحافز الكبير في توجيهها الجديد فيما بعد، فلم تترك مناسبة إلا وأشادت بإقبال باعتباره أستاذها وملهمها.

وتعبيراً عن إعجابها بهذا الشاعر الباكستاني، ترجمت عام 1958م كتابه «الخلود» إلى اللغة الألمانية، والذي يعدّ تفسيراً عصرياً للإسراء والمعراج، وبعد عام ترجمت الكتاب نفسه إلى التركية، كما أصدرت كتابين عنه عام 1974م، الأول بعنوان «جناح جبريل»، والثاني بعنوان «محمد إقبال شاعر وفيلسوف نبوي».

وتلا المرحلة التركية تنقل شميل وعملها، كأستاذة للدراسات الإسلامية واللغات الشرقية في جامعات ألمانيا وأوروبا وأمريكا، إضافة لجامعات سوريا وتركيا وباكستان، وخلال هذه الفترة، أصدرت مجموعة من كتبها الهامة حول الإسلام أهمّها: «إنّ الملك لك.. أدعية من الإسلام»، وكتاب «عالم الإسلام رحلة من الأعماق».

وفي عام 1961م، وجدت درجة أكاديمية في جامعة بون، فانتقلت إلى هذه المدينة التي أصبحت منذ ذلك الوقت مدينتها، وفيها اتصلت مرة أخرى بالخارجية الألمانية، وبدأت منذ عام 1963م تشارك «ألبرت تايله» في الإشراف على إصدار مجلة «فكر وفن»، التي تمولها الخارجية الألمانية. وعبر مشاركتها في إصدار هذه المجلة والتي استمرت حتى عام 1973م،

قدمت أشعاراً لأغلب الشعراء العرب المعاصرين مثل بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور وعبد الوهاب البياتي وفدوى طوقان ونزار قباني وأدونيس ومحمود درويش ومحمد الفيتوري وغيرهم من الشعراء، الذين نقلت بعض أشعارهم إلى الألمانية عام 1975م، وكانت كذلك تمّ القارئ العربي في كل عدد بشيء من شعر جلال الدين الرومي، ومحمد إقبال وغيرهما من الشعراء المسلمين غير العرب.

وفي عام 1967م، تمّت دعوتها إلى العمل في جامعة هارفارد، لشغل كرسي الثقافة الهندو-إسلامية، الذي أنشئ بناء على تبرع أحد مسلمي الهند الأغنياء، ورغم أنها لم تكن متخصصة في هذا المجال، إلّا أنها حصلت على الكرسي الذي رُبط الحصول عليه، بضرورة ترجمة أشعار شاعري الأوردية «مير دادر الدهلوي» و«أسد الله غالب»، وذلك بهدف أن يحصلوا على شهرة مقاربة لشهرة عمر الخيام في عالم الإنجليزية، وساعد على حصولها على هذا الكرسي أيضاً أنه لم يكن لها ماضٍ ماركسي أو يساري، ولا تنتسب إلى دول شرق أوروبا، وكان الهدف من هذا القسم، الإهتمام بتاريخ الإسلام في الهند منذ عام 711م، وباللغات التي تساعد على دراسة هذا الأمر، وهي العربية والفارسية والتركية، وكذلك اللغات المحلية مثل السندية والبنجابية والبشتونية والأوردية.

وكان على شميل تكوين مكتبة متخصصة للقسم، فأخذت تلقى محاضراتها عن التصوف الإسلامي، وهي المحاضرات التي كونت فيما بعد أحد أهمّ كتبها، وهو كتاب «الأبعاد الصوفية في الإسلام»، وكذلك محاضرات عن الشعر الفارسي، ولكن اهتمامها الأساس أصبح منصباً على تاريخ الإسلام في شبه القارة الهندية، والدراسات التي تدور حول ذلك بالسندية والأوردية، وكانت تؤلف في ذلك بالإنجليزية والألمانية، هذا إلى جانب دراساتها لتاريخ الأدب وللشعراء المفردين.

وبعد إحالتها على المعاش عام 1992م، عادت، بعد خمس وعشرين سنة من العمل في هارفارد وكمبريدج، إلى بون حيث واصلت الكتابة عن الإسلام بالألمانية والإنجليزية لتقريبه من قراء هاتين اللغتين، وذلك حتى وفاتها بمدينة بون في 26 يناير 2003م، وقبل وفاتها أوقفت أموالها منحاً دراسية للمستشرقات الأوربيات، اللواتي يبحثن في علوم الإسلام والتصوف.

• مائة كتاب

وأما مؤلفاتها عن الإسلام وحضارته، فقد بلغت ما يقرب من مائة كتاب ودراسة علمية، ومن أهمّ أعمالها، كتابها عن النبي محمد ﷺ، الذي صدر عام 1981م بالألمانية والإنجليزية،

واقتبست عنوانه من شهادة التوحيد، فجاء اسمه : "وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ"، وترجمت في صدره رباعية باللغة الأوردية، كتبها شاعر هندوسي، يقول فيها : "قد أكون كافراً أو مؤمناً، ولكن هذا شيء علمه عند الله وحده، أودّ أن أنذر نفسي كعبد مخلص لسيد المدينة العظيم، محمد رسول الله"، وقد عبّرت فيه بصدق عن تقديرها للرسول الكريم ﷺ، وبسطت فيه مظاهر تعظيم وإجلال المسلمين لرسول الله، وهو ما أثار وسائل الإعلام الألمانية ضدها، لاحتفائها الزائد بالإسلام ورسوله، ﷺ، فردّت عليها بكلمات حازمة : "نعم إني أحبه".

وتعبيراً عن إعجابها بالشاعر والملفكر الباكستاني إقبال، ترجمت عام 1958م، كتابه "الخلود" إلى الألمانية، الذي يُعدّ تفسيراً عصرياً للإسراء والمعراج، وبعد عام ترجمت الكتاب نفسه إلى التركية، كما أصدرت كتابين عنه عام 1974م : الأول بعنوان "جناح جبريل"، والثاني بعنوان "محمد إقبال.. شاعر وفيلسوف نبوي"، وفي عام 1977م، أصدرت بمناسبة مئوية "محمد إقبال" مجموعة منتقاة من أشعاره مترجمة إلى اللغة الألمانية، تحت عنوان "رسالة الشرق".

وحين انتقلت إلى باكستان صدر كتابها الرائع "باكستان : قصر ذو ألف باب"، يحمل الصبغة الوصفية السياحية عام 1965م، وهو ما كان سبباً في إطلاق باكستان لاسم «أنا ماري» على أحد شوارع لاهور المهمة، تكريماً لها، بالإضافة إلى إصدارها مجموعة من كتبها المهمة حول الإسلام، أهمّها : «إنّ الملك لك.. أدعية من الإسلام»، و «عالم الإسلام .. رحلة من الأعماق». كما ترجمت، بناء على طلب بعض علماء الاجتماع الألمان، مقاطع طويلة من مقدمة ابن خلدون.

وقد اهتمت شميل بفن الخطّ العربي، ففي عام 1970م، ظهر كتيبها «فن الخطّ الإسلامي»، ضمن سلسلة «دور الرسوم في الأديان»، بالإضافة إلى وضعها لكتاب «فن الخطّ العربي والثقافة الإسلامية»، الذي يعالج مدى تداخل الخطّ العربي مع الثقافة الإسلامية، بداية من أنواع الخطوط، ومكانة الخطّاطين الإجتماعية، وما ترمز إليه الحروف الفردية.

وفي عام 1975م، كانت شميل أول من وضعت مختارات من الشعر العربي المعاصر بالألمانية، حين ترجمت الأشعار الشرقية من العربية والفارسية والباشتوية والسندية والسيريكية، وصدر الكتاب تحت عنوان «منتخبات من الشعر العربي المعاصر»، وأخيراً جمعت مختارات غزيرة من جميع ترجماتها السابقة من 8 لغات شرقية في كتاب سنة 1987م، بعنوان «خذ وردة وسمّها أغنية»، وحين انتقلت إلى تركيا كانت لها ذكرياتها التي صدرت بعنوان «أخي إسماعيل» عام 1990م.

وفي مجال الكتابات الصوفية لها ثلاثة أعمال رئيسة، يأتي في مقدمتها العرض الشامل للتصوف، الذي ظهر لأول مرة عام 1974م باللغة الإنجليزية تحت عنوان «أبعاد التصوف الإسلامي»، وهو مرجع مهم يعالج مهمة التصوف الإسلامي وتطوره، ثم أعقبه كتاب آخر عن جلال الدين الرومي بعنوان «الشمس الظاهرة»، وهو كتاب شامل يكشف لغة الرومي المجازية، وجاء الكتاب الثالث عن التبجيل الصوفي لرسول الإسلام، ﷺ، بعنوان «محمد رسول الله» بالألمانية والإنجليزية، الذي عبرت فيه بصدق عن تقديرها للرسول الكريم ﷺ؛ وهو ما أثار وسائل الإعلام الألمانية ضدها كما أسلفت الإشارة.

ومن مؤلفاتها أيضاً كتاب «الجميل والمقدس»، وهو عبارة عن ثلاثة بحوث مقتطفة من مجلة «فكر وفن»، نشرتها شميل خلال فترة إشرافها على المجلة التي كانت تصدر باللغة العربية في الفترة من 1959 إلى 1967م.

وهذا الكتاب يعدّ من الكتب الرائعة، حيث تناولت فيه جوانب الحضارة الإسلامية، وما فيها من مدنية وورقي وازدهار عبر العصور، فنجدها تخصص فصلاً من فصول الكتاب الثلاثة، عن الأزهار والبساتين في حضارة المسلمين⁽¹⁾، وفصلاً آخر عن الأدب الإسلامي، والذي تعالج فيه فن الخطّ والكتابة في الحضارة الإسلامية، والتشبيه بالحروف في الأدب، وما ورد في القرآن الكريم من إشارات كثيرة عن الكتابة والقلم⁽²⁾.

وقد نشرت سيرتها الذاتية عام 2004م، بعد رحيلها، ضمن المشروع القومي للترجمة بالقاهرة، تحت عنوان «شرق وغرب : حياقي الغرب - شرقية»، والتي تضمنت عرضاً لتنوع جهودها العلمية، ولرحلاتها إلى المؤتمرات والمحاضرات، عبر أوروبا وأميركا الشمالية وأندونيسيا وباكستان وتركيا والهند وإيران وأفغانستان والدول العربية ودول وسط آسيا، وذلك في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي.

• شميل الشاعرة

ولعلّ استغراق ماري شميل في البحث منذ كانت في التاسعة عشر من عمرها، قد حجب عن قرائها وجهها الآخر، وهو وجه الشاعرة، فقد نقلت أمل الجبوري إلى العربية 38 قصيدة من شعر شميل، وهي قصائد تدور في عالم المستشرقة ذاته : الثقافة العربية والإسلامية، وتراث الشرق وأساطيره.

(1) للاستزادة انظر: أنا ماري شميل، الجميل والمقدس، تحقيق وترجمة: عقيل يوسف عيدان (الكويت : الدار العربية للعلوم، ط1، 2008م)، ص 37 - 56.

(2) للاستزادة راجع: الفصل الثاني من المرجع السابق، ص 75 - 97.

تقول شمیل : أنها كتبت هذه القصائد بين عامي 1974 و1994م، متأثرة في المقام الأول بأعمال جلال الدين الرومي، أما النصوص الأخرى، فإن بعضها يعكس القصص الشعبية الباكستانية، وعلى وجه التحديد التقاليد السندية، حيث وظفت في ذلك الزمان هذه الحكايات في شعر وادي الأندوس السفلي، لتمثل تجارب الروح العاشقة لذلك الآخر الذي حاول التعايش مع الحياة في الغرب، وقد نشرت بعض هذه القصائد عام 1978م، تحت عنوان ”مرآة قمر شرقي“⁽¹⁾.

ففي قصيدة تحت عنوان ”رسالة المجنون إلى ليلى“ تقول :

لقد أحبتك جدا

لكنك الآن عطر

تلاشى في البعيد

عند انقضاء الليل

لقد أحبتك جدا

لكنك الآن أغنية

على شفاه الجميع⁽²⁾.

وتحت عنوان ”رسالة ليلى إلى المجنون“ تقول :

أنت لم تعد تسأل الطيور

لتخبرك عني

منحت قلبك بيتاً لهم

أنت

بيت هذا العش من شعرك

هم حملوا قلبي بعيدا

في ظهيرة اليأس

(1) آنا ماري شمیل، عنادل تحت الثلج، ترجمة أمل الجبوري (ألمانيا، مكتبة ديوان، 2001م)، ص 83.

(2) المرجع السابق، ص 11.

الشمس الساطعة
جففت آبار دمعتي
لكن الغزلان اللائي
يشربن من دموعك المالحة
هناك رقدن في الخلود⁽¹⁾.

وتحت عنوان "أكتب إليك" تقول :

لم أكتب إليك
سوى النار
التي تشب من حجر قلبي
لتلتهم الورقة
لا أكتب لك
سوى الماء،
الذي يسيل من صخور عيني
ويذيب الورقة
فهل أكتب بعد ذلك
بالأسطر الحمراء لدموعي التي تنساب
على وجنتي
أو علني أمنح الرماد لأكفّ الريح
لتحمله إلى عتبك⁽²⁾.

وكتبت تحت عنوان "ممتاز محل" تقول :

كنت الزوجة الأحب للسلطان

(1) المرجع السابق، ص 13.

(2) المرجع السابق، ص 37.

شهوة لياليه وحياته

لكني ذبت مثل الندى وقت طلوع النهار

مثل صخرة الرخام الأسود للحزن صخرة وجعة

تطلع لؤلؤة ياسمين بيضاء، حول جرف نهر دمعته

والآن كلانا يرقد

تحت قبة الياسمين⁽¹⁾.

• عاشقة الإسلام

وقد اشتهرت شميل عبر حياتها العلمية والأكاديمية، بعشقها للإسلام ولنبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، فنجدها تقول مدافعة عن الإسلام ورسوله ﷺ: ”حبي وشغفي بالإسلام ورسوله بلا حدود، حتى إنَّ البعض يقول إنني أخفي إسلامي، وأنا أقول مقولة لشاعر هندوسي: ”قد أكون كافراً أو مؤمناً فهذا شيء علمه عند الله وحده، ولكنني أودّ أن أنذر نفسي كمحبّ مخلص لسيد المدينة العظيم محمد رسول الله“.. فلماذا تلو مونني على حبي ودفاعي عن رسول الإسلام الذي أحبه، في حين لم يتعرّض شخص في التاريخ للظلم الذي تعرّض له محمد، ﷺ، في الغرب.. فأساطير القرون الوسطى اتهمته بأنه كان كاردينالاً، استاء لعدم تعيينه باباً فانفصل عن الكنيسة، وأسس ديانة جديدة، واتهمته رواية فرنسية بأنه شارك مع شخصين آخرين في تكوين نوع من الثلاث الشيطاني!

وهناك جريمة لا تُغتفر في حقّ محمد، ارتكبتها الأدباء الإنجليز، الذين حوّلوا اسم محمد، ﷺ، ليكون مرادفاً للشيطان.. وحوّل الأدب الألماني (محمد) إلى (ماحوم)، واتهموا المسلمين بأنهم يعبدون أصناماً ذهبية لماحوم.. وللأسف فإنّ مثل هذه الصور الشنيعة راسخة في اللاوعي الجماعي للغرب، وهو ما يفسر العداء الغربي للإسلام.. أليس هذا الظلم دافعاً لي لتوضيح حقيقة رسول الإسلام، والدفاع عنه، حتى ولو كلفني ذلك حياتي.. فإنّ ”الساكت عن الحق شيطان أخرس“⁽²⁾.

(1) المرجع السابق، ص 63.

(2) د.خالد شوكات، ماري شمل.. الألمانية عاشقة النبي، منتديات ستار تايمز، 2 فبراير 2003م، في :

<http://www.startimes.com/f.aspx?t=9417868>

ونجدها تدافع عن الإسلام أيضاً في كتابها فتقول : «إنّ الحضارة التي سارت على سُنّة تحية «السلام»، تمرّ اليوم بأطوار من الانغلاق والتصلب الفكري وتبريرية المواقف. وإننا نجد أنفسنا اليوم إلى حدّ كبير أمام مظاهر صراع سياسي بحث، وأيديولوجيات تستغل الإسلام كشعار، وهي أبعد ما تكون عن أسسه الدينية وأصوله».

• الإسلام دين الإنسانية

ومن أروع كتبها كتاب "الإسلام دين الإنسانية"، والذي كان أحد فصول الكتاب الضخم الذي أصدره "فريدريش هابلر"، أستاذ مقارنة الأديان في جامعة ماربورج، عام 1959م، تحت عنوان "أديان الإنسانية في الماضي والحاضر"، ثم قامت المؤلفة بمراجعة هذا الفصل مراجعة شاملة، وأضافت إليه الكثير، ثم نشرته في كتاب مستقل عام 1997م، ثم أعادت وزارة الأوقاف المصرية طبعه مرة أخرى، لما احتوى عليه من شهادة استشراقية منصفة للإسلام، ولرسوله الكريم ولحضارته ورسائله للإنسانية جمعاء.

والكتاب يقدم رؤية موضوعية ومتكاملة وواضحة الملامح عن الإسلام، من حيث أسسه ورسائله منذ انتشاره وحتى اليوم، ويؤرخ لبداية اهتمام الباحثين الغربيين الفعلي بدراسة الإسلام، وحضارته على أساس علمي منهجي.

وحين سُئِلت عن أوهام الغرب عن الإسلام، والادّعاء بأنّ العقيدة الإسلامية عقيدة منحرفة، وأنها تحمل تحريفاً متعمداً للحقائق، قالت : «هذا اتهام خاطئ وجّهه مسيحيو القرون الوسطى إلى الإسلام، فمسيحيو العصور الوسطى اعتبروا الإسلام هرطقة مسيحية، بل إنّ بعض أساطير القرون الوسطى، تحكي أن محمداً كان كاردينالاً استاء لعدم تعيينه باباً، فقام بالانفصال عن الكنيسة، وأسس ديانة جديدة، هذه الروايات موجودة في كتابات القرون الوسطى».

وعندما سُئِلت عن تقييّمها لادّعاء بعض الغربيين بأنّ الإسلام هو دين الشهوات، قالت : "يعود هذا القول إلى الترجمات الأوروبية في القرون الوسطى لبعض الآيات القرآنية، التي تصف الجنة كحديقة كبيرة للشهوات الحسيّة، مملوءة بحور العين، وشتى أصناف المُنَمِّع الجسمانية، وقد صدمت هذه الترجمات في المقام الأول الأوساط المسيحية المتنسكة في العصور الوسطى إلى حدّ بعيد، كذلك فإن هذه الأوساط قد صدمها أنّ نبي الإسلام محمد، ﷺ، لم يكن عزباً مثل المسيح عليه السلام، ولكنه مارَس حياة زوجية طبيعية،

وكان المتدينون من مسيحيي القرون الوسطى يعتبرون مثل هذه الأمور غير لائقة بالإنسان الكامل، المؤمن المحب لله، ناهيك بالطبع عن نبي مرسل، وقد أسهم هذان العاملان في نشر صورة الإسلام "الشهواني" في القرون الوسطى، وحتى عصرنا هذا».

• جاذبية التصوف في الإسلام

ولقد شغفت شميل بالإسلام، ووجدت جاذبية في التصوف الذي يساعد على التربية الروحية، والتصوف الإسلامي هنا، هو التصوف الحق الذي قال به الأوائل، والذي فيه خلاص للروح من أثقال الجسد، فتعهدت نفسها به وصار موضع دراستها.

ففي المذهب الصوفي كتبت «أبعاد التصوف الإسلامي» في حقبة السبعينيات (1974م) باللغة الإنجليزية، وهو مرجع مهم يعالج مهمة التصوف الإسلامي وتطوره، ثم أعقبه كتاب آخر عن جلال الدين الرومي بعنوان «الشمس المنتصرة.. آثار مولانا الرومي»، وهو كتاب شامل يكشف لغة الرومي المجازية، ويتناول حياة الشاعر الصوفي الكبير من خلال أربعة محاور:

أولها : الإطار الخارجي، وتتكلم فيه عن الخلفية التاريخية وحياة الشاعر الصوفي، والتقليد الشعري، والإلهام، والشكل.

وثانيها : الصور المجازية عند جلال الدين الرومي، وتكشف فيها عن مفردات لغته الصوفية ورمزياتها، من خلال العديد من الصور، مثل الشمس والماء والحدائق والحيوانات والأطفال والحياة اليومية والطعام والأمراض والنسيج والخطُ الإلهي وتسليات الكبراء، والصور المستمدة من القرآن والتاريخ والجغرافية، والصور المستمدة من تاريخ التصوف والموسيقى والرقص.

وثالثها : المباحث الإلهية عند الرومي، والتي تشمل الله وإبداعه، والإنسان وموقعه، والنبوة، والسلم الروحي، والعشق، والدعاء.

ورابعها : تأثير جلال الدين في الشرق والغرب.

وجاء الكتاب الثالث عن التبجيل الصوفي لرسول الإسلام ﷺ، بعنوان «وأنَّ محمداً رسول الله» بالألمانية والإنجليزية، والذي عبرت فيه بصدق عن تقديرها للرسول الكريم.

وفي تفسيراتها لجوهر الصوفية برؤية دقيقة، كانت متابعة لكبار أئمة المذهب الصوفي في الإسلام من الناحية التاريخية، وهي القائلة: «كانت رابعة العدوية المرأة الأولى، التي تُدخل

فكرة الحبّ الإلهي الطاهر في الفكر الصوفي، وصار الحبّ لفظاً أساساً في الفكر الصوفي»،
ومعروف أنّ الصوفية، كلفظ عام، يشمل كلّ حركة باطنية تحمل أبعاداً في جوهرها من
حيث البحث في الوجود، والقرب من المعبود عن طريق الزهد، وعندما يتحول القلب إلى
مرآة صافية يمكنها استعمال النور الإلهي، فالصوفية عمّقت من دراسة أدقّ خلجات النفس
في طريقة مدهشة جديدة بالإعجاب⁽¹⁾.

تقول شمیل : «تحتل أسماء الله الحسنی مكانة خاصة لدى المتصوفة، ولا تزال
الخلوة الأربعينية الموصى بها منذ العصور المبكرة، تمارس حتى اليوم»، وتولي تطور الصوفية
في القرون التالية لموت الحلاج اهتماماً، فهي - أي الصوفية - مشبعة بمظاهرها لجميع
طبقات الشعب، «وجد فنانون المدن والفلاحون وعشاق الموسيقى أو طالبو التأمل الروحاني
في التصوف وطنهم الروحاني وراحتهم النفسية، وبذلك لعبت الطرق الصوفية دوراً مهماً في
نشر الإسلام»، ويعود الفضل إلى الصوفية الخالصة من الشوائب في أسلمة بلدان عدّة، مثل
الهند وأجزاء من أفريقيا، حيث دعوا إلى المبادئ البسيطة للإسلام بنموذج الحبّ، من دون
التطرق إلى مسائل معقدة ودينية وفقهية⁽²⁾.

وتحتفي شمیل بالشاعر الصوفي جلال الدين الرومي (1207-1273م)، الذي هاجر
مع والديه إلى الأناضول في تركيا، والرومي له أربعون ألف بيت من الشعر في ديوانه
”شمس تبريز“، وقد بلغت أشعاره قمة الوجد والانتشاء، وقصائده مفعمة بالموسيقى في
غاية الروعة والجمال، برغم تلقائيتها، وقد ألف الرومي بعد ذلك ديوان المثنوي، وهو مليء
بالرموز ويصور النفس البعيدة عن الله بأنها المنفصلة عن أصلها الإلهي، وبخواتها أو عدم
ارتقائها بالجانب الروحي⁽³⁾.

وتذكر شمیل أنّ للمذهب الصوفي أثراً كبيراً في ثقافة العالم الإسلامي، فالصوفية
عمقت الرسالة الأساس للإسلام بالدفء والمشاعر الإنسانية، وفتحت القلوب للجمال الإلهي.

(1) للاستزادة انظر : أنا ماري شمیل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، ترجمة : محمد إسماعيل السيد ورضا حامد
قطب (ألمانيا، كولونيا، بغداد : منشورات الجمل، ط1، 2006م)، ص 47-51.

(2) عادل صديق، 62 عاماً في خدمة الإسلام وتراثه، موقع الناقد الإعلامي، 30 يناير 2012م، في :
<http://naqed.info/forums/index.php?showtopic=567>

(3) للاستزادة انظر : أنا ماري شمیل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، مرجع سابق، ص 348-390.

• شميل ونصوص الحلاج

ومن كتبها الهامة في التصوف الإسلامي، كتاب ”الحلاج، نصوص التصوف الإسلامي“ الذي صدر عن دار هيردر في ألمانيا، وفيه توضح تأثير الحلاج في الثقافة التركية والإيرانية والهندية، وتأثيره على الشعر الشرقي الإسلامي، وكيف أنَّ شخصيته أستخدمت كرمز نضالي لدى الشعراء الشرقيين، وعلى مدى مختلف العصور، لا سيما حينما تشدّد حلقة الظلام، ويهيمن الظلم والعنف والاستعباد.

وعلى خلاف الكثيرين ممن تناولوا التصوف الإسلامي، وبالتحديد شخصية الحلاج، في الثقافة العربية، تعمقت شميل في التوقف عند الظاهرة الصوفية، وعند شخصية الحلاج بالذات، حيث تتبعت وجهة نظر بعض الشعراء المسلمين في الهند وبلاد البنجاب، فاستشهدت بالشاعر الهندي المسلم (ميرزا غالب) الذي كتب في دلهي خلال القرن التاسع عشر عن الحلاج، مؤكداً ”أنَّ الحلاج نال الجزاء الذي يستحقه، لأنه باح بالحبّ، ومن يبوح بسرّ الحبّ، ويكشف ستر المحبوب، ينال العقاب، حتى وإن كان فيض الحبّ الذي دفعه للصراخ، وكشف المستور، أكبر منه“.

وقد انتقد العديد من المتصوفة الحلاج، وبدأوا يشككون في ادعائه الوصول إلى الهدف، ففي رأيهم أنه لو تحقق له ذلك لكان قد صمت، ”لأن أجراس القافلة تصمت حينما يصل المسافرون إلى قبلتهم“، ومن هنا، فإنّ صرخة الحلاج : (أنا الحق)، ليست دليلاً على لحظة الالتحام، وإنما على العكس، فهي دليل على البعد والفراق!!

غير أنَّ المستشرقة أكدت بأن المتصوفين المتأخرين رأوا في الحلاج (متوحداً بالوجود)، وأن صرخته المدوية عبر القرون هي دليل على ذلك، وعلى هذه النظرة اعتمد العلماء والمستشرقون عند حديثهم عن الحلاج، والذي ورد ذكره في الغرب لأول مرّة في القرن السابع عشر.

وأوضحت المستشرقة في كتابها بأن الفضل يعود للمستشرق ”لوي ماسينيون“، الذي أنفق عدّة عقود من عمره في البحث عن آثار الحلاج، وحياته، ونصوصه، وتحقيقها، وترجمتها، وتقديمها، ومن ثم تأكيد تفسيره الجديد للحلاج ودوره في التصوف الإسلامي، رغم ما واجهت دراساته من انتقادات معاصرة.

وفي الكتاب تواجه شميل دعاوى المستشرقين، الذين يحاولون إضفاء مسحة (نصرانية) على الحلاج، وربطه بعقيدة التجسيد الإلهي في الإنسان، وهي تبطل ذلك مؤكدة : أنَّ للحلاج ولبقية الصوفية (ذاكرة قرآنية)، فهم يعيشون في كلمات القرآن الكريم ومنها.

وهي تنظر إلى العلاج من خلال شطحاته الصوفية، مقارنة إياها بتجليات الوجد عند النساك والقديسين في الديانة المسيحية، ولذلك دافعت عن العلاج مؤكدة خطأ فهم شطحة العلاج وصرخته: (أنا الحق) بأنها تجديف أو مسّ بالذات الإلهية السامية، لأنه لم يقصد إلى ما ذهب إليه الآخرون فيما بعد. فما أسهل أن يدان الصوفي إذا ما تمّ تفسير شطحاته بسطحية، ودون التعمق في العالم الروحي للصوفية الإسلامية، وطرائقها ومراتبها وتجلياتها وروافدها.

والحقيقة، إنّ ما يميز تناول شميل للعلاج عن جميع الذين تناولوه من زوايا أخرى، أدبياً وفنياً وشعرياً من قبل المثقفين والمفكرين العرب، هو تخصصها في مجال الثقافة الإسلامية الهندية - الباكستانية، ومعرفتها للغات عديدة، منها التركية والعربية والهندية والبنجابية، إلى جانب اللغات الأوربية، والتي أتاحت لها الإطلاع على الكثير من المصادر العلمية والتاريخية، والمخطوطات النادرة الموضوعة عن العلاج، والتصوف في تلك اللغات، والتي يجهلها المثقفون العرب.

لقد ذهبت آني ماري شميل بعيداً، وعميقاً، متتبعة صرخة العلاج المدوية عبر القرون والعصور، ملتقطة صداها عند جلال الدين الرومي، وغيره من المتصوفة، لكنها تعترف أيضاً بسهولة فهم العلاج فهماً غير دقيق، لأنّ لغته، بقدر ما هي متوهجة وجميلة، فهي عسيرة على الفهم وصعبة، ومتعددة الدلالة، وأحياناً تبدو عباراته غير مترابطة.

كما يضمّ الكتاب أدعية وحكايات ونصوصاً صوفية، ليست عربية الأصل فقط، وإنما ترجمتها من اللغات الشرقية التي كانت تجيدها. وعموماً فإنّ الكتاب جهد كبير ومشرف، يدفع بالقاريء إلى التأمل، ويمنحه لحظة صفاء وسمو خارج هذا العالم الغارق في عتمة الأضواء المزيفة⁽¹⁾.

والباحث في أعماق كتابات شميل ودراساتها عن التصوف الإسلامي بنوع خاص وأشكاله المتباينة، يرصد إشارات وإيماءات كثيرة لقامات صوفية أوروبية، من أمثال "مايستر إيكارت" و"تريزا فون أفيل" و"يوهانس فون كرويتس"... وقد وضّحت مراراً وتكراراً أنّ المتصوفين المسلمين، والمتصوفات المسلمات، عاشوا حياتهم وأبعادهم الروحية في رحلة

(1) برهان شاوي، صرخة العلاج حول كتاب (نصوص التصوف الإسلامي) للمستشرقة الراحلة آني ماري شميل، موقع الحوار المتمدن، العدد : 663، 25 نوفمبر 2003م، في :

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=11989>

للبحث عن الذات واكتشافها، ورأت في الكثير من النصوص الأوروبية المتأخرة التي تعلو من قيمة الحرية الفردية للإنسان، تقليداً للتصوف الإسلامي⁽¹⁾.

• كتابها .. (وأن محمداً رسول الله).

ولعل من المهم هنا أن نقف مع بعض الكتب التي ألفتها شميل عن الإسلام، ونبهه وحضارته بشيء من التفصيل، لنرى كيف أفضت المعرفة إلى المحبة، على حدّ تعبيرها، ففي كتابها (وأن محمداً رسول الله). تبجيل النبي في التدين الإسلامي، تؤكد أن الحضارة التي رسم معالمها نبي الهدى والسلام، لهي جديرة بانتشال العالم من وطأة الصراع السياسي، والأيدولوجيات التي تستغل الإنسان أسوأ استغلال، وقيادته إلى برّ الأمان على سُنّة تحية السلام، التي صارت شعاراً له.

وأهمية هذا الكتاب تأتي من مكانة هذه المستشرقة وموسوعيتها العلمية، ودقتها الأكاديمية، ورحابة أفقها المعرفي، وغنى مصادرها الجامعة بين النهل من الأصول والاحتكاك بحياة الناس في قلب المجتمعات الإسلامية، فضلاً عن عمق تحليلاتها، وسعة تجربتها في التدريس والمدارس، والاستكشاف العلمي والمساءلة، مع إنصاف وموضوعية نادرين في التعامل مع مُنتجات الحضارة الإسلامية، بمختلف ثقافات ولغاتها ومناحيها الفلسفية والأدبية والعمرانية والجهالية.. كل ذلك وغيره، يدعونا لأن نقرأ بنظر معمّن وبصيرة منشّرة وهمّة يقظة، سطور مؤلّف كُتب ليكون جسراً حضارياً بين المسلمين والغرب.

فجميل حقاً أن تكتب سيدة بهذه المعالم العلمية المتميزة، وهذه الملامح الشخصية الاستثنائية، عن "الرحمة العالمية"؛ "الرؤوف الرحيم"؛ "الأسوة الحسنة"؛ "الشخصية الفذة" كما تنعتها في كتابها، هو حدث معرفي خليق بالمسلمين الالتفات الاستثنائي إليه.

فقد كتبت النسخة الأولى من الكتاب بالألمانية ونشرتها عام 1981م، ثم نشرت النسخة الإنجليزية، مع تهذيب وإغناء، عام 1985م، ولم يُنقل الكتاب إلى العربية إلا عام 2007م على يد المترجم السوري د. عيسى علي عاكوب. ولما صدر الكتاب، أوّل مرّة، ثارت ثائرة وسائل الإعلام الألمانية ضدّ المؤلفة، لأنها وجدت صورة مغايرة لتلك التي يقتات عليها "التيار التخويفي من الإسلام" أو "الإسلاموفوبيون"، إذ الكتاب مكتوب بنفّس علمي مُنصف؛ بل بنفّس علمي إيماني، ولعلّ هذا النّفّس هو ما يعلّل الوصف، الذي كان يخصّ به

(1) إميل أمين، أنا ماري شميل.. عشر سنين على رحيل صديقة الإسلام والمسلمين، مرجع سابق.

المفكر الإسلامي عبد الحليم خفاجي شميل في معظم كتبه، حين كان ينعتها بـ“مؤمنة آل فرعون”، وهو ما يصدّقه ردّها الحازم على الهجمات التي طالتها، لما أفصحت عن علاقتها بنبي الإسلام، شخصية كتابها، بكلمات وجيزة لكنها صاعقة: “نعم إنني أحبه”. حبّ قد يكون عنوان إيمان صامت؛ إيمان تضمّره السريرة ويسكت عنه الظاهر.

ومنذ مفتتح الكتاب، تبوح الكاتبة لقارئها بوحاً دالاً، تقول: “هذا الكتاب هو ثمرة الاهتمام بشخصية نبي الإسلام، تطور على امتداد ما يربو على أربعة عقود”. وهي بهذا تؤكد على أنها تصدر عن معرفة عميقة بشخصية كتابها، وتنفي ضمناً عنها ما قد تتسم به كتابات أخرى عن نبي الإسلام، من تسرع وسطحية وأحكام غير دقيقة؛ أكانت أحكاماً متحاملةً وغير منصفة في أعين المسلمين، أم أحكاماً مجاملةً وممالئة لمعتنقي الإسلام في أعين المناوئين من الغربيين، خصوصاً وأنّ الكتابة عن الإسلام بنفّس مُنصف، قد شحت في الغرب منذ الكتابات الاستشراقية ذات الهوى الإستعماري، إلى الكتابات المتوجسة من الثورة الإسلامية بإيران عام 1979م؛ فضلاً عن الحيوية الخاصة التي يشتغل بها الجناح الإعلامي لليمين المتطرف في الغرب عموماً، وما يفرضه الإرث النازي حيال اليهود من حساسية استثنائية، حيال تمجيد الإسلام في ألمانيا بوجه خاص⁽¹⁾.

لأجل هذا وغيره، تُدكّر شميل أنّ ما تُسطره هو ثمار معرفة مُقَطَّرة، وخلاصة تعمق في الدرس والمعاشرة، تذكير نستطيع أيضاً أن نقرأ أهميته العلمية، وقيّمته الحدسية في ما أثاره صدور كتابها من فورة نقدية من وسائل الإعلام الألمانية، وهو تذكير يقتضيه أيضاً الإيحاء القوي لعنوان الكتاب، والذي ربما يبدد المسافة التي قد يكون ألفها الغربيون حين يتناول أحدهم “نبي الإسلام” بالبحث والدراسة، تناولاً من خارج وعن مسافة عقديّة.

إنّ العنوان هنا يمتلك قوة إقرارية: “وأنّ محمداً رسول الله”؛ ﷺ إذ يتعلّق الأمر بالشرط الثاني من شهادة التوحيد، أول أركان الإسلام ومفتاح اعتناقه، ولعل في هذا العنوان الذي اختارته شميل لكتابها، ما يُنير لنا المسار الذي يجب أن يُتلقى به كتابها. إنه ثريا تضيء الأفق الخاص الذي تخط المؤلفة معالمه، وهي تخصّ الجزء الثاني من شهادة التوحيد في الإسلام باهتمامها وعنايتها العلمية، وكأنّها تطرح على القارئ وتقرّح عليه فهم بعض ما تكتنّزه هذه الشهادة، وتعيّناً هذا الجزء الخاص منها بأمة الإسلام، وما يفيض منها من أسرار ودلالات وإشارات دينية وحضارية في آن واحد.

(1) محمد التهامي الحراق، وأنّ محمد رسول الله للمستشركة الألمانية أني ماري شميل، موقع إسلام مغربي، 1 يونيو 2013م، في: <http://www.islammaghribi.com/.html>

ويأتي العنوان الفرعي ليزيد هذا المنحى تحديداً وتخصيصاً : ”تبجيل النبي في الدين الإسلامي“، وهنا نكتشف أننا إزاء كتابة تنأى بنفسها عن تناول التاريخي الصرف لسيرة الرسول ﷺ، أكان هذا التاريخ حديثاً إخبارياً كدأب المسلمين الأوائل في ”المغازي“، ومصنفات السيرة بدءاً من ابن إسحاق، ثم ابن هشام، أم كان هذا التاريخ ذا مسحة حديثة وضعية يروم اكتشاف الشخصية التاريخية لنبي الإسلام؟، فضلاً عن نأي مؤلفتنا في تعاملها مع السيرة، عن أن يكون تناولها وجهاً من أوجه أدب ”الشماثل والدلائل“، أو ”فقهاً للسيرة“ يستنبط القيم والأحكام من محطاتها ومساراتها.

إنّ كتاب شميل يستفيد من مختلف هذه الأصناف في التعامل مع السيرة المصطفوية، بل ويتجاوز مع هذه الأصناف في ثنايا الكتاب، لكنه يرسم له مساراً خاصاً في البحث عن الصورة التي يبجل بها المسلمون نبيهم في مختلف المظاهر الحضارية، نثراً ونظماً ورسمًا وغناءً واحتفالاً، سواء في الثقافة المكتوبة والمسماة عالمة، أو في الثقافة الشفهية والمسماة شعبية. وهذا عمل يقتضي مهارات علمية ولغوية وصفية وتحليلية تجميعية وتركيبية، مع موسوعية في المعرفة، ترحل بين التاريخ والاجتماع والأدب والأنثروبولوجيا والفلسفة وعلم الأديان، ومختلف المعارف الإسلامية، كما يقتضي بوجه خاص ولعاً متميزاً بالتعرف والتعريف بـ”محمد الأسوة الحسنة“ و”بمنزلته الفذة“ في الإسلام، مع قدرة استثنائية على التقاط علامات هذه المنزلة من الثقافات الإسلامية بمختلف لغاتها وشتى مظاهرها⁽¹⁾.

إنّ هذا الكتاب، وبفضل هذه المهارات التي توافرت لمؤلفته، قد استطاع أن يُقرب للغرب المنزلة الرفيعة، والمكانة الوجدانية الفذة، والمتفردة لنبي الإسلام في الروحانية الإسلامية، وهي المكانة التي وجدت تعبيراتها العلمية والأدبية والفنية والحضارية والجمالية في مختلف المجتمعات، واللغات الإسلامية، تعبيراتٍ أعطت شميل نماذج متنوعة منها، تعكس مختلف العصور والمجتمعات، وتقدم بهاء الصورة وسموّ القيمة وفيض المحبة، التي تُجلّ مقام نبي الإسلام ومُقامه في اللغات الإسلامية، من عربية وفارسية وتركية وبشتوية وأوردية وسندية وبنجابية وسواحلية... وغيرها؛ مبرزةً علامات التنوع والثراء في الحضارة الإسلامية، والتي ينتظمها جوهر أساس، هو التعلق الوجداني بالذخيرة برسول الله صلى الله عليه وسلم.

(1) للاستزادة راجع : أنا ماري شميل، وأن محمدا رسول الله...تبجيل النبي في الدين الإسلامي، ترجمة: عيسى علي عاكوب (طهران : مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، 2007م)، ص 80-87. وصدرت طبعة أخرى عن دار نينوي للدراسات والتوزيع في دمشق.

وقد استطاعت شميل رسم ملامح هذا التعلق من خلال منهجٍ في العرض، يجمع بين الوصف والتحليل، وصف وتحليل الصورة التي يتقدم بها نبي الإسلام في المصادر الإسلامية، باعتباره "الرحمة المهداة للعالمين"، و"أسوة الحسنة"، والنموذج الأمثل للتعلق، ليس فقط بتعاليمه وتوجيهاته، وليس فقط بأخلاقه ومكارم سلوكه، بل التعلق بمختلف تفاصيل حياته اليومية، والعمل على الاقتداء بها. لأجل ذلك، قامت شميل باستحضار سيرة النبي، ﷺ، وصورته في حياة المسلم الحسية والمعنوية، ومدى تمثله لمناقب الرسول الخلقية والخلقية، واحتفائه بالجمال المحمدي الحسي والروحي، مع إبراز العناية الاحتفالية والأدبية والفنية باسم الرسول وصفاته وآثاره، والتمثيل للمواهب المنطلقة في مدحه، والصلاة عليه والتغني بكلماته، أو تلك المُجَلِّية للعناية الفنية بتشكيل اسمه ورواقته في "الحلية"، والمخطوطات والمنمنمات، أو غيرها من القرائح المتوهجة في التشوق لمعاهده المقدسة، والتغزل بأسمائه ونعوته، والممجدة لمولده ومعجزاته، سواء في أشعار المديح النبوي في التقليد العربي، أو في شعر (النعيتية : نعت رسول) في التقليد الفارسي والشعبي... وصولاً إلى الملمح الإبداعي المتفرد الذي اتخذهُ نبيُّ الرحمة في آثار الشاعر والفيلسوف الباكستاني محمد إقبال، والذي حظي في الكتاب، كما هو شأن منزلته في اهتمامات شميل، بإضاءة متميزة.

ولم يكن لشميل، في رحلتها لرصد معالم تبجيل المسلمين لنبيهم ومحبوبهم، أن تغفل عن الحضور المتميز لـ "النور المحمدي" في التقليد الصوفي بياناً وتأصيلاً، بدءاً من حضوره لدى الصوفية الأوائل كما في "الرسالة القشيرية"، للقسري، ثم مع منارات العرفان الإسلامي في القرن السابع الهجري، إلى كبار أعلام التصوف، الذين مازالت تحضر أشعارهم في سماع قوالي فارس وباكستان والهند وتركيا.

وتبرز شميل رحمة النبي الكريم بالأطفال والنبات والحيوانات وغيرها، متوقفة بإمعان عند الخطوة العظيمة التي دشنها في الرفق بالقوارير، مما تعمى عنه العيون الغربية، حين تعجز عن فهم علاقة الرسول ﷺ بالنساء، أو حين تُسقط معنى التحرير النسائي في الغرب على مواقف الرسول ﷺ وأحاديثه، لهذا تشرح بدقة وباستفاضة، دلالات تعدد زيجات رسول الإسلام، دافعة عنه تهمة "الشهوانية" التي ألصقت بنبي الإسلام منذ العصور الوسطى، ومبينة عمق التغيير وعظمة التحول اللذين حققهما الإسلام في التعامل مع النساء. تقول معلقةً على بعض أحاديث الرسول ﷺ عن المرأة: "ولا يبدو ذلك شبيهاً بالحقوق المتساوية لتحرير النساء بالمعنى الحديث، بل كان خطوةً عظيمةً إلى الأمام في نظام اجتماعي

كانت فيه الولائد يوأدن حياتٍ أحياناً، لأن الآباء يخشون من أنهم سيكونون عاجزين عن إطعامهن وتربيتهن“.

وبعيداً عن دعوى استنفاد كل مميزات كتاب شميل عن رسول الله ﷺ، أو الإحاطة بكل ما أتت به من بيانات وتفاصيل، تُبهر بغناها المسلم قبل غير المسلم، لأنها تحقق جسراً بين ثقافات الإسلام الواحد، وتخلق تعارفاً في الآداب والعادات، والمناحي الفنية والجمالية بين مجتمعات الملة الواحدة ولغاتها، وبمعزل عن كل زعم بأن هذه المقاربة توقع قراءة جامعة مانعة لكتاب زاهر ثري، نؤكد أن هذا المؤلف يقدم مثلاً ساطعاً لزواج سعيد بين المعرفة والمحبة، بين العلم والجمال، بين الوحدة والتنوع، حيث تخطّ شميل في كتابها هذا أسلوباً متميزاً في تقديم الإسلام ونبيه للغرب، أسلوباً مداره إبراز الرحمة المحمدية بأبعادها الإنسانية والكونية⁽¹⁾.

• المرأة في العالم الروحاني الإسلامي

ومن بين الكتب الهامة لماري شميل كتاب ”الإسلام بصيغة المؤنث، المرأة في العالم الروحاني الإسلامي“، وهو من الكتب التي كان لها صدى كبير في العالم الغربي، حيث تُرجم إلى اللغة الفرنسية عن اللغة الألمانية. وفيه تكشف المؤلفة عن وضع المرأة في الإسلام، ولاسيما في عالم التصوف من خلال مجموعة من الأعلام النسائية الإسلامية، ومكانتها في العالم الصوفي.

فقد افتتحت أول فصل لها، والذي جاء تحت عنوان ”النبي والنساء“، بالحديث الشريف ”حُبُّ إلي من دنياكم : النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة“، وانطلقت منه متسائلة عن مدى صحة القول بأن الإسلام دين يحتقر النساء، في الوقت الذي برزت فيه مجموعة من الأسماء النسائية التي تميزت عبر التاريخ الإسلامي، ومن تلك النساء قدمت الكاتبة شخصية خديجة أم المؤمنين، ودورها في مساندة النبي ﷺ، ودعمها عقب أول نزول للوحي؛ وعائشة التي تعد نموذجاً للمرأة الفاعلة؛ وفاطمة ابنة النبي ﷺ وعلي كرم الله وجهه؛ وأخت عمر ابن الخطاب الذي أسلم على يدها، بعدما أوشك على قتلها بسبب إسلامها.

بعد أن تطرقت إلى نساء عصر النبوة، عرّجت بنا في الفصل الثاني إلى المرأة في عالم التصوف، فتحدثت عن نساء متصوفات زاهدات، بدأت بشخصية رابعة العدوية التي وردت

(1) محمد التهامي الحراق، وأن محمد رسول الله للمستشرقة الألمانية أني ماري شميل، مرجع سابق.

في الكثير من المراجع الأجنبية، حيث ظهرت في صورة المرأة المتصوفة، التي كانت تعبر أزقة البصرة وفي يدها إناء من ماء، وفي اليد الأخرى مشعل متقد، وعندما كانت تُسأل عن معنى ذلك، كانت تجيب بأنها تودُّ أن تطفئ نار جهنم، وتشعل النار في الجنة لكي يتوقف الناس عن عبادة الله خوفاً من النار أو رغبة في الجنة، وإنما فقط حباً في جماله الخالد. ولم تتوقف الكاتبة عند رابعة العدوية الذائعة الصيت، وإنما أحالت أيضاً على النساء المتصوفات الأوائل كما وردن في المراجع الصوفية، واللواتي كن يُمضين وقتهن في البكاء والصلاة والصيام والقيام، مثل رفيقة رابعة مريم البصرية، وبحرية الموصولية، وريحانة الوالدة، ورابعة الشامية... وتشير الكاتبة إلى أن هناك من النساء المتصوفات من كن متزوجات على خلاف رابعة العدوية، التي كانت ترفض ذلك.

ومن مناقب النساء المتصوفات، أنهن كن يُشاركن في مجالس الذكر، وتتلمذن على يد المتصوفة، كما أنهن عُرفن بالتقوى والإيمان ونشر العلم، مثل أم محمد عائشة وفاطمة بنت تاجادين، اللتين كانتا تدرسان الحديث في دمشق وبغداد. وعرف ابن العربي نساء متصوفات، مثل فاطمة بنت المثنى من إشبيلية، وهي بمثابة أمه الروحية، كما التقى بكثيرات غيرها، كان لهن أثر كبير في حياته، مثل "نظام"، المرأة الفارسية التي التقاها في مكة، وكانت ابنة إمام مقام إبراهيم، حيث قام بجمع أشعاره التي قالها فيها في ديوانه "ترجمان الأشواق".

رغم أنَّ التاريخ يزخر بالنساء المتصوفات، إلّا أنَّ هوية مُعظمهن ظَلَّت مجهولة، باستثناء بعض الأساطير التي تروي عن المكانة الكبيرة التي حظيت بها نساء بفضل قوة إيمانهن.

وفي الفصل الثالث نتحدث الباحثة عن النساء في القرآن والحديث النبوي، فتعرض لنا مجموعة من الأسماء النسائية التي وردت فيها ورمزيتها، باستثناء امرأة أبي لهب التي ظهرت في صورة امرأة مذمومة، فقد ذكر القرآن مجموعة من الشخصيات النسائية، التي يُمكن أن تتخذها بقية النساء قدوة لهن. فبدأت الكاتبة بحواء التي برأتها من التهمة الموجهة إليها في إغواء آدم، ووقوعه في الخطيئة، وتعلل ذلك بعدم وجود إشارة واحدة تدلُّ على ذلك في القرآن، وتخلص الكاتبة إلى أنَّ مجموعة من الأفكار المنتشرة اليوم عن المرأة، لا ترجع إلى المبادئ القرآنية، وإنما إلى تفسيرها الخاطئ.

ثم تواصل عرض أسماء النساء المذكورات في المراجع الدينية، مسترسلة بهاجر زوجة إبراهيم عليه السلام، مشيرة إلى علاقتها بالصفاء والمروءة، وابنة نمرود التي يروى أنَّ الله تعالى نجاهها وإبراهيم من النار بعد أن آمنت به؛ وآسية امرأة فرعون التي يعتبرها بعض

المفسرين "المرأة المثالية"؛ والملكة بلقيس التي تعدّ رمزاً للحكمة والجمال. أمّا عن قصة يوسف وزليخة، فقد كتب عنها العديد من الشعراء والكتاب والمتصوفة، وألهمت الرسامين أيضاً، كما ترمز زليخة عند بعض الكتاب للصبر والنفس اللوامة.

وفي الفصل الرابع نتحدث عن النساء والرجال وتهذيب النفس، فتشير إلى ورود كلمة النفس في صورتها الإيجابية : النفس اللوامة، النفس المطمئنة، النفس الراضية المرضية، وفي صورتها الأخرى السلبية، وهي النفس الأمارّة بالسوء.

أمّا عن زواج المتصوفة، فيفضل بعضهم عدم الخوض في تلك التجربة خوفاً من الشهوة، ومن أجل التفرغ لعبادة الله، إلا أنّ الكاتبة تشير إلى أنّ الزواج الذي يكون فيه الطرفان من المتصوفة، يُكلل بالنجاح لوجود اهتمام ديني مشترك، ولاسيما عندما تكون المرأة من "أولياء الله". وقد اعتُبرت المرأة التقية "رجلاً" أرسل على هيئة امرأة، فالرجولة عند ابن العربي، هي : عندما يتخلى الفرد عن الشهوات الدنيوية ويتبع الطريق الروحاني.

وفي الفصل الخامس تتناول المرأة العجوز أو النساء المسنات عند المتصوفة، حيث يجسّدن الحكمة البالغة والإيمان القوي بالله والهمة العالية والأمل والثقة من خلال مجموعة من القصص يسردها المتصوفة في كتبهم.

وفي الفصل السادس نتحدث عن الأمهات اللواتي لعبن دوراً كبيراً في حياة العلماء والصالحين، فكان من مظاهر ذلك أنّ بعض الأبناء حملوا أسماء أمهاتهم اللواتي لمعن في ميدانهن، كما استدلت الكاتبة بأمثلة من التاريخ على ذلك، واضطلعت الأمهات بدور مهمّ في سير أولياء بارزين، حيث كانت أمهات زاهدات قدوة لأبنائهن الذين مشوا على خطاهن. وقد كتب شعراء مسلمون عن أمهاتهم اعترافاً بفضلهن عليهم، وفي هذا السياق، أبدت الكاتبة إعجابها بأمهات مسلمات بعد زيارتها لهن، وبالا احترام الكبير الذي يُكنه لهن الأبناء على اختلاف مستواهم التعليمي.

وكان دور الأم حاضراً في الأدب الصوفي، حيث يرى المتصوف جلال الدين الرومي، أنّ تسمية "رحم" الأم مشتقة من اسم الجلالة "الرحمان-الرحيم". فالأم هي ذلك الملجأ الدائم للطفل، كما هو الله سبحانه ملجأ كل إنسان. وشبه المتصوفة آلام المخاض بالتجربة الروحية للمتصوف، فما أن يرى الإنسان محبوبه حتى ينسى الآلام التي مرّ بها. مثل قصة مريم عليها السلام، والأم عند رؤية وليدها، والنسوة اللاتي قطعن أيديهن دون أن يشعن بالأم عندما رأين يوسف عليه السلام.

وتتناول في الفصل السابع، المرأة من تجليات الخالق، فتتعرض لحب المرأة من خلال قصص، مثل قصة يوسف وزليخة، ومجنون ليلى، وجميل بثينة، وسليمان وبلقيس، مشيرة إلى ربط بعض كتاب وشعراء العصر الوسيط المرأة بمظاهر العبادة، واعتبروها أحد تجليات الخالق، حيث قارنوا الكعبة بامرأة تكتسي رداءً، والتي من أجلها يحج الناس طواعية من كل صوب ونحب، ويركبون طريقاً وعراً من أجل بلوغها ولمسها وتقبيل شامتها، أي الحجر الأسود. أمّا ابن العربي، فيرى أنّ النساء اللواتي قابل في الكعبة هن ”ملائكة تحوم حول عرش الرحمان“ ومظهر من مظاهر الحكمة الإلهية. فالمرأة بذلك عند ابن العربي أجمل تجليات الخالق.

وفي الفصل الثامن تطرقت الكاتبة إلى عشق الروح للإله، إذ تستطيع المرأة أن تصبح من ”رجال الله“ لأن الروح تسعى باستمرار إلى اكتشاف طريق تؤدي بها إلى المحبوب الإلهي، رغم كل المحن التي تحفّها. وعرضت الكاتبة الفكرة التي تعد أنّ الموت عرس، لأنه يسمح بقاء الروح مع محبوبها الأصلي.

وتقدم لنا في الفصل نفسه صورة يقارن فيها المتصوفة الكون بالمرأة، حيث تشبّه هذه الأخيرة بالخلق الذي يسمح التأمل فيه، - مثل التأمل في المرأة - بإدراك عظمة الخالق. فالخلق انعكاس لقدرة الخالق لمن يتدبر فيه ويستحضر أسماء الله، فإن غُيّبت عجز الإنسان عن إدراك تلك العظمة. وفي هذا السياق، يقول الرومي إنّ المحب الحقيقي يحول قلبه إلى مرآة نقية وصافية، يرى فيها محبوه أقرب إليه من نفسه.

وفي الفصل التاسع طالعت الكاتبة الأدب والشعر الصوفي في الهند وباكستان، الذي عالج تيمة النفس الأنثى، حيث يُروى أنّ الشعر الصوفي في السند كان يُعدّ للغناء، وليس للقراءة، حيث كانت تردده النساء القرويات في السند، وبنجاب عند اشتغالهن بأعمال الرعي والغزل. ويُسبّه المتصوفة عصا الرعي بالرقم واحد، الذي يرمز إلى الله الواحد، أمّا قاعدة الرعي، فهي ترمز إلى الرسول ﷺ، الذي كان مستقبل الرسالة الإلهية. لذلك تُضيف أنه وجب على النساء استحضار هذه الصورة، وتذكر الله دائماً خلال عملهن بهذه الأدوات، استجابةً لقوله عزّ وجلّ ”اذكروا الله ذكراً كثيراً“.

وفي حديثها عن الرمزية في الأدب الصوفي، قدمت مثلاً للخيط الذي يرمز للعالم، أصله قطن كأصل العالم ”الله“. عندما يصبح الخيط دقيقاً من خلال عملية النسيج المتواصل، فإنه يُشبه قلب الإنسان الذي يتطهر عبر تفكير وذكر الله الدائمين. فضلاً عن ذلك يرى بعض

المتصوفة أن نسج الصوف شبيه بنسج الأعمال التي تكون لباساً روحياً للإنسان. وعرضت الكاتبة أيضاً أنواع القصائد التي أعدها شعراء الهند وباكستان عن حب الأنثى وشوقها.

في الفصول الثلاثة الأخيرة، اختارت لنا الكاتبة ثلاث قصص، يتغنّى بها المتصوفة لما لها من رمزية ودلالات، كما أنها تدور جميعها في فلك الروح المسجونة في الحياة الدنيا، حيث تدرك بطلات هذه القصص أنه لا يوجد حب في الحياة الدنيا غير حب لقاء المحبوب الأولي.

حيث تسرد قصة "ساسي"، وهي بطلّة إحدى القصص الرومانسية الشعبية من تراث السند وبنجاب، حيث كانت امرأة فائقة الجمال ماتت بحثاً عن محبوبها الذي أبعد عنها.

واعُتُبرت رحلة ساسي، بحثاً عن محبوبها ومعاناتها، شبيهة برحلة بحث داخلية يقوم بها المتصوف بحثاً عن حب الله، إذ تسمح له معاناته بتطهير نفسه. ولا يتوقف البحث عن هذا الحب حتى الممات. واعتبر المتصوفة الموت أمراً محموداً لأنه يجمع المحب بمحبوبه. فيوم الموت بالنسبة للرجل التقي، هو يوم عرس سوف يعرف لقاء الروح بمحبوبها.

وعلى غرار القصة السابقة، جاءت قصة "سُهني" التي تلقى الحنف نفسه وموت غرقاً بحثاً عن محبوبها، بعد أن كُسرت الجرة التي كان من المفترض أن تُنجدّها. والكسر في الصوفية يعني كسر جميع الروابط التي تربط الإنسان بالحياة المادية، ولذلك كان لا بد من انكسارها لتستطيع سُهني أن تلتحق بمحبوبها الإلهي دون أي حاجز مادي. كما ترمز سُهني إلى الروح التي تتحلّى بالصبر والامتنان.

وأما القصة الثالثة فهي قصة عمر ومروي، التي لا تخلو أيضاً من رمزيات يسقطها المتصوفة على الإنسان، إذ تحيل الكاتبة على الشاه عبد اللطيف، الذي قدم شخصية "مروي" الباكستانية، كرمز للحنين إلى الوطن وللروح التي تحتفظ دائماً بصورة وطنها الأصلي، وهو محبوب مروي في هذه القصة الذي أبت أن تفارقه بعد أن اصطحبها عمر إلى قصره. كما أن رفضها لهدايا عمر الثمينة يدل على وجوب رفض الانزلاق وراء المغريات الدنيوية.

وتعرض الكاتبة صور الحنين إلى الوطن الأم وتفضيله على غيره من الأوطان، رغم ما يمكن أن يضم من سلبيات. وتُختتم القصة بإطلاق سراح مروي بفضل وفائها الكبير، وفي سياق هذه القصة، يقول الرومي ومجموعة من الشعراء المتصوفة، إنه من المستحيل الرقي بالنفس إلى مستوى أعلى دون الابتعاد عن الوطن الأم، وهو ما تعرض له الرسول الكريم بعد أن هاجر إلى المدينة ليصبح حاكماً عليها، ويوسف عليه السلام إلى مصر ليصبح عزيزها.

وفي ختام هذه الكتاب، تُشير الكاتبة إلى معاناة المرأة في العالم الإسلامي بسبب التفسير الضيق للمبادئ الإسلامية، وتدعو إلى دراسة الشخصيات النسائية في الأدب الإسلامي، من أجل زعزعة المبادئ المغلوطة التي ترسبت عن المرأة. كما ترى الكاتبة أنَّ الانفتاح على مختلف المراجع التراثية الإسلامية للعرب والفرس والترك والهند، كفيل بإعطاء فكرة جديدة، تتجاوز المسلمات الموروثة وتصحح الأفكار المسبقة، لأنها تؤمن بضرورة إزالة كل فرق بين الرجل والمرأة في الحياة الروحية.

وقد أتحفتنا الكاتبة بما قدمته من أعلام نسائية في عالم التصوف، وما أبرزته من تأثير لهن على عدد من المتصوفة الكبار، بفضل قوة إيمانهن وورقي أخلاقهن وحسن سيرهن. رغم أن كتب التاريخ مرت مرور الكرام على مثل هذه الأعلام النسائية، إلا أنَّ مثل هذه الدراسات تجعلنا نتوقف عند كل شخصية لنستوعب، وندرك المكانة والأهمية التي حظيت بها بفضل العلم الذي تسلحن به وقوة الإيمان التي تمسكن بها⁽¹⁾.

• كارهون ومعارضون

ولقد كان من الطبيعي أن تجد باحثة بلغت هذا القدر الكبير من الإنصاف للإسلام وأهله، بل وربطت حياتها بالدين ورسول الله بحب كبير - في فترة كان المستشرقون ييثنون السموم ويحاولون النيل من هذا الدين وثوابته - من الطبيعي أن تجد من يقف لها بالمرصاد، وخاصة حين تقف موقف الدفاع المستميت عن ثوابت الإسلام.

لذلك تعرّضت جهودها العلمية للتشكيك من قبل أوساط يهودية ومسيحية يمينية، في محاولة للتقليل من شأنها أمام الرأي العام، فكانت آثار ذلك، أن زاد الإقبال على فكرها وجهودها وتسلط الضوء عليها.

لقد كانت تلتمس من الله العون دائماً، ولا تشعر أنها ليس لها قوة إلا بفضلها، فقد اتهموها بالتنديد بالكاتب المغرض سلمان رشدي، حين أصدر كتابه "آيات شيطانية"، حيث اعتبرت الكتاب يمّسّ مشاعر المسلمين في ثوابتهم، والنيل من النبي الأعظم ﷺ، وقالت إنَّ هذا الكاتب "مّسّ مشاعر الملايين من المؤمنين - من المسلمين والمسيحيين خاصة - بطريقة

(1) بشرى الغزالي، قراءة في كتاب: الإسلام بصيغة المؤنث، المرأة في العالم الروحاني الإسلامي، أن ماري شميل، موقع مركز الدراسات والبحوث في القضايا النسائية في الإسلام، 27 سبتمبر 2012م، في :

<http://www.annisae.ma/Article.aspx?C=5705>

سيئة وبأسلوب مهين“. وأضافت: ”لقد رأيت مسلمين سيكون بسبب كتاب رشدي... لقد رأيت مسلمين في أمريكا منزعين جداً من الرواية الدينية، وهذا الشعور أيضاً سائد في الهند - مسقط رأس الكاتب - وفي باكستان، ”ثمة معتقدات دينية لا يمكن للمعتدي عليها أن ينجو من العقاب، مهما طال الزمن، ومهما لقي من حماية ورعاية من بعض الدول أو الجهات“.

كما اتهموها بتأييد الفتوى التي صدرت عن المرجعيات الإيرانية عام 1989م، بقتل المرتد سلمان، رغم أن كتابها ”محمد نبي الله“ قد صدر عام 1981م، أي قبل 8 سنوات من صدور الفتوى، إلا أن الهجمة عليها كانت من أجل الإسلام، لقد تجرد المعارضون من الأمانة العلمية، واكتفت شميل بأن هدفها من دفاعها هو عدم المساس بالمشاعر الدينية.

كما اتهمها المخالفون بأنها تدعم الأصولية بتقديمها لكتاب ”الإسلام كبديل“ للبروفيسور مراد هوفمان، السفير الألماني السابق في المغرب، (الذي أصبح أصولياً فجأةً ومتطرفاً)، على حد قولهم، ونسوا أنه مفكر كبير، ولم يكن انتقاله إلى الإسلام إلا عن اقتناع ودراسة طويلة، وتكرر الاتهام حين قامت برثاء الجنرال ضياء الحق، لأنه كان له مواقف من حقوق الإنسان، وحقّ باكستان في امتلاك قوة الردع النووي حيال الهند التي تحتل كشمير، مخالفة للقرارات الدولية، ولا يعني رثاؤها تأييدها للنظام، فرحلاتها لباكستان كانت زيارات علمية، وكانت تلتقي بعناصر الشعب كافة.

• حبّ وتكريم وجوائز عالمية

ولقد نالت شميل نظير مسيرتها العلمية الحافلة الكثير من الجوائز وأوسمة التكريم، لعلّ أهمّها جائزة «فردريش ركارث» الألمانية سنة 1965م، ووسام القائد الأعظم لجمهورية باكستان الإسلامية سنة 1966م، ووسام الاستحقاق الألماني من الدرجة الأولى سنة 1982م. بالإضافة إلى نيلها جائزة السلام، التي فتحت عليها نيران الاعتراضات من قبل المؤسسات اليهودية.

وفي شهادة التكريم التي صاحبت جائزة السلام لعام 1995م، التي حصلت عليها -والتي تُعدّ أهمّ جائزة من نوعها بعد جائزة نوبل للسلام- عللت اللجنة المانحة للجائزة قرار إسنادها للمستشرقة الألمانية بما يلي : «تمنح رابطة الكتاب الألماني الجائزة لماري شميل، التي كرست جهدها طيلة حياتها من أجل التعريف بالإسلام، وإيجاد روح القبول له ومظاهر الحياة في إطاره، ومن أجل إيجاد إمكانية التقائه بأبعاده التجديدية حضارياً مع الغرب».

ولقد شكلت مناسبة حصول «ماري شميل» على جائزة السلام لرابطة الكتاب الألماني، سنة 1995م فرصة سانحة لانقضاء الجماعات المسيحية واليهودية المتطرفة عليها، من خلال حملة إعلامية، استهدفت التشكيك في قيمتها العلمية ونزاهتها، والخط من مكانتها لدى الرأي العام في بلادها، وفي الغرب عموماً، غير أنّ الحملة فشلت فشلاً ذريعاً، بل وساهمت في تسليط مزيد من الضوء على جهودها.

ولقد وجدت شميل خلال مسيرتها الحافلة الكثير من المحبين والمدافعين، بقدر ما وجدت من الأعداء والمناوئين، وجاء الرئيس الألماني السابق «رومان هيرتسوج» على رأس المتعاطفين مع «السيدة الفاضلة»؛ حيث حرص على أن يسلم بنفسه جائزة السلام لعميدة المستشرقين، ويلقي خطاباً في 10 يناير 1995م، في حفل تسلّمها الجائزة، وأن يقول في حقّها كلمته الشهيرة: «إنها هي من مهدت لنا الطريق للإسلام»، واختارها مستشارة له لشؤون العالم الإسلامي.

وقال عنها هيرتسوج: أنه لولا أنا ماري شميل لما عرف الألمان الكثير عن الإسلام، ولما أدركوا أن الصورة النمطية التي تروج عنه، لا تستند إلى شيء من تعاليم هذا الدين، ودعا رئيس الجمهورية إلى قراءة كتب شميل جيداً لإدراك تعاطفها الحقيقي مع قيم الإسلام النبيلة وحضارته العظيمة، وأنها كانت دائماً ساعية إلى التفاهم بين الثقافات، وهي الرسالة التي يجب أن ينهض بها المثقفون في كل العالم.

ولعلّ من المفيد هنا أن ننقل بعض ما ورد في خطاب الرئيس الألماني، لنعلم عظمة الدور الذي قامت به «شميل» في تقريب الأفهام من الإسلام، وإيصال صورة حقيقية لهذا الدين الخاتم إلى عقل وفكر كبار الساسة في المجتمع الغربي

فقد قال في خطابه راداً على المعارضين لمنح (شميل) جائزة السلام، أنهم يعارضون ذلك، لأنّها تناصر الفكر الإسلامي، وتتعامل معه بإنصاف، وتدعو إلى فهمه وتغيير الصورة الشوهاء، التي كوّنّها الإعلام الأوربي عن الإسلام والمسلمين.

وقال: «وهناك ظاهرة تبدو واضحة في علاقاتنا وتعاملنا مع الإسلام في عصرنا الحاليّ. إنّنا لا نتجنّى على الرأي العام الألماني، إذا قلنا إنّ ما ينعكس في مخيلة الكثير منّا عند ذكر الإسلام، إمّا هو (قانون العقوبات اللاإنساني) أو (عدم التسامح الديني) أو (ظلم المرأة) أو (الأصولية العدائية)، ولكن هذا ضيق أفق يجب أن نغيّره، فلنتذكّر بالمقابل موجة التنوير الإسلامي، التي حفظت للغرب قبل ستة أو سبعة قرون أجزاء عظيمة من التراث القديم، والتي وجدت نفسها آنذاك أمام نمط من الفكر الغربي، لا شكّ أنّها شعرت أنّه أصولي وغير متسامح».

وفي مقطع آخر من خطابه، يُوضّح الرئيس الألماني سبب العداء للإسلام، هو جهل الأوروبيين بالإسلام، لذا نجده يتساءل في خطابه: «أليس محتملاً أن يكون سبب عدم تفهّمنا للإسلام هو رسوخه على أسس عميقة من التدينّ الشعبي، بينما نحن إلى حدّ كبير في مجتمع علماني؟، وإذا صدق ذلك فكيف نتعامل مع هذه الإشكالية؟، هل يحقّ لنا أن نصنّف المسلمين الأتقياء مع (الأصوليين الإرهابيين)، فقط لمجرّد افتقارنا نحن للإحساس السليم تجاه الاستهزاء بالمشاعر الدينية للآخرين، أو لكوننا لم نعد قادرين على التعبير عن هذا الإحساس السليم».

ثمّ يعترف الرئيس الألماني بعدم معرفته بالإسلام بشكل أفضل، إلّا بعد الإطلاع على كتب المستشرقّة المنصفّة (شميل)، فيقول: «لم يبدأ إطلاعي على تلك التعدّدية والتنوّعية الهائلة في نطاق الاتجاهات الإسلامية في تاريخ الإسلام وواقعه المعاصر بادئ ذي بدء، إلّا من خلال كتب ماري شميل، وربّما مرّ سواي بنفس هذه التجربة. إننا بحقّ في حاجة إلى تعويض ما فوّتنا على أنفسنا من فهم بعضنا بعضاً...».

ثمّ يدعو الرئيس الألماني إلى فهم الإسلام لتحديد موقف آخر منه، غير الموقف الذي بُني على الجهل به، فيقول: «أقرّر أنّه لا يوجد أماننا خيار آخر سوى زيادة معرفتنا بالعالم الإسلامي، إذا أردنا أن نعمل من أجل حقوق الإنسان والديمقراطية».

ثم قال: «وإنّ السبب الحقيقي للتشوّق لمعرفة الإسلام والتعرّف على حضارته الغنيّة، إمّا ينبع «من انتمائنا إلى حضارة مغايرة له. لقد أيقظت السيّدّة شميل هذا الشوق في نفسي، وأتمنّى أن يكون هذا هو حال الكثير سواي... ولقد مهّدت لنا هذا الطريق للقاء بالإسلام...».

ولا شكّ أنّ معركة منح جائزة السّلام في ألمانيا للمستشرقّة شميل عام 1995م، وانتصار جبهة شميل التي تعني انتصار التيار الدّاعي إلى تفهّم الإسلام لتحديد الموقف منه، ومن هؤلاء الطّبقة المتقدّمة من المفكرين والسياسيين، وفي طليعتهم الرئيس الألماني الذي قرأنا عبارات هامّة من خطابه، كلّ ذلك يؤكّد عظمة الإسلام، واستعداد الإنسان مهما كان بعيداً لأن يتفهّمه ويقبل عليه.

بالإضافة إلى تكريمها في الغرب، نالت التكريم والحب في العالم الإسلامي، فتّم تكريمها من قبل الرئيس المصري الأسبق؛ حيث منحها وسام الاستحقاق، ومنحتها جامعة الزهراء الإيرانية درجة الدكتوراة الفخرية، قبل رحيلها بأربعة أشهر.

وفي سبتمبر 2001م نظمت جامعة الإمارات مؤتمراً يبحث علاقات ألمانيا بالعالم العربي والتأثيرات المتبادلة بين الثقافتين، وشارك في المؤتمر 25 مثقفاً وأكاديمياً من العالم العربي و25

آخرون من المستشرقين والمتقنين الألمان. وقد اختارت أمانة المؤتمر المستشرقة شميل ضيفة شرف للمؤتمر.

ومما لا شك فيه أنَّ البعض يمتلكهم الحيرة، عندما لا يجدون في تاريخها أنها أشهرت إسلامها، ولا يعلم الكثيرون مقدار ما خاضت من حروب طويلة لترسي قاعدة التعريف بالإسلام، والوقوف عند الحياد العلمي، وتقديم الصورة الصحيحة للغربيين عن نبيه ﷺ، ولم تكن لتقدر على خوض حربين في آن واحد، إننا نتعامل بعاطفية شديدة مع هذه الأمور، ونحبُّ أن تكون سيدة مثل شميل - نصرت الإسلام طيلة عمرها - تكون بيننا امرأة مسلمة، لقد أسدت للإسلام الكثير ولم تنتظر الأجر من أحد، وما ضرَّها ألا يعرف عنها العالم كلُّه ما بذلت، فربَّها أعلم بها، لقد كانت تكتب عبارة على أغلفة كتبها المهداة إلى خواصها نصَّها: «الفقيرة إلى رحمة ربِّها المشكورة»، وقد لاقت وجهه الكريم، وهي تحبه وتدمع عيناها، كلما ذكرته، وأعلنت في كلِّ مؤلفاتها كلمة التوحيد، وشهدت أنَّ الرسول حقٌّ، ألا يكفي هذا كله لأولي الأبواب ليتركوها وشأنها مع ربها، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

لقد شهد لها كل من التقى بها بخير، ولعلَّ في صمتها حكمة يعلمها الله، حتى تشغل الناس بعملها الضخم، الذي يقدر بـ 120 مؤلفاً عن الإسلام - كما يذكر الدكتور ثابت عيد - الذي ما دُكرت إلَّا ترخَّم عليها، وأطلق عليها المفكر الإسلامي عبد الحليم خفاجي "مؤمنة آل فرعون" وكان يعني تشبيهها بمؤمن آل فرعون الذي قال عنه الله في محكم آياته ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾⁽¹⁾.

لقد كانت لأكثر من ستين عاماً تبحث عن الحقِّ، وما مثل شميل تجهل الإسلام، وما مثلها تنقصها الشجاعة في أن تقول ديني الإسلام، إلَّا لحكمة يعلمها إلَّا الله.

ونحبُّ أن نريح عقل وقلب من أحبَّها بأنَّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، لقد قال فقهاؤنا: "إن الإيمان محله القلب، والإنسان قد تمنعه تبعات الكلمة أن يجهر بها، وإن المكلف إذا نوى الإيمان بقلبه كان مؤمناً"، وقد مات النجاشي في قومه - رحمه الله - وهو يكتُم إيمانه عن قومه، وصلى عليه رسول الله ﷺ حين أفضى إلى ربِّه صلاة الغائب، وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير في صحته من التكليف؛ إنما يشترط سماع الغير له ليكفَّ أيدي الناس عن نفسه وماله.

(1) غافر : 28.

الفصل الثاني

من ألمانيا.. المستشرقة زيجريد هونكه

مؤمنة آل فرعون

نحن هنا أمام نموذج نسائي استشراقي فريد ممن عشقن الإسلام، وهي المستشرقة الألمانية «زيجريد هونكه»، التي تعدّ من أشهر المنافحين عن الإسلام في الغرب، فهي أول باحثة أوروبية تفند الأحكام المقلوبة، والتهم الملفقة التي يلصقها الغرب بالعرب والمسلمين، ولهذا أحبّها المسلمون وحرصوا على تكريمها، كلما زارت دولة إسلامية، واشتهرت بأنها سفيرة التقريب بين الشرق والغرب، وصارت تحتل مكانة كبيرة في نفوس العرب والمسلمين، حتى رحيلها في نوفمبر عام 1999م عن عمر يناهز 83 عاماً.

إنها بحقّ أهمّ وأعظم المستشرقين الألمان، بل والأوروبيين، وأكثرهم عدلاً وإنصافاً للإسلام وحضارته على مستويات الدين والعرق والثقافة، فقد قامت بدور مشهود في تحسين صورة العرب والمسلمين، والدفاع عن حضارتهم وثقافتهم، وأخلاقهم وتاريخهم، وتقريب الحقائق التاريخية إلى الرأي العام الغربي، دون أي تشويه أو دعاية غير مسنودة بمنطق بحثي، مؤسس على أدلة علمية قوية، والتقليل من تأثير الدعايات والمزاعم التي روجتها بعض الأقلام في ديار الغرب، لأهداف تمّ تحديدها مسبقاً وبغناية فائقة⁽¹⁾.

فعندما تعرفت على حقيقة الإسلام أوضحت، لغير المسلمين من أبناء الغرب، الصورة الحقيقية للإنسان المسلم، وكشفت زيف الأحكام الأوروبية المسبقة عن اضطهاد الإسلام للمرأة، وبنيت للأوروبيين التأثير الواضح للحضارة العربية الإسلامية، في التطور والنهضة الأوروبية على الأصعدة كافة، كالطب والهندسة والعلوم والثقافة.

فهي واحدة من المستشرقين المنصفين الذين درسوا الحضارة العربية والإسلامية، وفهموا حقيقة الإسلام، وأشادوا به كدين عالمي صالح لكل زمان ومكان، وقد أصدرت

(1) إبراهيم نويري، زيجريد هونكه (1913 - 1999م) سفيرة التقريب بين الشرق والغرب، منتديات قبيلة يافع على الانترنت، 29 مايو 2013م، في: <http://yafeau.net/vb/showthread.php?t=55356>

عام 1960م كتابها الشهير «شمس الإسلام تسطع على الغرب»، دفاعاً عن الحضارة الإسلامية، وبياناً لتأثيرها في العالم الغربي، وترجم هذا الكتاب إلى 17 لغة، وبيعت منه مليون نسخة.

ثم نشرت كتاباً آخر بعنوان «الله ليس كذلك» أو «ليس الله كما يزعمون»، دفاعاً عن العرب والمسلمين، كشفت فيه عن ألف من الأحكام المسبقة، التي روجت في الغرب ضد الإسلام وأهله.

وجاء كتابها الثالث «التوجه الأوربي إلى العرب والإسلام.. حقيقة قادمة وقدّر محتوم»، ليرز دور الحضارة العربية الإسلامية في نهضة أوربا، التي عاشت قروناً طويلة في ظلمات من الجهل والتخلف، كانت فيها الحضارة الإسلامية في أوج تقدمها وازدهارها.

وقد نالت هونكه عدداً من الأوسمة والأنواط، ومنحتها مصر وسام النجمة الكبرى، تقديراً لجهودها في الدفاع عن القضايا الإسلامية، وكان لها تقدير كبير ومكانة عظيمة في العالم الإسلامي، وتلقت أكثر من عشرين دعوة من رؤساء دول وحكومات وجامعات عربية وإسلامية، وكانت معروفة لدى وسائل الإعلام والهيئات والمؤسسات الإسلامية، وتستقبل وتودع بحفاوة أينما حلت.

• سيرة ذاتية

ولدت زيجريد هونكه، في 26 أبريل 1913م بمدينة «كيل» الألمانية، ووالدها هو الناشر الألماني الشهير هاينريش هونكه، وقد تخصصت في مقارنة الأديان، ودرست الآداب والفلسفة وعلم النفس والصحافة، وتعلمت اللغة العربية وأتقنتها، وأخذت في قراءة الكتب العربية والتاريخ العربي وبالأخص الأندلسي، وحصلت على الدكتوراة سنة 1941م.

تقول عن مشوار حياتها: «لقد أتاحت لي الفرصة منذ نعومة أظفاري، أن أهتم بالفكر والأدب، ولكوني ابنة ناشر وتاجر كتب مشهور في «كيل» على ساحل بحر الشمال، فقد نشأت بين الكتب، وكان يتردد على بيتنا شعراء وكُتّاب، وناشرون معروفون، والحقيقة أنني كنت أريد أن أدرس الموسيقى، لكن قاعات المحاضرات بالجامعات جذبتني بشدة أكبر، فتعمقت في الفلسفة وعلوم الأدب الألماني، وعلم النفس وعلم مقارنة الأديان، على يد أساتذة وفلاسفة كبار في كل من برلين وفرايبورغ، وبعد إمتحان التخرج صرْتُ مساعدة لباحث العربية المتميز آنذاك «لودفيغ كلاوس» مما أتاح لي الفرصة للإطلاع على الثقافة الشرقية والتعمق فيها».

وكان من بين العوامل التي عزّزت لدى هونكه نزوع التقرب من العرب والمسلمين، والتعمّق في تاريخهم ومساهماتهم في الحضارة الإنسانية، زواجها من مستشرق أكاديمي كبير له اهتمامات مماثلة، كان عضواً في إحدى البعثات الدبلوماسية الألمانية، ويتكلم العربية بطلاقة، وهو الدكتور «شولتز»، وقد أنجبا ابناً يعمل أستاذاً جامعياً للتاريخ الحديث، وبنيتين.. تعمل الأولى بمهنة الطب، في حين تعمل الثانية مربية في حقل التعليم.

وقد تخصّصت هونكه في التأليف والكتابة عن الحضارة العربية الإسلامية، مدافعة عنها ضدّ موجات تشويه الصورة، التي يتعرّض لها العرب والمسلمون من حين لآخر، ذلك أنّ دراستها وتخصّصها في أصول الأديان المقارنة، ونزاهتها العلمية، كلّ ذلك ساقها إلى الإعجاب بالعرب والمسلمين، وسماحة دينهم وإنسانية حضارتهم.

وتسبّب نشرها لآرائها في إزعاج وأذى لها من قبل بعض المتطرفين، المناهضين للعرب والمسلمين في الغرب، مما جعلها تلوذ بالانضمام إلى بعض الجمعيات الوطنية الألمانية، التي تعمل على تقارب الثقافات، ونشر قيم التسامح والتعارف بين شعوب العالم.

وبعد الحرب العالمية الثانية وسقوط ألمانيا، ذهبت إلى المغرب، وعاشت سنتين في طنجة، ثم رجعت إلى ألمانيا واستقرت في بون، لتقوم بتأليف كتبها المشهورة عن العرب والمسلمين، لا سيما الأندلسيين.

وكان طبعياً أن تختم هذه المستشرقة النبيلة حياتها الحافلة بالعطاء والنشاط بأحسن خاتمة، ألا وهي اعتناق الإسلام، فقد نقل عبد الرزاق المبارك عن الدكتور علي عبد الله الدقّاع، أستاذ الرياضيات والباحث المعروف بجامعة البترول والمعادن بالظهران بالمملكة العربية السعودية، خبر إسلامها قبل وفاتها، حيث قال : كنت في أحد المؤتمرات العلمية في أوروبا، وقد تحدثتُ إلى الدكتورة هونكه، وكنتُ مطلعاً على كتاباتها وإنصافها لعقيدتنا وحضارتنا، ورأيّتها وقد كبرتُ سنّها، قلت لها : إنّ لي حُلماً جميلاً أرجو له أن يتحقّق. فقالت لي: وما هذا الحلم..؟ قال فأجبْتُها : بأن حياتك العلمية والثقافية الطويلة، حافلة بصفحات ناصعة في الدفاع عن مآثر العرب والمسلمين وتاريخهم، وإني لأرجو أن يكون لهذه الحياة الحافلة، وهذه السيرة العلمية المميّزة تكملة جميلة، وأن تُختم بأحسن ختام، وذلك بأن تعتنقي الإسلام. قال: فرأيتُ عينيها اغرورقتا بالدموع.. ثم قالت لي بالعربية الفصيحة: «بيني وبين ذلك قاب قوسين أو أدنى».. قال فما مرّ عام أو أكثر حتى سمعتُ خبر اعتناقها للإسلام، وسمعتُ خبر وفاتها بعد ذلك بمدة، رحمها الله تعالى⁽¹⁾.

(1) المرجع السابق.

• دراسات ومؤلفات رائعة

بدأت هذه الباحثة مغامراتها في التنقيب والحفر بين أضياف الصحف، والمجلات وأكوام الكتب، والمجلدات، مع بداية زواجها في مرحلة الشباب، وكان ثمرة جهدها الأول، باكورة مؤلفاتها، الذي كتبته كما تقول هي نفسها: «بين قماطات الأطفال وملاعق الطبخ، كان أطفالي إلى جانبي دوماً، يحرقون الأحذية البالية في المدفئة، أو يدهن كلّ منهم شعر الآخر بكريم الأطفال».. كان ذلك الكتاب بعنوان «في البدء كان الرجل والمرأة»، الذي صدر عام 1955م، وفيه عرض وتحليل لتطور العلاقة بين الجنسين، ثم صدرت النسخة المنقحة له عام 1987م. وقد امتدح الأخصائيون والنقاد والقراء هذا الكتاب المنحوت بلغة أخاذة، واعتبروه أحد أهمّ المؤلفات في علم النفس، وتحديدًا في مسألة فهم العلاقة التكاملية بين الجنسين، ومدى علاقتها بوظيفة كلّ منهما.

أمّا كتابها الثاني الذي كان مفاجأة كبيرة جداً للأوساط الأكاديمية والعلمية في أوروبا، أثناء ظهوره، فهو كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب»⁽¹⁾، الذي حقق سنة 1960م، ذروة النجاح لهذه الباحثة ذات الإرادة القوية في البحث عن الحقيقة، حيث احتل مكاناً متميزاً ضمن قائمة الكتب الأكثر رواجاً في العالم، وبيع منه أكثر من مليوني نسخة، وتُرجم إلى أكثر من 17 لغة عالمية، كانت آخرها اللغة اليابانية.

والعنوان الأصلي الذي اختارته المؤلفة لهذا الكتاب هو «شمس الله تسطع على الغرب»، ربّما لأنها اعتبرت حضارة العرب والمسلمين، حضارة ممهورة بالطابع الروحي والغيبّي، فهذه الحضارة وإنْ أبدعت في مختلف مجالات العلوم والفنون، إلّا أنها راسخة الصلّة بالله، والغيب والعقيدة الدينية، وأيضاً لأن طبيعة الفتح الإسلامي لا صلة لها ألبتّة بالهيمنة أو تغيير عقائد الناس بالترهيب.

وفي هذا الكتاب تشرح المستشرقة للقراء الأوروبيين غير المسلمين، صورة الإنسان المسلم، وتقوّم الحكم الأوروبي المسبق عن اضطهاد المرأة في الإسلام، وتظهر لقرائها تأثير الحضارة العربية غير المحدود على التطور في أوروبا، من خلال مجالات كثيرة، مثل الطبّ والهندسة المعمارية، والعلوم، كما دعت في كتابها ومحاضراتها إلى التفاهم المتبادل، وإلى

(1) صدرت منه طبعتان بالعربية، إحداها بهذا العنوان والآخر بعنوان (شمس العرب تسطع على الغرب).

السلام بين الشرق والغرب، وقالت إنّ الشهامة والحكمة اللتين تميز بهما السلطان صلاح الدين الأيوبي يقدمان البرهان التاريخي على ذلك، شأنهما شأن فلسفة الإمبراطور فريدرش الثاني الذي كان أول من مدّ جسراً فكرياً عبر البحر المتوسط، واستوعب الكثير من المعارف والإنجازات العلمية العربية وأدخلها إلى مملكته⁽¹⁾.

وفي عام 1974م، اشتركت هونكه مع الدكتور مصطفى ماهر، وآخرين في مقال واسع، وُضع له عنوان «أنهار من الشرق تُسقي حقول الثقافة الألمانية».

وصدر عام 1976م، كتابها عن التلاقح العربي الألماني بعنوان «قوافل عربية في رحاب القيصر» أو «الإبل على بلاط قيصر». وفي عام 1979م، صدر كتابها عن العقيدة والعلم بعنوان «توحد أوروبا على صعيد الدين والعلوم الطبيعة»، وقد صدرت الطبعة المنقحة له عام 1987م.

وفي عام 1981م صدر كتابها «عقيدة الملحنين المنشقين على الكنيسة» أو «أوروبا لها دينها الخاص بها»، ثم صدر عام 1988م، كتابها «أقول الحضارة الغربية»، وفي عام 1993م صدرت الطبعة الثالثة لكتابها «ساعات حسن الطالع في التلاقح العربي الألماني» وكتابها «الاهتداء والإقتداء بالحضارة العربية» في رؤية فكرية جديدة.

ونشرت بعد ذلك وعلى مدى حياتها الحافلة بالبحث العلمي، أكثر من سبعة عشر كتاباً، تناولت موضوعات متنوعة، لها صلة وطيدة بالأدب والفلسفة والتاريخ والاجتماع وعلم الأديان المقارن.

• شمس الإسلام تسطع على الغرب

ولعلّ من المفيد هنا أن نقف بشيء من التفصيل مع بعض مؤلفاتها لتتعرف على مواقفها وفكرها المنصف النزيه، ورؤيتها للإسلام وحضارته، والتي جاءت بعد سنوات طويلة قضتها في البحث والدرس.

وممّا لا شكّ فيه أنه من أهمّ الكتب التي وضعتها هونكه على الإطلاق كتاب «شمس الله تسطع على الغرب» أو «شمس العرب تسطع على الغرب.. أثر الحضارة العربية في أوروبا»، وهو يتناول تاريخ المسلمين، وتأثير حضاراتهم وعلمائهم،

(1) جريدة الراية القطرية، العدد 10651، 6 يوليو 2011م، ص 35.

واختراعاتهم على الحضارة الغربية، وما نجده في عصرنا هذا مرتبط بالحضارة الإسلامية، وتأثر اللغات الأوروبية باللغة العربية.

ولقد كانت هونكه منذ تعلقها بالتنقيب والبحث في الأديان والفلسفات والآداب، شغوفاً إلى أبعد الحدود، بالتعرّف على الحقائق بغضّ النظر عن مصادرها أو مظانها الأصلية، مع إبداء حرص واضح إزاء تثبيتها في أذهان القراء والباحثين.

وقد صرّحت بذلك أكثر من مرّة بقولها: «وكنْتُ كلّما اكتشفت أخطاءً أو آراءً متحيزة وغير صائبة، أشعر بضيق وانزعاج، بل بغضب شديد، وكانت النتيجة دوماً تأليف كتاب».

وتتابع قولها في هذا السياق: «كنت أسمع وأقرأ على الدوام، بأننا ندين بالفضل في حضارتنا الغربية لليونان والرومان وحدهم!، وأننا لم نكن نعرف عن العرب شيئاً بشكل عام، عدا أننا أخذنا عنهم «الأرقام العربية» وكلمة «الجبر». لا بل إنّ الرأي السائد، كان هو أنّ العرب مجرد سعاة بريد، نقلوا الفكر الإغريقي دون أن يقدّموا أيّ إنجازات مبدعة خاصة بهم. فمَن الذي كان يعرف، أو كان مستعداً وقتها للاعتراف بالتأثير الكبير للحضارة العربية العظيمة، والعولم العربية في العصور الوسطى على بلاد الغرب؟!».

وقد ساقها هذا الدافع المتأصل في كينونتها، نهاية خمسينيات القرن العشرين، إلى الإنكباب على الآلة الكاتبة، لكنها لم تؤلف مجرد كتاب علمي جاف، بل متعة جذابة مفهومة من قبل الجميع، ولم يزل هذا الكتاب يستحوذ على إعجاب الباحثين في تاريخ الحضارة، وعامة الناس على حدّ سواء، على الرغم من صفحاته الكثيرة التي تقترب من الستمائة، ذلك أنه مكتوب بلغة مفعمّة بالحيوية، ويحوي كثيراً من المعلومات الأساس القيمة في مجال الحضارة، والتاريخ والاجتماع الإنساني، إنه كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب»، الذي أصبح مرجعاً نموذجياً دولياً بعد الضجّة التي أثارها وقت صدوره.

ففي مقدمة الطبعة التي ترجمها فاروق ببيضون وكمال دسوقي، يذكر المترجمان أنّ ظهور هذا الكتاب سنة 1960م، كان حدثاً كبيراً في ألمانيا وأوروبا، فقد علّقت عليه مئات الصحف والمجلات، بدليل أنّ نقاد أوروبا لم يهتموا بشيء في ذاك العام، اهتمامهم بهذا الكتاب، فهاجم عشرات منهم المؤلفة والكتاب معاً، واتهموها بالتعصّب للعرب والتحيز لهم.

بيد أنّ أصدقاء العرب في كلّ مكان انبروا يفتنون مزاعم هؤلاء، ويردون على افتراءاتهم، فشهد الكتاب في عامه الأول معركةً حامية الوطيس، لم يعرفها كتابٌ غيره في

ألمانيا، وبهذا لاقى وسط هذه الضجة نجاحاً منقطع النظير، فأعيد طبعه وترجم إلى عدد من اللغات الأجنبية.

وقد أفصحت هونكه نفسها في تقديمها لكتابها، عن نزوعها ورغبتها في تثبيت حقائق التاريخ، وأثر العرب والمسلمين في حضارة الغرب، وذلك بقولها في تقديمها للنسخة العربية: «لم يكن، من قبيل المصادفة البتة أن أكتب، أنا السيدة الألمانية هذا الكتاب. فالعرب والألمان لا تربطهم فقط أيام دولتهم القوية، التي انقسمت الآن، والتي بدأت صعودها من جديد بقوة وحيوية وعزم، إنما هي رابطة قوية من الفكر والثقافة، قد وثقت العرى بينهما، امتدت جذورها في أعماق التاريخ، واستمرت على مرّ القرون، ولا زالت آثارها حتى اليوم».

«وقد ظهرت معالم تلك الروابط، واتخذت طابع الصداقة والمودة منذ أوقف قيصر ألماني عظيم، أحبّ العرب وأعجب بهم، سفك الدماء في وقت سادت فيه العداوة والبغضاء بينهما أيام الحروب الصليبية. فأحلّ بذلك الصداقة المتبادلة محلّ الكراهية والتعصب والعداء. ومنذ ذلك الحين نمت أواصر المودة بين ألمانيا والوطن العربي. وعلى الرغم من هذا -أقولها بمرارة- فإنّ الناس عندنا لا يعرفون إلا القليل عن جهودكم الحضارية الخالدة، ودورها في نمو حضارة الغرب».

«لهذا صممت على كتابة هذا المؤلف، وأردت أن أكرم العبقريّة العربيّة، وأن أتيح لمواطنيّ فرصة العود إلى تكريمها. كما أردت أن أقدم للعرب الشكر على فضلهم، الذي حرّمهم من سماعه طويلاً، تعصب ديني أعمى وجهل أحمق. وكم سررت أن يترجم كتابي هذا إلى اللغة العربيّة، حتى أستطيع أن أحدث مباشرة قلوب العرب بما يعتمل في نفوسنا من المشاعر. وآمل مخلصاً أن يحتل هذا الكتاب مكانه في الوطن العربي أيضاً، كسجل لماضي العرب العظيم، وأثرهم المثمر على أوروبا والعالم قاطبة».

«وأنتهز هذه الفرصة لأقدم شكري الخاص على كلّ ما لقيته من مودّة أثناء رحلتي وإقامتي في بلادكم، وأن أكرر الشكر لأصدقائي العديدين من العرب، الذين أحاطوني بكرمهم ورعايتهم، وعلموني أن أحبّ العرب والفكر العربي وأعجب بهما»⁽¹⁾.

والذي يطالع ما كتبه هونكه، يدرك مقدار إنصافها للإسلام وحضارته في زمن قلّ فيه المنصفون، حتى من أبناء الإسلام ذاته، فنجدتها في هذا الكتاب تدلّ على فضل العرب

(1) زيجريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب.. أثر الحضارة العربية في أوروبا، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي (بيروت: دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ط 8، 1993م)، ص 9-10.

على حضارة الغرب، وتذكر أمثلة لأربع وأربعين كلمة عربية تشمل ألفاظ التحضر، وتشير إلى عام 751م، عندما توسع العرب الذين استعانوا ببعض العمال الصينيين في صناعة ورق رخيص، لأول مرة من الكتان والقطن، وبانتشار الورق نشطت الكتابة والتأليف، كما أدى هذا إلى اختراع فن الطباعة.

وتؤكد أنَّ العلماء العرب وضعوا نظرية تركيب البارود المندفع "الصواريخ" في القرن الثاني عشر، كما أنَّ الأرقام العربية بما فيها الصفر، احتلت بلاد الغرب وقامت بدورها في العلوم والرياضة والاقتصاد، وكذلك الدنانير الفضية والذهبية العربية سالت في الأسواق الأوروبية بكميات كبيرة، نتيجة التبادل التجاري بين المسلمين والأوروبيين، وكانت هذه الدنانير العملة الأساس لقرون عديدة في كل العالم المتحضر آنذاك.

ثم تقول هونكه في كتابها القيم: «إنَّ هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة، التي قفزها أبناء الصحراء، والتي بدأت من اللاشيء، لهي جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني... وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة، لفريدة من نوعها، لدرجة تجعلها أعظم من أن تُقارَن بغيرها، وتدعونا أن نقف متأملين كيف حدث هذا؟! وكيف أمكن لشعب لم يمثل من قبل دوراً حضارياً أو سياسياً يذكر، أن يقف مع الإغريق في فترة وجيزة على قدم المساواة؟.

إنَّ ما حققه العرب لم تستطع أن تحقِّقه شعوب كثيرة أخرى، كانت تمتلك من مقومات الحضارة ما قد كان يؤهلها لهذا، بيزنطية، وريثة الحضارتين الشرقية والإغريقية بقيت على جهالتها، مع أنها بلغت اليونانية، كانت أقرب الناس إلى الحضارة الإغريقية، والسوريون هم تلامذة الإغريق، كان لهم من الحضارة قبل الإسلام حظٌ وفير، ولقد نقلوا عن طريق الترجمة كثيراً من أعمال الإغريق إلى لغتهم، ولكنهم أيضاً كبيزنطة فشلوا في أن يجعلوا مما اقتبسوه من الإغريق بذرة لحضارة تزدهر، كما فعل العرب فيما بعد، ولم تكن فارس التي اكتسبت من حضارات الصين والهند والإغريق بأسعد حظاً من بيزنطة أو سوريا، وبرغم تحسن الحالة الاقتصادية في تلك البلاد، ورعاية الدولة للعلوم والعلماء، فإنه لم يسمح لحضارة تلك البلاد أن تصبح حضارة مبتكرة مؤثرة إلا في جوٍّ عقلي آخر، وفي ثنايا حضارة ثانية أنجع، هي الحضارة العربية»⁽¹⁾.

(1) زيجريد هونكه، شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي (بيروت: دار صادر، ط 10، 2002م)، ص 354.

وتقول أيضاً : «إنَّ العرب طوروا بتجاربههم وأبحاثهم العلمية، ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق، وشكلوه تشكيلاً جديداً. فهم في الواقع الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي الحقَّ القائم على التجربة... فعندهم فقط بدأ البحث الدائب، الذي يمكن الاعتماد عليه يتدرج من الجزئيات إلى الكليات... وعلى هذا الأساس ساروا في العلوم الطبيعية شوطاً كبيراً، أثر فيما بعد بطريق غير مباشر، على مفكري الغرب وعلمائه؛ أمثال روجر باكون وماكنوس وقيتليو ودافنشي. إنَّ العرب المسلمين هم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والمثلثات وعلم الاجتماع، وبالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات في مختلف فروع العلوم، والتي سُرقت أكثرها ونُسب لآخرين. لقد قدم العرب أثمن هدية، وهي طريقة البحث العلمي الصحيح، التي مهدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطبيعة»⁽¹⁾.

• العرب وعلوم الفلك

وتتحدث عن فضل العرب في علوم الفلك، وتستدل بقول البتاني (877-918م) "إنَّ الإنسان ليصل عن طريق علم النجوم إلى برهان وحدة الله ومعرفته عظمتة الهائلة وحكمته السامية وقوته الكبرى وكمال خلقه". وفي عصر الخليفة الرشيد صاغ العرب كلَّ أسماء النجوم والكواكب، لدي ترجمتهم لأعمال كبار الفلكيين اليونانيين والبطالمة، وقد احتضن ابنه الخليفة المأمون موسي أحد كبار الفلكيين، وعندما توفي أمر برعاية أولاده الثلاثة، وأنشأ لأكبرهم محمد داراً في أعلى ضاحية في بغداد لرصد النجوم، ولم يلبث محمد وأخواه أن قاموا بإجراء قياسات فلكية، فاقت ما قام به بطليموس وفلكيو القصر المروزي..

وفي مرصد سامراء، رأى الطبيب ابن ربان الطبري آلة بناها الأخوان محمد وأحمد إبننا موسي، تديرها قوة مائية وتحمل صور النجوم، وكلما غاب نجم في قبة السماء اختفت صورته في اللحظة ذاتها في الآلة، وإذا ظهر نجم في قبة السماء ظهرت صورته في الخط الأفقي من الآلة. وقد ترجم ثابت من قرة لبني موسي عدداً كبيراً من الأعمال الفلكية والرياضية والطبية لأبولونيوس وأرشميدس وأقليدس وغيرهم..

وتتحدث هونكه عن دور العرب في علوم الطيران، ففي عام 880م، بني الطبيب عباس ابن فرناس في إسبانيا أول طائرة صنعها من القماش والريش، ثم صعد بها مرتفعاً

(1) المرجع السابق، ص 401-402.

وترك نفسه للهواء يحمله، فطار قليلاً ووفق إلى بعض تجارب الانزلاق بها، ثم وقع أرضاً فتحطم وتحطم معه حلم الإنسانية القديم. وتصف الرازي المتوفى عام 925م، بأنه أحد أعظم أطباء الإنسانية إطلاقاً، وقد خلف 230 عملاً ضخماً وترجمات ومخطوطات صغيرة، تبحث ليس في الطب فحسب، بل أيضاً في الفلسفة وعلوم الدين والفيزياء والرياضيات.

• مستشفيات الحضارة الإسلامية

وتعتقد هذه المستشرقة الألمانية مقارنة بين المستشفيات التي أنشأتها الحضارة الإسلامية وبين مستشفيات الفرنجة، حيث تطورت عمارة البيمارستانات خلال عصور الحضارة الإسلامية، فكان لها نظام وطابع معماري مميز، يقوم على مجموعة من الشروط الضرورية، التي يجب أن تتوافر في المكان الذي يبنى فيه البيمارستان، وذلك بأن يتوفر فيه الهواء الصحي والمياه العذبة، وفي ذلك تقول : «عندما أراد السلطان عضد الدولة أن يبنى مستشفى جديداً في بغداد، أوكل إلى الطبيب الذائع الشهرة «الرازي» بالبحث عن أفضل مكان له، فكان أن أوصى الرازي خدمه بتعليق قطع كبيرة من اللحم من مختلف الأنواع في كل أطراف بغداد، ثم انتظر مدة أربع وعشرين ساعة، وانتقى المكان الذي ظل فيه اللحم أحسن حالة. وأما السلطان صلاح الدين في القاهرة، فقد اختار أحد قصوره الفخمة، وحوله إلى مستشفى ضخم كبير (المستشفى الناصري)، وانتقى في اختياره ذاك قصرًا بعيداً عن الضوضاء⁽¹⁾.

ولقد وفر البيمارستان الإسلامي للمريض كل أنواع الترفيه والاحتياجات، حتى المزيّن يوفر للمرضى من قبل الإدارة، ويدلّ هذا على درجة الإنسانية والرقى التي وصلت إليها. وكان المريض يجلس في البيمارستان حسب حالته العلاجية، حتى ولو امتدت إلى شهور عدة، فالبيمارستان ملزم به.

وهكذا توافرت في مستشفيات الخلفاء والسلاطين كل أسباب الرفاهية، التي كانت تتوافر في قصورهم، من أسرة وثيرة ناعمة إلى حمامات، كانت تتمتع بها الطبقة الحاكمة في بيوتها، ومن المعلوم أنّ هذه المستشفيات، على غناها ورفاهيتها، كانت تفتح أبوابها للفقراء ولكل أبناء الشعب بدون تمييز. فعندما انتهى المستشفى المنصوري في القاهرة، طلب السلطان المنصور قلاوون قدحاً من العصير من المستشفى، فشربه وقال : «وهبت

(1) زيجريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، دار الجيل، مرجع سابق، ص 229.

هذه المستشفى إلى أندادي وأتباعي، وخصصته للحكام والخدم، للجنود والأمراء، للكبار والصغار، للأحرار والعبيد، للرجال والنساء على السواء»⁽¹⁾.

أما في الغرب، فإنّ مستشفى (ستراسبورج) هو أول مستشفى التحق به طبيب رسمي، وكان ذلك عام 1500م، أي بعد ثمانمائة عام من تأسيس أول مستشفى عربي إسلامي، كان قد أنشأه الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، وعيّن فيه الأطباء والممرضين. وفي عام 1517م أنشأت مدينة ليبزج مستشفى بها أسوة بـ (ستراسبورج)، ثم حذت باريس حذوهما فأنشأت مستشفى (أوتيل ديو) عام 1536م.

• تخلف مشافي أوروبا

ولكي ندرك مدى التقدم الذي وصلت إليه المستشفيات العربية في العصور الوسطى، لابدّ من عقد مقارنة بين حالها وبين ما كانت عليه مستشفيات أوروبا في تلك العصور، فقد كان من أشهر المشافي في أوروبا في القرون الوسطى مستشفى «أوتيل ديو» في باريس، وقد جاء ذكره في كتاب ألفه «ماكس نوردو»، قال فيه عن هذا المستشفى: «كان يستلقي في الفراش الواحد أربعة مرضى أو خمسة أو ستة، فترى قدمي الواحد في جانب رأس الآخر، وكان الأطفال الصغار إلى جانب الشيوخ الكبار، حقاً إنّ هذا لا يصدق، ولكنه الحقيقة والواقع. وكانت المرأة تئن من مخالب المخاض إلى جانب رضيع يتلوى من التشنجات، ورجل يحترق في هذيان الحمى إلى جانب مسلول يسعل سعلته الجارحة، ومصاب بأحد الأمراض الجلدية يمزق جلده الأجرب بأظافره الثائرة. وكانت رائحة الهواء في قاعات المرضى فاسدة حتى أن الزوار ما كانوا يجروؤن على دخولها، إلّا بعد أن يضعوا على وجوههم إسفنجة مبللة خلاً، وتبقى جثث الموتى أربعاً وعشرين ساعة في الفراش»⁽²⁾.

وقد وصفه في القرن الثامن عشر كلّ من «بالي» و«يتينون» و«لافوازيه» في تقريرهم وصفاً تقشعر منه الأبدان، إذ رأوا الموتى جنباً إلى جنب مع الأحياء، كما رأوا الناقهين مختلطين في غرفة واحدة مع المحتضرين، وكانت غرفة العمليات حيث الشقّ والقطع والبت، تأوى الذين تعمل لهم العمليات في الغد، فكانت تعمل في وسط الغرفة نفسها، وكان المريض يرى أمامه تحضيرات العذاب، ويسمع صراخ المعذبين، فإنّ كان ممن ينتظر دوره

(1) المرجع السابق، ص 229.

(2) للاستزادة انظر: المرجع السابق، ص 225-226.

في الغد، كانت أمامه صورة أوجاعه المقبلة. وإن كان ممن مرّ بهذا الجحيم، كان أمامه منظر يذكره بالأوجاع التي قاساها، ولم تعمل يدّ التحسين في هذا المستشفى الذي أنشئ عام 660 م إلا بعد الثورة الفرنسية عام 1789م.

وتصف هونكه هذه المستشفى الباريسية وما كان فيها من إهمال وقلة عناية، مقارنة بالمستشفيات الإسلامية فتقول : كان المبنى الذي يضمّ المرضى مزدحم بأخطر الحشرات، وهم يتزاحمون عليه، وأقدام بعضهم إلى جانب رءوس بعض، والأطفال قرب الشيوخ، والرجال بجانب النساء بشكل يدعو للعجب، والطعام يقدم لهم في ندرة، وأما كمية الطعام فقليلة جداً، أضيف إلى ذلك فساد الهواء في الداخل لدرجة لا تطاق ولا تحتمل، وكانت جثث الموتى من المرضى تترك مدة أربع وعشرين ساعة، وفي الغالب أكثر من ذلك، قبل أن تنقل، فيضطر المرضى الآخرون خلال ذلك الوقت أن يشاطروا الجثث هذا المكان. فآين هذه المستشفيات من المستشفيات الإسلامية، التي نشأت قبلها بقرون، وقد وصلت إلى قمة العناية والرعاية، وأوقف لها الحكام والسلاطين والأمراء أوقافاً خيرية، تضمن بقاءها واستمرار رسالتها ورفق خدماتها.

• رسالة من مريض

ولعلّ من المفيد هنا أن ننقل ما كتبه هونكه في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب»، عن مريض كان يعالج في أحد مستشفيات قرطبة، كتب رسالة إلى أبيه يصف له ما وجده من رعاية واهتمام في المستشفى، يقول فيها: «لقد سجلوا اسمي هناك بعد المعاينة، وعرضوني على رئيس الأطباء، ثم حملني ممرض إلى قسم الرجال، فحمّني حماماً ساخناً، وألبسني ثياباً نظيفة من المستشفى، وحينما تصل ترى إلى يسارك مكتبة ضخمة وقاعة كبيرة، حيث يحاضر الرئيس في الطلاب، وإذا ما نظرت وراءك يقع نظرك على ممر يؤدي إلى قسم النساء، ولذلك عليك أن تظلّ سائراً نحو اليمين، فتمرّ بالقسم الداخلي والقسم الخارجي مروراً عابراً، فإذا سمعت موسيقى أو غناء ينبعثان من قاعة ما، فادخلها وانظر بداخلها، فلربّما كنت أنا هناك في قاعة النُقّه (جمع ناقة) حيث تشنف آذاننا الموسيقى الجميلة، ونمضي الوقت في المطالعة المفيدة.. واليوم صباحاً، جاء كالعادة رئيس الأطباء مع رهط كبير من معاونيه، ولما فحصني أملى على طبيب القسم شيئاً لم أفهمه، وبعد ذهابه أوضح لي الطبيب أنه بإمكانني النهوض صباحاً، وبوسعي الخروج قريباً من المستشفى صحيح الجسم مُعافى. وإني والله لكاره هذا الأمر، فكل شيء جميل للغاية

ونظيف جداً، الأسرّة وثيرة وأغطيتهما من الدمقس الأبيض، والملاء في غاية النعومة والبياض كالحرير، وفي كلّ غرفة من غرف المستشفى تجد الماء جارياً فيها على أشهى ما يكون، وفي الليالي القارسة تدفأ كل الغرف...»⁽¹⁾.

وقد كان من الطبيعي أن تكون البيمارستانات الإسلامية على هذا القدر من الرعاية والاهتمام بالمرضى من كل الفئات، فقد كانت تلك البيمارستانات تُرصد لها الأوقاف، ليصرف من ريعها على رواتب الأطباء والعاملين، والإنفاق على علاج المرضى، وخصّ لإدارتها ناظر يقوم على أمرها، وعلى الأموال والأوقاف المخصصة لها، وكان هذا المنصب من الوظائف الديوانية العظيمة في الدولة، لا يُختار له إلا الأكفاء من ذوي القدرة والأمانة.

• الله ليس كذلك

ومن أبرز مؤلفات هونكه التي أعقبت كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب»، كتاب «الله ليس كذلك»، والذي تُرجم أيضاً بعنوان «الله مختلف تماماً»، ونشرت الطبعة العربية منه عام 1995م، بمشاركة ثلاث مؤسسات، وهي دار الشروق المصرية، ومؤسسة بافاريا ميونخ ألمانيا، ومجلة النور الكويتية.

والغرض الرئيس لنشر هذا الكتاب، هو بحسب تعبير المؤلفة : «أخذنا على عاتقنا أن نخرج إلى النور أهمّ الإنجازات والتأثيرات العربية ذات الفضل على العلوم والفنون في أوروبا»⁽²⁾.

وقد واصلت هونكه في هذا الكتاب شرح ما ذكرته مجملًا في كتاب «شمس العرب»، فكشفت العديد من المغالطات، التي تمّ توظيفها ظلمًا بالعرب والمسلمين، حيث شرحت للقراء الأوروبيين صورة الإنسان المسلم، كما عرضها القرآن، مدعومة بنماذج إنسانية مبهرة من تاريخ المسلمين وحضارتهم.

وفندت مزاعم بعض دوائر الغرب، التي تدّعي ثبوت اضطهاد المرأة في الإسلام، وبيّنت لقرائها حقيقة مكانة المرأة في الإسلام بأدلة قطعية لا تقبل الدحض، وأرجعت بعض السلبيات القائمة إلى أنماط بعينها من الأعراف والتقاليد الاجتماعية.

(1) المرجع السابق، ص 227-228.

(2) زيجريد هونكه، الله ليس كذلك (مصر: دار الشروق، ص 9، ط 1، 1995م).

وكتاب «الله ليس كذلك»، يصلح مرجعاً لمواجهة المشككين والجهلة، فهو يزيل ألف حكم وحكم من الأحكام المسبقة، العالقة في أذهانهم عن الإسلام والعرب، حيث كشفت من خلاله بأسلوب علمي، يعتمد على الحجج والبراهين، عن كثير من الأحكام الشوفينية، والتحويلات التاريخية، والأقوال الخاطئة المقصودة، التي وظفتها بعض الدوائر التي تعمل على تأجيج أوار الصراع بين الحضارات والثقافات الإنسانية، في نطاق ما يُعرف بظاهرة الخوف المرضي من الإسلام (الإسلاموفوبيا)، أو الخوف والتوجس من الآخر عموماً⁽¹⁾.

لقد أعلنت هونكه في كتابها الأول، وهو «شمس الله تسطع على الغرب»، أن مصير الغرب مرتبط بصورة وثيقة بمصير العالم العربي، الذي قام ذات مرة من قبل بتغيير معالم دنيانا تغييراً حاسماً، وأعادت هذه الكلمة مرة أخرى في مقدمة كتابها «قوافل عربية في رحاب قيصر»، وقالت أنها بكتابها هذا، كانت لا تهدف من ورائه إلى تنوير الألمان فحسب... «أننا لا نزال نلاحظ جهلاً يؤسف له يسود حتى اليوم، جهلاً بالشعب العربي وشخصيته وطبيعته وتفكيره»، إلا أن العرب يصرون لها دوماً، أن الكتاب نفسه جاء ليساعد العرب على استعادة هويتهم الذاتية من جديد⁽²⁾.

لقد إرتأت هونكه أن هناك حاجة ملحة إلى مزيد من التوضيح للأمة الألمانية وغيرها، لبيان شأن الإسلام، على الرغم من إصدارها كتابها الأول والثاني عن العرب وحضارة الإسلام، فكتبت في كتابها الثالث «الله ليس كذلك» عن حضارة هذا الدين : «لقد أصرّ الغرب إصراراً على دفن حقيقة العرب في مقبرة الأحكام التعسفية، والافتراءات الجماعية دفناً، وأهال عليها ما أهال طمساً منه لمعلمها، على الرغم من محاولتنا المعروفة، كما يشهد بذلك كتابنا «شمس الله تسطع على الغرب»، وكتابنا «قوافل عربية في رحاب قيصر»، ولا يزال القوم يروجون للخرافات السائدة»⁽³⁾.

وشرحت ميلها الحثيث نحو كتابة مخطوطة ثالثة أو رابعة عن دين علم أهل أوروبا كيف يعيشون الدنيا، بعلمية ونظافة: «لماذا كان من الضروري نشر هذا الكتاب، كتاب «الله ليس كذلك»، وللإجابة عن السؤال تستدعي قول رومان رولاند: «لا ريب أن الآراء المطلقة المتوارثة، تجعل تفهم الشعوب بعضها بعضاً أمراً عسيراً، كما تجعل احتقار بعضها الآخر أمراً

(1) إبراهيم نويري، زيجريد هونكه سفيرة التقريب بين الشرق والغرب، مرجع سابق.

(2) زيجريد هونكه، إبل على بلاط قيصر، تعريب د. حسام الشيمي (المملكة العربية السعودية: مكتبة العبيكان، ط1، 2001م)،

ص 9-10.

(3) زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، مرجع سابق، ص 87.

هيناً سهلاً»، وتعلق بقولها : «تلك الكلمة التي قالها الفرنسي رومان رونالد، تصدق أشد ما تصدق على علاقة الغرب النصراني بالعالم العربي- الإسلامي، وليس ثمة شعب يسيء الغرب فهمه كالعرب والعروبة...إن شعوباً أخرى، نائية غريبة عنا، غير ذات أديان وضعية ليست من ديننا، نقف منها موقفاً سمحاً مبسطاً ليس بالمعقد، على العكس من موقفنا من الشعوب العربية المسلمة، أو تلك التي تدين بالإسلام من غير العرب..ما السبب وراء ذلك؟!، لابد أن هناك سبباً معيناً في كون الأحكام الظالمة المتعسفة الموروثة عن القرون الوسطى، لا تزال حتى يومنا هذا، على خطتها وخطرها، تسد الطريق على المعرفة الموضوعية للنواحي الفكرية والعقلية لذلك العالم، ودينه، وتاريخه، وحضارته»⁽¹⁾، وذلك: «بدلاً من التماس المعلومات الموضوعية، لا يزال القوم يروجون للخرافات السائدة هنا مثل «استعباد الإسلام للمرأة»⁽²⁾.

لذلك قالت إن : «موضوع الساعة الخطير ليحتم فضح تلك الأحكام المتجنية والمتعسفة وإزالتها، وشتى المعلومات الفجة الظالمة الزائفة، التي تلتصق بالإسلام منذ قرون... وإن خطورة هذا الأمر لتتضح لمن يرى ويسمع، كما تبرهن على ذلك موجات العداء الجديدة المغرضة في ألمانيا، والتي تستهدف الإسلام»⁽³⁾.

وينقسم الكتاب إلى مقدمة للناس وأخرى للمؤلفة، وستة فصول، فمقدمة الناشر كتبها عبد الحليم خفاجي (من مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام، ميونيخ - ألمانيا)، بالاشتراك مع فيصل الزامل من مجلة النور الكويتية، ووضعت تحت عنوان مثير، وهو (مؤمنة آل فرعون)، فالقصة القديمة للرجل المؤمن من آل فرعون تتكرر في التاريخ، والعنوان يشير كما يمكن للقارئ ملاحظة ذلك، إلى أن المؤلفة واجهت الباطل بكتابات لها لبيان الحقيقة التاريخية والعلمية، كما واجه مؤمن آل فرعون قومه : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾⁽⁴⁾.

أما مقدمة المؤلفة فتنقسم إلى ثلاثة عناصر، العنصر الأول أخاذ ولافت جداً، وهو ربما أهم ما في الكتاب من مغزى وإيحاء، فهو بعنوان (الله ليس كذلك)، وهو يحمل سمات «فقه المؤلفة»، إذ أنها تشير بالعنوان الذي وضعت تحته تصورات الغرب الباطلة «وإفترائه الجماعية» إلى القرآن والنبي محمد ﷺ، والمسلمين وتاريخهم، أن الله وما أنزله على النبي

(1) المرجع السابق، ص 7.

(2) المرجع السابق، ص 8.

(3) المرجع السابق، ص 9.

(4) غافر : 28.

محمد، ﷺ، أتى بالخير والرحمة للبشرية، والعلم والعقل للإنسان الجاهل والغافل، وأنزل عليه شريعة تصنع مدنية وحضارة كونية، وهذا يعني أنها تدافع (برمزية العنوان) عن تبرة الإسلام نفسه ونصرة الله وشريعته على الباطل كله، وقد ألزمت نفسها ببيان الحقيقة المحجوبة، عن إعلام الغرب كله، أن الإسلام بمنجزاته الحضارية ومقاومة الكنيسة له، لم يكن أصلاً لحرب وإيلاام الإنسان الغربي، أو الانتصار عليه في عملية همجية لشعوب بدائية أو استعمارية، تبغي الحصول على أموال الناس بالباطل، وقهر الإنسان، أو أنه ضد شعوب الغرب، الغرب الذي تسعى زيجريد هونكه في مشروعها كله إلى إقامة جسور التواصل، والتعارف بينه وبين الشعوب المسلمة⁽¹⁾.

فالإسلام، بتدفق مظاهر التفوق الثقافي والفكري من الشرق إلى الغرب-كما قالت- انتصر في معاركه التاريخية على دعايات الكنيسة الكاذبة، والجهل الظافر المستبد والسائد، ولم يكن في معركة مع الشعوب المغلوب على أمرها، بالسيطرة المكبلة للروح البشري والتجهيل، فالمعركة كانت مع السلطات المنغلقة المستبدة، التي تمنع الإنسان من أن يكون إنساناً، وتقوم بتكبيله واستضعافه، وسرقه مقدراته والحرص على استعباده واستغلاله: «فقد انتصر هو عليها بإنجازاته الثقافية والحضارية، وجعل حياتها ثراء، وأحدث تغييراً جذرياً في إحساس الغربي بالحياة في كل مناحيها»⁽²⁾.

وهذا العنوان فريد في مغزاه ومرماه، وهو فقه المؤلف في واجهة الكتاب، ثم كتبت عنوان متفرع وهو: (المحمديون)، وفيه تتكلم عن اشتقاق هذا الاسم وغيره من الأسماء المخترعة في الغرب، مثل الساراسين، وهي العناوين المزيفة التي أطلقت على المسلمين لحجب الأسماء الحقيقية، التي وراءها مقاصد الوحي الرباني، ومعاني الحقائق الكبرى. ثم عنوان آخر وهو (نداء يهيب بقتال أعداء الرب)، وتشير به إلى نداء البابا أوربان الثاني في 27 نوفمبر 1095م في كبرمونت بفرنسا، للزحف لتحرير قبر عيسى، وتبين زيف الدعوى وكذب الدعاية، وهزيمتها، فالأكاذيب أسباب للهزيمة، وبلطف المؤلف: «سبب في هزيمتها، فلقد وقع ما كانت تريد الكنيسة الحيلولة دونه»⁽³⁾.

(1) طارق منينة، «الله ليس كذلك» للباحثة الألمانية زيجريد هونكه، موقع ملتقى أهل التفسير، 21 إبريل 2013م، في : <http://vb.tafsir.net/tafsir36007/#.Vf22da74Ozc>

(2) زيجريد هونكه، إبل على بلاط قصير، مرجع سابق، ص 39.

(3) المرجع السابق، ص 39.

أما متن الكتاب فيتكون من ستة فصول، تتكلم في الفصل الأول عن (إشعال نار الكراهية والبغضاء)، والثاني بعنوان (الفروسية الألمانية والفروسية العربية، تخزين عدم التسامح النصراني)، وفي الفصل الثالث تتكلم عن شارل مارتل: منقذ الغرب كما يزعمون، وهو عنوان الفصل، ثم عنوان الفصل الرابع (المرأة مضطهدة تسام الخسف في الإسلام)، وتقوم فيه بالرد على الافتراءات الظالمة، من القرآن والتاريخ وخبرتها بنصوص الوحي القرآني، وحال المرأة المسلمة في تاريخ حضارة الإسلام.

والفصل الخامس بعنوان «حريق مكتبة الإسكندرية الكبرى»، وفيه خبرة عميقة بتاريخ الإسلام الأول، ونصوص القرآن، ومعرفتها بشخصية الخليفة عمر بن الخطاب، الذي نُسب حريق الإسكندرية لأوامره، فتقوم هونكه بعرض أدلتها الدامغة ضد خرافة حرق المكتبة من قبل المسلمين، تقوم بذلك بصورة تاريخية لا تدع مجالاً للشك، في أن أكذوبة كبيرة روجت لحجب حقيقة العلم في الإسلام، ومداه الإنساني والكوني، العمودي والأفقي، فكم مرة طلب القرآن من المسلمين البحث والنظر، والعلم والتفكير، والملاحظة والتعقل، وكم قدم المسلمون في التاريخ الحضاري للإسلام من نفائس الكتب والمخطوطات، والعلوم والمكتبات. وأما الفصل السادس فتتكلم المؤلفة فيه عن الأوضاع المعاصرة، تحت عنوان (الصدمة النفسية «العربية» للغرب تنشط من جديد)

والكتاب، على الرغم من مواضيع العناوين الثرية بالدلالات، مليء بموضوعات علمية وقرآنية مبهرة، تبين خبرة باحثة ألمانية بالإسلام ونصوص القرآن، وحضارته الفذة.

• الأحكام الظالمة المتعسفة

فقد بدأت د. هونكه كتابها الرائع بهذه العبارة، في سياق حديثها عن إشكالية النظرة الغربية السلبية للعالم العربي الإسلامي : «لا بد أن هناك سبباً معيناً في كون الأحكام الظالمة المتعسفة، الموروثة عن القرون الوسطى، لا تزال حتى يومنا هذا -على خطئها وخطرها- تسد الطريق على المعرفة الموضوعية، للنواحي الفكرية والعقلية لذلك العالم، ودينه، وتاريخه، وحضارته، وفي كونها - حتى يومنا هذا - تصبغ المغالطات والتحريفات التاريخية في مجال المعلومات العامة عن العرب، صبغة يبدو أنها لا تنمحي أو تزول!».

وعندما نقف على بعض آرائها في كتاب «الله ليس كذلك»، نجدها تقول : «لا إكراه في الدين : تلك هي كلمة القرآن الملزمة، فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر

الدين الإسلامي، وإنما بسط سلطان الله في أرضه، فكان للنصراني أن يظل نصرانياً، ولليهودي أن يظل يهودياً كما كانوا من قبل، ولم يمنعهم أحد أن يؤدوا شعائر دينهم، ولم يكن أحد لينزل أذى أو ضرراً بأحبارهم أو قساوستهم، ومراجعهم، ويبيعهم وصوامعهم وكنائسهم»⁽¹⁾.

وتقول : «إن الإسلام أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحةً وإنصافاً، نقولها بلا تحيز، ودون أن نسمح للأحكام الظالمة أن تلتطخه بالسواد، وإذا ما نحينا هذه المغالطات التاريخية الآثمة في حقه، والجهل البحث به، فإن علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق مع ضمان حقه في أن يكون كما هو»⁽²⁾.

ثم تقول : «لم يعمل العرب على إنقاذ تراث اليونان من الضياع والنسيان فقط، وهو الفضل الوحيد الذي جرت العادة الاعتراف به لهم حتى الآن، ولم يقوموا بمجرد عرضه وتنظيمه وتروييده بالمعارف الخاصة، ومن ثمَّ إيصاله إلى أوروبا، بحيث إنَّ عدداً لا يحصى من الكتب التعليمية العربية حتى القرنين (16 - 17) قدمت للجامعات أفضل مادة معرفية، فقد كانوا - وهذا أمر قلما يخطر على بال الأوروبيين - المؤسسين للكيمياء والفيزياء التطبيقية والجبر والحساب بالمفهوم المعاصر، وعلم المثلثات الكروي، وعلم طبقات الأرض، وعلم الاجتماع، وعلم الكلام»⁽³⁾.

وفي فصول الكتاب تتناول هونكه مواطن سوء الظنِّ، والافتراء الغربي على المسلمين، متتبعة لحظات ميلادها الأولى في النداء البابوي الأول، للحملة الصليبية الأولى، بل من قبل ذلك، من معركة «تور دو بواتيه» (بلاط الشهداء)، التي يفخر الأوروبيون أن «شارل مارتل» قام فيها بـ «إنقاذ» أوروبا من «الغزو» العربي.

وعن تلك النظرة السطحية لوضع العرب من خلال دولتهم، التي دامت 800 سنة في أوروبا، تتحدث هونكه، فتعيد للحضارة العربية بعض حقها في الإنصاف، وتؤكد أنَّ مصير أوروبا كان سيكون أفضل بكثير لو أُتيح للعرب نشر شعاع حضارتهم فيها، وتسوق الأدلة بعرضها المظاهر الحضارية العربية في الأندلس، كما تنزع عن «شارل مارتل» صفات القداسة الزائفة، التي أضافها المتعصبون من المؤرخين عليه، وتُظهر حقيقته كفارس همجي، احترف الاستيلاء على أملاك الكنيسة!

(1) سيجريد هونكه، الله ليس كذلك، مرجع سابق، ص 41.

(2) المرجع السابق، ص 101.

(3) جريدة (الغد)، القاهرة 14 نوفمبر 2007م.

أما عن البابا «أوربان الثاني» - صاحب النداء الصليبي الأول- فتنتقد المستشرقة موقفه، وزرعه البذرة الأولى لحملة التشويه الممتدة، لنحو ألف عام ضد العرب والمسلمين، وتحمله مسؤولية متتاليات ندائه المصبوغ بصبغة دينية، في أنه قد ساهم بشدة في إفساد فرص التوافق بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي.

وفي المقابل، تمتدح موقف الإمبراطور الجرمانى «فريدريك الثاني»، الذي خالف السائد في عصره من معاداة تلقائية للمسلمين، وسعى لإقامة علاقات إنسانية راقية مع نظرائه من ملوك المسلمين، ودفع ثمن رقي أخلاقه بمعاداة البابا له وتوقيعه حرماناً كنسياً بحقه، فلم يهزه هذا عن موقفه، وحقق بالسلام لأوروبا ما عجز أسلافه عن تحقيقه بالحرب.

• صورة المسلم عند الغربيين

وتتناول إشكالية تالية، هي الصورة النمطية للمسلم عند الغربيين، باعتباره شخصاً أثيماً مذعناً جبرياً مستسلماً للقدر بسلبية مفرطة، سفاكاً للدماء باسم الجهاد، فتتحدث - من منطلق دراستها للدين الإسلامي - عن الصورة الإسلامية الحقيقية للمسلم، كشخص يؤمن بالقدر ويتوكل على الله دون تواكل، ويحافظ على إرادته الحرة ولا يحارب إلا من حاربه، ويؤمن بشدة بمبدأ أن لا إكراه في الدين.

وفي المقابل تتحدث عن حملة التشويه الشعواء، التي شنها بعض الجهال على الإسلام، وتصويرهم أهله على أنهم قوم دمويون وثنيون، يمارسون السحر الأسود، ويقدمون القرابين للشيطان!

وعن الزعم الغربي بنفي اهتمام العرب واعتنائهم بالعلم والثقافة، تتحدث هونكه، فتصف هذا بأنه "الفرية المزيفة للتاريخ، والتي لا يُراد لها أن تُمحي أبداً"، وتعرض نموذجين لذلك: أولهما، الاتهام السخيف بأن العرب عندما فتحوا مصر أحرقوا كتب مكتبة الإسكندرية، بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب!، فتؤكد أن تلك القصة عارية من الصحة، وتضيف - بالبراهين - أن كتب مكتبة الإسكندرية لم يكن لها وجود يُذكر عند دخول العرب مصر، حيث إنها كانت قد دُمّرت على مراحل منذ الحريق الشهير للمكتبة، وخلال القمع الرومانى للثورات المصرية المتتالية.

أما النموذج الثانى، فهو عملية «السرقة» الأوروبية للإنجازات العلمية للعرب، ونسبها لعلماء أوروبيين، تكبراً من هؤلاء الآخرين، على الاعتراف بفضل علماء العرب المسلمين على الحضارة الأوروبية، التي تنظر للعالم العربى الإسلامى نظرة فوقية متكبرة!

وفي الكتاب تدعو هونكه إلى التفاهم المتبادل، وإلى السلام بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، ونبذ الحروب التي تكلف الإنسانية الكثير من الأرواح والأموال، بينما استعمال الحكمة يفضي دائماً إلى التقارب والتوافق، واكتشاف مساحات جديدة للقاء والتعاون والتواصل، وذلك طريقه واضح بنظرها، فهو يتمثل في احترام الآخر، وفتح أبواب الحوار معه، وإبداء النية الصادقة لمحاورته وفهمه.

• صلاح الدين الأيوبي النموذج الراقي

وفي اعتقاد هونكه أنّ من أفضل نماذج التاريخ التي برهنت على سلامة هذا الطريق، السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي والإمبراطور «فريدريك الثاني»... فحين تمكّن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس (583هـ / 1187م) التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل (492هـ / 1099م)، بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبح لا تدانيها مذبحٌ وحشية، فإنه لم يسفك دمّ سكانها من النصارى انتقاماً لسفك دمّ المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته وعفوه، وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضارباً المثل في التخلق بروح الفروسية العالية، وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خلقي تجاه كلمة الشرف..

فالملك ريتشارد قلب الأسد، الذي أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربي بأن حياتهم آمنة.. فجأة انقلب مزاجه متجاهلاً القسم فأمر بقتلهم جميعاً!!

أمّا الإمبراطور فريدريك الثاني ملك صقلية، فقد كان أول من مدّ جسراً فكرياً عبر البحر الأبيض المتوسط، وأسس جامعة نابولي سنة 1224م، وشجّع حركة ترجمة الكتب العربية إلى عديد من اللغات الأوروبية، واستوعب الكثير من المعارف والإنجازات العلمية العربية، وحرص على نقل علوم المسلمين إلى أوروبا. دون أن يخفي ذلك، حتى تجرأ عليه بعض القساوسة ورجال الكنيسة، فاتهموه بالخروج عن الدين!⁽¹⁾

وتتحدث عن العلاقة بين الشرق والغرب، وحالة التضارب بين احتياج كل منهما للآخر، والتحفّز الأوروبي للمشرق العربي، وتنتقد تعارض هذا مع ذاك، كما تنتقد في الجانب العربي إغراقه في اجترار أمجاد الماضي، والنوم عن محاولة التعامل مع معطيات الحاضر بشكل، يعيد هذه الأمجاد من جديد!

(1) إبراهيم نويري، زيجريد هونكه سفيرة التقريب بين الشرق والغرب، مرجع سابق.

وتنتقد - بقوة - عملية إسقاط الغرب عداءه الماضي مع الدولة العثمانية - خلال غزوات تلك الأخيرة لشرق أوروبا - على المسلمين اليوم، خاصة المهاجرون لأوروبا، وتصف ذلك بأنه «إجحاف ظالم بعد تسعمائة عام من ذلك النداء البابوي الوخيم المشؤوم إلى النصرى»، وتعني به نداء «أوربان الثاني» سالف الذكر⁽¹⁾.

وتؤكد هونكه أن الوجه الذي قدمته أحداث 11 سبتمبر لم يكن هو وجه الإسلام، وأن المسلمين أخرجوا قديماً الغرب نفسه من الظلمات التي كان فيها، إلى نور العلم والمدنية، والنظافة والترقي، فالمسلمون في الغرب الإسباني، ولمدة ثمانية قرون، أقاموا مع اليهود والنصرى، بالإتفاق السلمي بل وبالتعاون في مختلف الوجوه: «أكثر نظم الحكم ثراءً وازدهاراً في القارة الأوروبية»⁽²⁾.

• نقص المعرفة بالإسلام

وترصد أسباب تلك الظواهر الغربية المستديمة، حتى من قبل أحداث سبتمبر المشؤومة، ومنها (نقص المعرفة بالإسلام)، فتقول: «إن مدى نقص معرفة الغرب بالإسلام... يتجلى في التصورات التي تحكم نظرة الغرب إلى الإنسان المسلم»⁽³⁾، وتأجيج الإعلام الغربي لسعار الأغاليط والأكاذيب الفجة: «مثل عدم التسامح والسماحة في الدين الإسلامي، مما يطغى منذ قرون، ليصبغ أو يشكل الدعايات المغرضة المزيفة للواقع والحق، والمنادية بالويل والثبور، وعظائم الأمور، تؤجج من جديد أجهزة الإعلام الغربي المتباينة من أوارها المسعور... ذلك التصوير المشوه الممسوخ المقصود، المتوارث منذ القرون الوسطى لذلك العدو الكافر... يراد له أن ينقلب إلى كره متأصل، كحالة مَرَضِيَّة يَرزح الغربي تحت كابوسها الخانق»⁽⁴⁾.

وتقوم زيجريد هونكه بتعداد محاور التشويه، ومجالات التلاعب بمفاهيم الإسلام وحقيقة المسلمين «الأصلية»، فتقول «إن تلك الأحكام المستقرة المستهلكة، لازالت تتغذى على عدد لا حصر له من المغالطات وليدة سوء الفهم، ومن الصورة الدينية الظالمة للخصم، ومن المعلومات الخاطئة المنحازة، ومن الإساءة المشوهة عمداً وقصداً، ومن النقص في المعرفة نقصاً مبيناً، مثلاً في :

(1) وليد فكري، د. «زيجريد هونكه» تؤكد: الله ليس كذلك!، موقع بص وطل، 25 أكتوبر 2010م، في :

boswtol.com/politics/reports/10/October/25/13523/

(2) الإبل على بلاط قيصر، مرجع سابق، ص 16.

(3) زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، مرجع سابق، ص 37.

(4) المرجع السابق، ص 8.

﴿ ميدان العقيدة والتصور الديني، وتصور المسلمين للذات الإلهية.

﴿ وفي تصور الغرب لمؤسس تلك العقيدة والخلط بينه وبين الله.

﴿ وفي معرفتهم بالمؤمنين من المسلمين ونحو ذلك.

﴿ وفي التاريخ الإسلامي للعرب وغيرهم من الشعوب التي اعتنقت الإسلام.

﴿ وفي التعايش مع الناس المختلفين في الدين.

﴿ وفي وضع المرأة في التاريخ والحياة الزوجية والأسرة والعمل.

﴿ وفي الحضارة والعلوم؛ والفنون والتقنية.

﴿ وفي السياسة المعاصرة ⁽¹⁾.

لكنها في كتبها تذكر أن حضارة الإسلام وأهله قدموا كل علومهم للغرب، قدموا الدواء والصيدليات، والعلوم والمختبرات، والنظافة والحياة.

ولم تنس زيجريد في بداية كتابها أن تذكر مساوئ الاستعمار الغربي، وما سعى إليه من تغيير عقائد الأمة وهويتها الجلييلة. وفيما تذكرنا المؤلفبة بذلك، نجدها حريصة على الدعوة الأصيلة، التي تطالب فيها أهل الإسلام بالحفاظ على ”الأصول“ و”الجدور“، لأنها مقتنعة أشد الإقتناع أنَّ الإسلام خدم البشرية عامة، مجاناً وبغير حساب، فهي دعوة لإنصاف هذا الدين، ورسوله المرسل رحمة للعالمين، ومن مطالب العودة: لغتهم التي ”هي المفتاح الرئيس إلى عالم الفكر الذاتي للعرب“ ⁽²⁾، كما دعتهم إلى الحفاظ على الدين باعتباره المحور الذي يدور حوله وجودهم، الدين ”المنفتح على العالم، والذي لا يعارض التطور العقلي“، ثم: التنقيب عن الماضي الفكري المدفون تحت الأنقاض تماماً، واستيعاب أسباب نشوئه، واكتماله واكتهاله، ثم تقهقره واندثاره، والخروج بالعر والدروس اللازمة للانطلاق للمستقبل.

وتزيد في النصيحة، وهي العاملة بتاريخ الإسلام وحضارته الزاهرة، في موقف علمي متزن، فتدعو العرب إلى عدم التوسل بأمجاد الماضي للهرب من الواقع، أو أن يكون اعتذاراً واهياً يذكي الكبرياء فحسب: ”دون أدائه الحق المفروض عليه، وهو التعلم من الماضي لبناء المستقبل“ ⁽³⁾.

(1) المرجع السابق، ص 26.

(2) المرجع السابق، ص 95.

(3) المرجع السابق، ص 96.

ومما يلفت الانتباه، أنَّ الباحثة الكبيرة تكتب ذلك، وهي تعلم مدى السقوط الذريع الذي وقعت فيه الأنظمة العربية من التقليد الأعمى للغرب، والأنماط الغربية أو الأيديولوجية الروسية، وهو ما جعل مسيرة العرب تنتكس، فالأفكار والأنماط الخاطئة لا تنفع الأمة، ولا تعمل على رقيها كما كانت أول مرة، إلّا أنها قالت إنه لا داعي للانغلاق عن ما يفيد أمة الإسلام، مما لا يتعارض مع هويتهم ودينهم، : ”ليس ثمة أجدى من السماح في العطاء، والأخذ الواعي القائم على الأصالة، المبنية على الرفض الصادر عن الثقة بالنفس، المتغلغل فيها، للعناصر الغربية على الطبيعة العربية، والانفتاح للتطورات في العالم الحديث، لكي يتمكن العرب من الإحاطة بها والإفادة منها بما يتفق وروحهم الخلاق المبدع، وأن ينفخوا فيها من روحهم فيبعثونها عربية حية“⁽¹⁾.

ولا تنسى المؤلفة أن تنهي كتابها وربما حياتها بالإيمان، فتقول : ”إنَّ الإسلام هو ولاشك أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحةً وإنصافاً، نقولها بلا تحيز، ودون أن نسمح للأحكام الظالمة أن تلتطخه بالسواد، إذا ما نحينا هذه المغالطات التاريخية الآثمة في حقّه، والجهل البحث به، وإنَّ علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق، مع ضمان حقّه في أن يكون كما هو“⁽²⁾.

ومما يلاحظ، أنَّ هونكه لم تخض في مجال هذا البحث التاريخي الخطير الشأن، إلّا بعد أن تعمقت في دراسة التاريخ الأوروبي، وحقبه المختلفة، والتاريخ الإسلامي أيضاً، وبعمق واضح، كما أنها اطلعت بصورة موسعة على العقائد النصرانية، وأساطير فرقها وجماعاتها المختلفة، وعلمت من القرآن ما لم يعلمه كبار المستشرقين من بني جنسها، وقد كانت على دراية كبيرة بالأكاذيب التاريخية عن تاريخ الإسلام والمسلمين، والافتراءات التي تدور حول ذلك، وإلى اليوم في الغرب. كما أنَّ لها خبرة فريدة بتاريخ خلفاء الإسلام والفتوحات الإسلامية⁽³⁾.

• التحرير الإسلامي للمرأة

وتقدم هونكه في هذا الكتاب رؤيتها عن التحرير الإسلامي للمرأة، والمعاني السامية والعميقة للحبّ بين المرأة وزوجها، والطاعة المحبوبة النابعة من هذا الحبّ، وهذا من جوانب العظمة التي تفرّد بها الإسلام في هذا الميدان.. ميدان التحرير الحقيقي للمرأة المسلمة، تقول:

(1) المرجع السابق، ص 97.

(2) المرجع السابق، ص 101.

(3) طارق منينة، ”الله ليس كذلك“ للباحثة الألمانية زيغريد هونكه، مرجع سابق.

« إنَّ الرجل والمرأة في الإسلام، يتمتعان بالحقوق نفسها من حيث النوعية، إن لم تكن تلك الحقوق هي ذاتها في كل المجالات: في الحياة الزوجية التي يهتم القرآن بها اهتماماً رئيساً، تنظر المرأة إلى زوجها نظرة العارفة بقوامته عليها، وذلك أنَّ كبرياءها يأبى عليها الإمتثال والولاء والطاعة، إلا لمن ترفع إليه بصرها إعجاباً وتقديراً، فالعلاقة بينهما تخضع للامتثال القائم على الثقة والخضوع والولاء، ولا تعني تلك الطاعة عبثاً ينوء المرء تحته مُعانياً، بل إنَّ المرء يتمتع بخضوعه هنا دون الحط من قدره، بل إنه ليلبغ بخضوعه أسمى الدرجات، سواء في عبوديته لله، أو في حبه مَنْ يُحِبُّ.. وهذا هو الذي عبر عنه ابن حزم الأندلسي في كتابه «طوق الحمامة»، حيث يقول: «ومن عجب ما يقع في الحب من طاعة المُحِبِّ لمحبوبه ... ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعدل هيبة المُحِبِّ لمحبوبه، وهذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحديدده الألسنة...»⁽¹⁾.

«لذلك فعلى المرأة العربية أن تتحرر من النفوذ الأجنبي، وإذا أرادت طي صفحة الماضي، فلا ينبغي أن تتخذ المرأة الأوروبية أو الأمريكية أو الروسية قدوة تحتذيها، أو أن تهتدي بفكر عقائدي مهما كان مصدره، لأنَّ في ذلك تمكيناً جديداً للفكر الدخيل المؤدي إلى فقدانها لمقومات شخصيتها، وإنما عليها أن تتمسك بهدى الإسلام الأصيل، وأن تسلك سبيل السابقات من السلف الصالح، اللاتي عشن منطلقات من قانون الفطرة التي فطرن عليها، وأن تلتمس العربية لديهن المعايير والقيم التي عشن وفقاً لها، وأن تكييف تلك المعايير والقيم مع متطلبات العصر الضرورية، وأن تضع نصب عينيها رسالتها الخطيرة، المتمثلة في كونها أم جيل الغد العربي، الذي يجب أن ينشأ عصامياً يعتمد على نفسه»⁽²⁾.

وبعد هذه العبارات العميقة التي حوت دروساً نفيسة، وأفكاراً عالية في فهم الروح الإسلامي في تحرير المرأة وعلاقتها بالرجل، عرجت هونكه في كتابها «الله ليس كذلك» على المرأة الفلسطينية التي حرَّرها الجهاد في سبيل الوطن .. فقالت: «لقد طبع التحدي الذي واجهه الفلسطينيات موقفهن بطابع متميز .. فبينما يعاني آلاف الرجال ذلَّ السجون، كان عليهن أن يقمن وحدهن بأعباء الأسرة، وتربية الأطفال وتنشئتهن، وحماية أنفسهن وأسرهن من الفتك الذريع، واغتصاب الزبانية بوحشيتهم السادرة، وهكذا لم يكن دور الفلسطينيات جديداً فحسب - وإنما نشأ وشبن ليتولين أدواراً قيادية في المجتمع، ولقد شاركن مشاركة إيجابية في حركة الانتفاضة، أو قل: جهاد التحرير على كل المستويات الممكنة.

(1) للاستزادة انظر: سيجريد هونكه، الله ليس كذلك، مرجع سابق، ص 61-69.

(2) المرجع السابق، ص 71-72.

إنّ نساء فلسطين العربيات يكتبن بأنفسهن التاريخ اليوم، وهن اللاتي يحملن مسؤولية تقرير المصير في التحول الاجتماعي، فهن يرأسن المؤتمرات الشعبية، وينظمن اللجان والهيئات التعاونية والإنتاجية، يوفرن أماكن العمل والوظائف المختلفة ويشغلنها، وهن فدائيات شهيدات، ينتهك الغاصب كرامتهن، ويزج بهن في السجون ويمعن في تعذيبهن، ولا ريب أن الفلسطينيات سوف يسهمن في المستقبل إسهاماً خطيراً في تقرير مصيرهن بأنفسهن، ومصير فلسطين، وسوف تتحدد حرية جميع الأرض المحتلة في ضوء تحقق المساواة وتحرير المرأة⁽¹⁾.

هكذا تحدثت امرأة ألمانية - كما يقول الدكتور محمد عمارة - عن فقه التحرير الإسلامي للمرأة .. وعن دور الجهاد لتحرير الوطن، وفي تحرير نساء هذا الوطن - على أرض فلسطين .. وهو حديث يمثل قمة من قمم الوعي النسائي.. يستحق التأمل والدراسة .. والتبني والاستلهام.. كما يستحق أن تباهي به المرأة الفلسطينية والمسلمة والشرقية .. فلا يخدعها حديث الصالونات والدكاكين، التي يمولها الأجانب لإفساد المرأة والأسرة في وطن العروبة وعالم الإسلام⁽²⁾.

• المساواة بين الرجل والمرأة

وتقول عن نظرة الغربيين للمرأة في الإسلام: اعتاد الأوروبي أن يتخيل المرأة في الإسلام على أنها إحدى زوجات أربع، قابضة خلف قضبان الحريم (الحرملك!) مصونة عن نظرات الرجال في جوٍّ مختنق، وحياة سادرة لا همّ لها فيها سوى الاشتغال باللاشيء، والقيّل والقال، والغيرة المستمرة من ضراتها الأخريات.

أجل، هكذا يتخيل الغربيّ النساء المسلمات، اللاتي لا يجوز أن يخرجن من الحرملك، أو سجن الحريم غير محجبات، فلا تبدو سوى أعينهنّ، فهنّ لم يخلقن إلاّ لإشباع رغبات الرجل وفقاً لمزاجه، وهنّ كائنات بلا روح، محرومات من الحقوق كافة، ينتظرن في بيوت آبائهنّ سلعة يشتريها القادر على الشراء ..

والحقّ أنّ الإسلام بريء من كل هذا، وليس في القرآن ولا السنة ما يشير إلى أنّ الإسلام أوصى بهذا؛ أجل علينا أن نتساءل ما الذي يمكن أن يكون صحيحاً في هذا الإدعاء إطلاقاً، وما الذي لا يصحّ؟.

(1) المرجع السابق، ص 72.

(2) د. محمد عمارة، شهادة امرأة مستشفقة ألمانية.. ونصيحيتها للمسلمين والعالم، موقع ملتقى الخطباء، نقلا عن جريدة (المصريون)، في : <http://www.vb.khutabaa.com/showthread.php?p=3149#Ve76r674O1s>

إنَّ القرآن الكريم، بصفته الدستور الإلهي، الذي ينصّ على التشريعات والحدود المنظمة للمجالات الدينية، والدينية، الشخصية، والعامة كافة، إنما يؤكد أنه لا فرق بين الذكر والأنثى، لا في الجوهر ولا في التكريم، وسأوى بينهما مساواة تامة في العبادات وأمور العقيدة كافة، وفي الناحية الخلقية الإنسانية البحتة، كما في الأمور المادية والاجتماعية، بل إنَّ أجر المرأة مساوٍ لأجر الرجال **”ولهنّ مثل الذي عليهم بالمعروف“**⁽¹⁾، على أن تتمّة الآية تبدو لنا، وكأنّها نقضت نقضاً كل ما يقال عن المساواة **”وللرجال عليهنّ درجة“**.. فعلى المرأة أن تطيع الرجل.... ولا شك أنّ العربي لا يجد أي تناقض أو تعارض هنا، ذلك أنّ هذه الدرجة لا تعني بحال تفضيلاً خلقياً، بمعنى سمو الرجل مكانة عن المرأة، الأمر المغاير لمعنى الطاعة ومبررها لدى **”يَهْوُ“** وبولس الرسول والقديس توماس، ومارتن لوتر، إذ إنَّ طاعة المرأة لديهم جميعاً، تعني العقاب الإلهي للمرأة لارتكابها الخطيئة الأصلية الأولى، لأنّ حواء لديهم أغوت آدم، وإمّا وسوست الحيّة لهما كليهما، ولم يجعل الإسلام تلك الخطيئة وراثية.

وكلمة الإسلام تعني لغة الامتثال لقضاء الله في خضوع واستسلام، والسلام أيضاً صفة تميز السلوك بين الجنسين، ففي تعاملهما فيما بينهما، تخضع هذه العلاقة للامتثال القائم على الثقة والخضوع والولاء، ولا تعني تلك **”الطاعة“** عبثاً ينوء المرء تحته معانياً، بل إنَّ المرء يتمتع بخضوعه هنا دون الحط من قدره، بل إنه ليلبغ بخضوعه أسمى الدرجات، سواء في عبوديته لله، أو في حبّه من يحبّ.

وهذا الدور - دور الخاضع الممتثل - يتناوب الطرفان أداءه: ففي قيام الرجل بدور العاشق الساعي إلى كسب رضا الحبيبة، لا يستنكف أن يخضع على عتبة الحبّ دون الحبيبة على ركبتيه، عبداً مطيعاً أمرها، وفي الحياة الزوجية التي يهتم القرآن بها اهتماماً رئيساً، تنتظر المرأة إلى زوجها نظرة العارفة بقوامته عليها، وذلك أنّ كبرياءها تأبى عليها الامتثال والولاء والطاعة، إلّا لمن ترفع إليه بصرها إعجاباً وتقديراً، وخلافاً لما ورد في بعض نصوص العهد القديم من الصراع الأزلي بين آدم وحواء، والذي يتحول فيما بعد إلى كراهية للمرأة لا تفتأ في التصاعد في أسفار العهد الجديد، والكتابات الكنسية المعتمد بها... (نظرة منصفة رائعة)، وهي كراهية يتوارى في ظلّها تضالاً ما يرد في (هكس همر) نجد أن الإسلام لا يصف المرأة بأنها أصل الخطيئة، ولا يعرف ذلك الصراع بين الجنسين، لا في الحياة الزوجية ولا في الحياة العامة، بل العكس هو الصحيح .. إذ يُذكر القرآن المؤمنين بما جعل بين الأزواج من مودة

(1) البقرة : 228.

ورحمة «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة»⁽¹⁾. وقبل موته أوصى محمد ﷺ بالنساء خيراً.. «ألا واستوصوا بالنساء خيراً.. وإنّ لِنسائكم عليكم حقّاً»، كما أنه أوصى بالأمهات أكثر من وصيته بالآباء، وأن «الجنة تحت أقدامها». كما أنّ القرآن ألحّ على المسؤولية الخاصة والعطف والرقّة والرعاية تجاه البنات الصغيرات خاصة، مُحَرِّماً ما كان شائعاً في الجاهلية من وأد البنات. وساوى بينهم وبين الذكور في التربية، وبين ضرورة تعلّم الجنسين «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم» «النساء شقائق الرجال»⁽²⁾.

• الاستعمار التغريبي

ولقد وقعت كثير من بلادنا العربية والإسلامية بعد التحرر من الاستعمار العسكري، في شرك الاستعمار التغريبي.. ثم بدأت الصحوة الإسلامية التي تبحث عن الذات والأصول والهوية والجذور، وذلك حتى يكون استقلالنا حضارياً، وليس، فقط، مجرد علَم ونشيد!..

وعن هذه الحقيقة من حقائق واقعنا العربي والإسلامي، كتبت هونكه تقول :
عندما تحررت البلاد العربية من نير الاستعمار، الذي جثم فوقها قروناً.. وجدت نفسها - على اختلافها - تواجه متطلبات العصر الحديث .. وأخذت تسلك سبلاً مختلفة كي تشق طريقها إلى العالم الحديث، لتفسح لنفسها مكاناً فيه، والأخذ بأسلوب حياة المستعمرين وحضارتهم الفتية، واحتذاء سيرة السادة وحياتهم الناجحة، وطريقتهم في العيش والتفكير، وعاداتهم، وما حققوه من إنجازات مادية، ومثل أخلاقية، وهكذا يتأوربون كالأوربيين، ويتأمركون كالأمريكيين، ويتروّسون كالروسيين!..

لكن.. في مواجهة هذا الخطر الجديد، الذي بات يتهدد الاستقلال الداخلي بعد التحرر خارجياً، تداعت القوي - على اختلاف تجربتها في المعاناة في ماضيها مع الاستعمار، وشدة اغترابها - وأعلنت رفضها أن تكون مجرد تقليد أعمى للمدينة الحديثة الغربية..

إنّ الأصول والجذور التي ينبغي على العالم العربي أن يجدها، ويتعهد بها حتى يشقّ طريقه إلى الأمام، هي :

(1) الروم : 21.

(2) سيجريد هونكه، الله ليس كذلك، مرجع سابق، ص 61-64.

1. اللغة العربية : فهي المفتاح الرئيس إلى عالم الفكر الذاتي للعرب.
 2. الدين: بصفته المحور الذي يدور حوله وجود العرب، في كل ما يتعلق بأمورهم، ونعني بذلك الإسلام النقي من العناصر غير الإسلامية، المنفتح على العالم، والذي لا يعارض التطور العقلي..
 3. عودة الوعي والرجوع إلى الهوية الذاتية الذي يتطلب: التنقيب عن الماضي الفكري، المدفون تحت الأنقاض تماماً، واستيعاب أسباب نشوئه، واكتماله واكتهاله، ثم تقهره واندثاره، والخروج بالعبر والدروس اللازمة للانطلاق للمستقبل.
- فالعرب انطلقوا من قبل أيضاً من البداية، وكانوا آنذاك وسط حضارات تفوقهم، فلم يترددوا في الأخذ عن أولئك الغرباء ما رأوه ضرورياً لبقائهم، دون أن يحاكون محاكاة عمياء، ثم واصلوا فوّه البناء بطريقتهم الخاصة، وبالوسائل التي أتاحها لهم نبوغهم المميز، وصاحب هذا تطويرهم لأساليبهم النابعة منهم، وهكذا غدوا أكفأ لخلق إبداع فكري جديد، قيّم من الدرجة الأولى، منتمٍ إليهم.
- فالتعلم من الماضي لبناء المستقبل حقٌّ مفروض... ورفض غلّو التفوق والانغلاق.. وغلّو الانفتاح المطلق بلا قيد ولا شرط، والمؤدي إلى الاغتراب.. هو شرط للنجاة من الانحياز لجهة واحدة، الأمر الذي يتهدد الحياة..
- لقد أعقب المرحلة الأولى التي تلت الاستقلال، والتي اتسمت على جميع المستويات، باتخاذها الأنماط الغربية أو الأيديولوجية الروسية قدوة لها، انتكاس المسيرة، وسرعان ما تمخض ذلك عن عدم الثقة بكل ما هو غريب دخيل، ورفضه، خاصة ما أتى من ”الغرب“، وقد ارتبط ذلك بإحياء الإسلام والرجوع إليه“ (1).
- وهكذا تحدثت المستشرقة الألمانية عن الاستقلال الذي سقط أهله في شرك التغريب.. وعن الصحوّة من هذا المنزلق، والعودة إلى الذات والجذور، والأصول المتمثلة في: اللغة العربية.. والدين الإسلامي.. والوعي بأسباب النهوض العربي الأول.. ومنهاج ذلك النهوض.. والتوازن بين الخصوصيات وبين الصالح، مما لدي الآخرين.. فكانت هذه السطور التي رسمت منهاج النهوض على هذا النحو البديع والدقيق (2).

(1) المرجع السابق، ص 95-96.

(2) د.محمد عمارة، كلمتنا في نصيحة ”هونكه“ للعرب وللعالم، نقلا عن جريدة (المصريون)، 24مايو 2010م في موقع ملتقى الخطباء، الرابط التالي :

<http://www.vb.khutabaa.com/showthread.php?p=3149#.Ve76r674O1s>

• فضل الإسلام على الغرب وحضارته

في الوقت الذي كانت حواضر الإسلام تسعى لتنوير أوروبا، كانت الحروب الصليبية المقدسة، تتلاعب بالخيال الغربي، في محاولة بائسة لمقاومة العلم الكوني الإسلامي.

تقوم زيجريد هونكه بدحض (الخرافة المبهجة) - في الفصل الثالث - عن بطولة شارل مارتل الذي أُعطي لقب منقذ الغرب، إذ جعلوه قديساً بسبب انتصاره، في معركة "بواتيه"، على أصحاب الحضارة، التي ستستعين بها أوروبا في تطوير مجالات الحياة كافة، وقد ترك العرب وراءهم، وهم منهزمون عسكرياً، روح السماحة والعلم، وخلاصات القوانين العلمية، والنتائج المعملية والمختبرية، والأدوية والكتب... تركوا جواهر وظلالاً لتنير أوروبا كلها.

تقول عن طرد الحضارة على يد سفاك دماء: "وبعد فإنَّ شارل مارتل ذاك-الذي شاعت دعايات الحروب الصليبية فيما بعد، أن تخلع عليه هالات التمجيد والتعظيم، وأنه بطل النصرانية - استولى على الممتلكات الكنسية من كنائس وأديرة وضياع وأوقاف، ونهب كنوزها لتمويل جيوشه وفرسانه الجدد، ولتزويدهم بالعتاد والسلاح، ومنحهم الإقطاعات"⁽¹⁾.

إنها الريادة التي قاومت فتنتها الحرب المقدسة، لكنها انتقلت عبر الكتب التنويرية الإسلامية، ومن خلال التعايش السلمي، وحتى ما بعد طرد المسلمين في القرن الحادي عشر الميلادي، فقد أخذت مؤلفات العرب وأعمالهم: "تندفق على أوروبا منذ القرن الحادي عشر الميلادي، وازداد تدفقها خاصة في القرن الثاني عشر، قد كان. ذا شقين: فقد صادف أعظم ترحيب لدى الدوائر أو الواحات، التي احتفلت بالدراسات الطبيعية، مثل المدارس العليا في فرنسا وألمانيا وإنجلترا، مثل شاتريه ورهيميس وأوجسبورج وكولونيا ورايشنو وأكسفورد، حيث كانت علوم العرب تلك تُدرس بنهم شديد، ومن ناحية أخرى اصطدمت منجزات أعداء الدين حيناً من الدهر بالرفض الفظ المحتدم، والشك المتهم"⁽²⁾.

"كل ذلك هطل على أوروبا كالغيث على الأرض الميتة فأحياها قروناً، وخصبها إبان ذلك من نواحي متعددة، ودفعها دفعاً قوياً لكي تباشر بحوثها الخاصة بها. ذلك هو العطاء الثاني، وهو أسخى بكثير من سواه، ولا يمكن أن يقاس فضله، والذي يدين به الغرب بل العالم كله للعرب"⁽³⁾، فماذا يا ترى يمكن أن تكون حالة أوروبا لو لم يصل الإسلام إليها

(1) زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، مرجع سابق، ص 50.

(2) المرجع السابق، ص 87.

(3) المرجع السابق، ص 82.

وأهله؟. ”لقد وطئوا القارة الأوروبية في إسبانيا وصقلية، حيث عاش في كنفهم الإسبان والاطليان قرونًا، بلغت في صقلية قرنين ونصف قرن، وفي إسبانيا قرونًا ثمانية من عام 711 حتى عام 1492.“⁽¹⁾.

تقول هونكه : ”ولو تساءلنا ماذا تُرى لو أنّ مسار التاريخ كان غير الذي حدث كما عهدنا؟، أفكنا نرى أوروبا أفضل أو أسوأ ؟، أسعد أو أشقى من أوروبا التي نعرف؟، فإننا لا نستطيع القطع برّد يقيني!، اللهم إلا القطع بأنه لو كان مسار الأحداث قد تغيّر، لكانت أوروبا اليوم قارة أخرى غير التي نعرف“⁽²⁾، ولمشاركتها القلق المعرفي، تدعو هونكه المؤرخين الذين أجابوا عن السؤال بشكل متحيز، أن يعيدوا النظر في مواقفهم مع مقاربة تاريخية، لاتعزل حقائق التاريخ الإسلامي، ومنجزاته الإنسانية والحضارية.

إنّ الجملة الفائتة، تعدّ أهمّ جملة يمكن تسليطها على نار الأحقاد العلمانية العربية، ومنها الحقد الذي دفع ”شاكر النابلسي“ أن يكتب كتابه ”**لو لم يظهر الإسلام**“، متهمًا إياه أنّ ظهوره نكسة تاريخية، ومثله ”صادق جلال العظم“ الذي كتب في كتابه ”**نقد الفكر الديني**“ بعد هزيمة 67، مرجعًا إياها إلى انتشار الإسلام في بلاد العرب، ولا غرو فكلاهما شربا حتى الثمالة من خمر العلمانية الإستشراقية والفلسفية.

وتُبرز زيجريد هونكه الفرقان المبين، وهي تسجل بأناملها اللطيفة سماحة المسلمين في ثمانية قرون أوروبية، فتقول: ”إنّ سماحة النفس العربية وتسامحها الآسر الغامر، الذي نما وترعرع تحت الحضارة العربية الفريدة، كان له أبلغ الأثر في ازدهار إسبانيا العربية - على العكس من اضطهاد ”إيزيدروس“ لليهود والمارقين إبان عصر القوط الغربيين، لقد أنهى الفتح الإسلامي ظلم القوط لأهل الأندلس، فصار الأمر الإنساني والعقد الاجتماعي : ”لا فرق بين العرب والقوط، والبربر والمصريين، واليهود والسوريين، وسكان إيبيريا والفرس، وغيرهم من اليهود ومن النصارى غير مغبونين“⁽³⁾.

«تمتّع اليهود وغيرهم بالرخاء والحرية الإسلامية، وتميّزت حواضر الإسلام بارتفاع مستوى معيشة كل طبقات الشعب : يبين مثال إسبانيا هذا، أنّ تلك البلاد التي كانت قبل الحكم العربي تتسم بالفقر والخراب والاستعباد، قد استحوّلت بعد قرنين فحسب من الحكم

(1) المرجع السابق، ص 12.

(2) المرجع السابق، ص 50-51.

(3) المرجع السابق، ص 53.

العربي إلى إسبانيا أخرى، رفر الرخاء والثراء على كل ساكنيها، وتميزت بارتفاع مستوى كل طبقات الشعب، وازدهار الحضارة والتمدن فيها، وتقدمها في العلوم والفنون كافة، فصار لها سبق الريادة في أوروبا، وذلك بسبب موقف الكنيسة المعادي للفكر، وأمست إسبانيا العربية أسوة بها تُقتدى، ومناراً به في شتى المجالات يهتدى، واستمر ذلك خمسمائة عام، كما هو ثابت تاريخياً بلا جدال، إلى أن زحفت إسبانيا النصرانية من الخارج فقوضت كل ذلك وحطمتها حطماً⁽¹⁾.

• التمددين الإسلامي

فالإسلام جاء للتحريير والتمدين للعرب وغيرهم، رحمة للعالمين، ولتحقيق إنجازات هذا الدين العظيم في واقع الناس، والوقائع التاريخية تثبت تحقق ذلك كله، أما أوروبا التي وصل الإسلام إليها، ووقف يطرق بابها بالعلم والنظافة والسماحة، فقد استفادت منه في تكوين كثير من أسس عقدها الاجتماعي، بعد أن كانت الوحشية والحروب الأهلية والجماعية والمسيحية تحكمها، ما أحدث مجازر وحشية في أرجاء أوروبا كافة، الأخ المسيحي ضد أخيه!!، فقتلت مئات الأولوف من النساء والرجال والأطفال. تقول هونكه عن ذلك التاريخ المرّ، الذي كان تدور حلقاته حتى أيام فولتير وديدرو وروسو وجريم وغيرهم، فلاسفة التنوير (الذين شارك كثير منهم في الموافقة على مجازر)، منبهة أذهان المؤرخين إلى فضائل حضارة العرب والمسلمين، وما جلبته لأوروبا من صور التمرد، العلمية والعقلية، المنهجية والنقدية، على السلطات التي كانت تستبيح الدماء والأموال، والأعراض والنساء، ومن ثم التخلص منها وإحلال علوم المسلمين مكانها: "مَنْ مِنْ أولئك المؤرخين الذين احتفوا واحتفلوا بانتصار "القيم النصرانية وكرامة الإنسان" في الصراع المفترض، أنه تم بين العالمين الإسلامي والغربي النصراني، تراه يدري كم دمعة ذرفت المرأة كل يوم مستذلة مستضعفة، وقد حملتها النصرانية وزر الخطيئة الأولى، وجعلتها أم المعصية، وألزمها الخضوع للرجل سيدها، فصارت هدفاً لصفعاته على امتداد خمسة عشر قرناً من الدموع؟، من منهم يدري كم ألفاً من النساء حرقتهن الكنيسة أحياء على أعين الملأ، فوق كومة الخشب المنصوبة للحرق بزعم أنهن ساحرات؟، بل من يستطيع حتى يومنا هذا أن يحدّد عدد المؤمنين والمؤمنات ممن تعمقوا البحث في الدين، وانتهوا إلى ما اطمأنوا إليه من يقين؛ فطردوا وأوذوا أو قُتلوا؟، وقل مثل ذلك فيمن قُتل من الدارسين والعلماء، الذين نبهوا إلى ما في

(1) المرجع السابق، ص 53.

الإنجيل من اختلاف وتناقض، وكم عدد أولئك الذين دُبحوا وسفكت دماؤهم في الحروب الدينية لكونهم يدينون بدين مخالف؟“⁽¹⁾.

وقد دافعت زيجريد عن حرية اليهود، وفضحت الاضطهاد الأوروبي تجاههم، مُدركة بفضل الإسلام على اليهود، وهو ما ينفي أنَّ النازية كانت تتلبسها حينما كتبت تحفتها التاريخية عن الإسلام وحضارته، أولاً عام 1960، وثانياً عام 1974، وثالثاً فيما بعد، في كتابها ”الله ليس كذلك“، وفيه بعد الجملة السابقة مباشرة قولها: ”وأي مدى للكره والتأليب الذي جعل النصارى يعتقدون أنَّ اضطهادهم لليهود إنما هو أخذ بالثأر لصلب المسيح“⁽²⁾!

وتقدم زيجريد حقيقة الفرقان عن واقع الإسلام في حواضر أوروبا الإسبانية، وهو ما ينطبق على غيرها مثل صقلية، فتقول إنه بينما : ”كانت أوروبا الكاثوليكية دون جبال البرانس تقضي قضاء مبرماً على كل دين آخر، يجرؤ على الظهور إلى جانب دينها الكاثوليكي، نرى أنَّ النصرانية لم تُستأصل ولم توضع تحت حكم العرب لإسبانيا، والذي دام ثمانمائة عام، ومثال إسبانيا يبين في الوقت نفسه كذلك أنَّ اليهودية - والتي تتعرض من قبل النصارى بلا انقطاع لأقسى صنوف الاضطهاد- تمتعت في ظلال الحكم العربي- بصفة اليهود ذميين من أهل الكتاب- لأول مرة بعد الشتات بمطلق الحرية، إلى أن استعادت النصرانية الحكم في إسبانيا فطردت اليهود منها“⁽³⁾.

ثم زالت الصورة المادية للحضارة الإسلامية من أوروبا وبقيت إنجازاتها، مع ”الإجهاز على السماحة والتسامح نهائياً في إسبانيا“ بتعبير هونكه، مضيقة: ”وما أن زالت دولة العرب في إسبانيا حتى اندثرت معهم أزهى وأخصب حضارة ملكتها أوروبا في العصور الوسطى، وغرقت في بحر من الرعب، وأتت فيه أمواج التعصب الديني على كل شيء وابتلعته ابتلاعاً. ولم تلغ محاكم التفتيش إلا في 1834م“⁽⁴⁾.

لقد كان التسامح في الأندلس كما تقول : ”أبلغ الأثر في ازدهار إسبانيا العربية...إنَّ تلك السماحة التي يراها الإسلام شيئاً مفهوماً بداهة؛ جعلته يرتضي ويتقبل وجود النصرانية مطلقاً؛ الأمر الذي بدا لبعض النصارى غريباً، وبالتالي استثارهم للإتيان بأفعال دافعها

(1) المرجع السابق، ص 51-52.

(2) المرجع السابق، ص 52.

(3) المرجع السابق، ص 53.

(4) المرجع السابق، ص 45.

التعصب طلباً للاستشهاد: هكذا يسجل التاريخ قصة شاب نصراني من هؤلاء، كان يعمل كاتباً في بلاط الخليفة في قرطبة، ثم قرر أن يلتحق بأحد الأديرة، فطلب إلى قاضي القضاة أن يأذن له بالمثول بين يديه، زاعماً أنه راهب يبغي الدخول في الإسلام، فأذن له، وبدون تمهيد، ابتدر ذلك الراهب الشاب قاضي القضاة بالنيل من الإسلام، ساباً إياه سباً قبيحاً؛ ناعثاً نبيه بأنه كذاب لئيم وأنه في الجحيم؛ وعبثاً حاول قاضي القضاة السليم الطوية أن ينقذ ذلك الشاب، المتعصب بصرفه عن المضي في سبه وتجديفه حتى لا يعاقب بالقتل، ولم يكن الشاب النصراني ليتخيل إطلاقاً أن قاضياً مسلماً يسعى لإنقاذ حياة غير المسلم⁽¹⁾.

في الوقت الذي تحدث فيه تلك الأحداث الجاهلة والمؤسفة معاً، كان التأثير الإسلامي يجري على قدم وساق، فيؤثر أيما تأثير على البنية العقلية والنفسية لعلماء غربيين جدد، خلقهم العلم العربي والإسلامي، وابتعثهم العلم الإسلامي للتغيير.

وتواصل هونكه بيان فضل الإسلام على أوروبا فتقول: ”وكما قيل حقاً فإن إنجازات علماء العرب من أطباء وكيميائيين ورياضيين وفلكيين، ومخترعاتهم الفنية، التي وصلت إلى أوروبا إبان إحكام آباء الكنيسة قبضتهم عليها، ليزداد تخلفها من سيء إلى أسوأ؛ كل ذلك هطل على أوروبا كالغيث على الأرض الميتة فأحيها قروناً، وخصبها إبان ذلك من نواحي متعددة، ودفعها دفعاً قوياً لكي تباشر بحوثها الخاصة بها. ذلك هو العطاء الثاني، وهو أسخى بكثير من سواه، ولا يمكن أن يقاس فضله، والذي يدين به الغرب بل العالم كله للعرب“⁽²⁾.

ثم تصف التوتّر والإرتباك الذي كان عليه الغرب، وهو يرى نور الإسلام سارياً في حواضره، كأنها تكشف خلجات القساوسة المظلمة المضطربة أمام زحف النور المبين، كما تكشف الأمل في عيون الشباب الأوروبي، المتطلع للحياة الكريمة، فتقول: ”إن قبول العلوم الصادرة عن الغريب، ذلك العدو الديني المستباح كان متبايناً، حافلاً بالتوتّر؛ فقد اختلط الإعجاب بالرفض اللفظ، ووقف الشك المحموم أمام الظمأ المستبد بالعلوم، ونظر البعض بارتياح إلى الانتهاج من جديد بنجاح لسياسة القمع والملاحقة، والزج في السجون بتهمة الزندقة“⁽³⁾.

فهي تعرض الصورة النفسية للإنسان الغربي، والصراع الداخلي بينه، وهو محمل بحوامل الدعاية الكنسية ضد الإسلام، وبين ما يراه أمامه من أخلاق العربي المسلم في حواضر

(1) المرجع السابق، ص 53-54.

(2) المرجع السابق، ص 82.

(3) المرجع السابق، ص 83.

الإسلام وقدرته: "التي تحدّد...أيضاً ميله نحو الطبيعة وأسلوبه العلمي، ذلك الذي يتمثل في أن يفكر في إطار إنساني شامل والاعتراف للفرد بوجوده الذاتي، وطبيعته المتفردة... بالإضافة إلى الاستعداد للإقرار بحرية أصحاب العقائد الأخرى، واختيار عقيدتهم بأنفسهم بغض النظر عن وجهة النظر الذاتية"⁽¹⁾.

• العرب والإبداع العلمي

وتكتب هونكه داحضة فكرة أنّ العرب هم نقلة علم لا مبدعو علم، بقولها: "إنّ تلك الحضارة الزاهرة التي غمرت بأشعتها أوروبا عدّة قرون، تجعلنا نعجب أشدّ العجب، إذ هي لم تكن امتداداً حضارياً لبقايا حضارات غابرة، أو لهياكل حضارة محلية على قدر من الأهمية، أو أخذاً لنمط حضاري موجود، أو تقليداً ينسج على مثاله المعهود، كما نعرف في الأقطار الأخرى مهد حضارات الشرق...إنّ العرب هم الذين أبدعوا إبداعاً، يكاد يكون من العدم، هذه الروعة الحضارية الشامخة في إسبانيا، تلك الجنة الفريدة الجمال لأساتذة فن المعمار..والشعراء والشاعرات، والعلماء؛ بل جنة المرأة، التي نسج الغرب حولها صوراً خيالية شيطانية غاية في الوحشية؛ دون أن يكون له أدنى معرفة أو حتى إلهام طفيف ضل بها. إنّ هذا الازدهار الراقي لفن المعمار في قرطبة وطليطلة وغرناطة وإشبيلية، قد طورته الطاقة الخلاقة لذلك الشعب العربي، فأنت بأفضل الثمار في جميع حقول الأندلس...التربة القاحلة الجدباء، والهضاب الصلدة العارية من الزرع، فقد استصلحها العرب بفضل خبرتهم الطويلة على مرّ القرون، في حفر الآبار وأنظمة الري بالنواعير أو السواقي الضخمة، وإقامة السدود العملاقة، وتجهيزات رشّ الحقول بالرداذ وقنوات الري، حتى اخضرت الأرض سهولاً ومصاطب وهضاباً، وأقاموا عليها جنات وحدائق، فيها من كلّ الثمرات، في وفرة جاوزت احتياجاتهم، تحوطها كذلك حقول القمح التي كانت تغل في الحول ثلاثة محاصيل أو أربعة. ثم إنهم حملوا كذلك من المشرق خبرتهم في الرعي، وتربية الماشية والخيول والبغال والبقر، بل إنهم كذلك أول من استعمل التلقيح لتحسين السلالات. ومدوا طرقهم التجارية في المشرق عن طريق بغداد أو الإسكندرية، ثم إلى المشرق الأقصى. ولقد كانت تلك الطرق شبكة قوافل التجارة التي حملت العطور والتوابل والبخور، والمواد الاستهلاكية الكمالية، والمواد الخام، والوفود الرسمية وغير الرسمية، والبريد وغير ذلك، كما شهدت مبعوثي أمير الأندلس الحاكم الواسع الثقافة، حيث جدّوا بتكليف منه في طلب مؤلفات المشاهير، وأحدث مخطوطاتهم

(1) إبل على بلاط قيصر، مرجع سابق، ص 129.

في أهم مراكز العلوم وعواصم الثقافة، حريصين على اقتنائها ودفع ثمنها، حتى قبل أن يفرغ مؤلفوها من إتمامها؛ وكانت تلك المؤلفات تُحمل بعد ذلك إلى قرطبة، حيث يقوم النساخ بنسخ العدد المطلوب منها، فيوضع بعضه في أرشف المساجد والمدارس، ويودع البعض في المكتبات العامة، وكان في قرطبة وحدها أكثر من عشرين مكتبة عامة، ويُعرض البعض للبيع لدى الوراقين في سوق الكتب. والجدير بالذكر، أنَّ الكتب آنذاك كانت نادرة الوجود شمالي جبال البرانس، حتى إنها كانت في الأديرة تثبت آنذاك بالسلاسل، بينما ذهب رجال الدين النصراني آنذاك إلى أن طلب العلم والمعرفة، بعدما أنزل الإنجيل، تجديد وكفر بالله.

أما ذبوع جامعات إسبانيا العربية، وعلو كعبها، فقد جذب إليها صفوة الباحثين المبرزين في العلوم والفنون والمعارف والآداب؛ فالتقوا جميعاً في رحاب جامعات الأندلس، وتكشف الترجمات اللاتينية المتأخرة لمؤلفات بعضهم، والتي أنجزتها مدرسة طليطلة للترجمة، والشهرة على الصعيد العالمي، ذلك الثراء الفكري العريض، المرتبط بأسماء الأعلام العالميين في مختلف الميادين؛ منهم أبو القاسم وابن زهر وابن رشد وابن طفيل وأبو مروان وابن الخطيب والبطرجي وابن البيطار وابن فرناس وابن خلدون وعلى الرجال وجابر بن أفلح وغيرهم من الأعلام، الذين أثروا الغرب الذي أعوزه آنذاك، مثل هؤلاء العلماء، ونفخوا فيه من روحهم، وأمدوه بطاقات دفعته قدماً⁽¹⁾.

وهكذا تتخذ هونكة التاريخ سنداً لها في بيان الحقيقة، كما أنها فهمت مغزى الدعوات النبوية المستمرة لطلب العلم بصورة فقهية كونية، كالتي كانت عند علمائنا الكبار، تفعل ذلك وهي تردّ أكذوبة أنَّ العرب نقلة للعلم والسلام!، فتقول: "انطلق العربي المسلم فاهماً دينه، "يطلب العلم من المهد إلى اللحد"، وسعى سعياً حثيثاً يجمع شتات المخطوطات التي حوت علم الإغريق، مما أفلت من الحرق... فجَدَّ العرب في التنقيب والبحث، وجمع ما تبقى، وترجمته وتهذيبه وشرحه ومراجعته والتعليق عليه، ومواصلة البناء على الأسس القديمة، مدفوعين إلى ذلك بالمقتضيات المستجدة في أمور العقيدة والأمة والدولة. تلك هي المأثرة الحضارية الخالدة، التي يدين العالم للعرب بالفضل فيها، وللعرب فحسب: فلا الروم ولا البيزنطيون، ولا فرق النصراني، سواء الأقباط والنساطرة، أو القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، هم الذين سعوا إلى إنقاذ حضارة إغريقية هلينية، كان قد أبيت إدادة تامة على أيدي متحمسي النصراني النشطين في مهاجمة العلوم، وكان بعضها الآخر قد أمسى فريسة

(1) زيجريد هونكة، الله ليس كذلك، مرجع سابق، ص 54 - 56.

الإهمال، موشكاً على الإندثار إلى الأبد والزوال، كما زالت من قبل بالمعنى الحرفي للكلمة حضارات المايا والإنكا، وإندفنت تحت الأنقاض، فالعرب هم الذين نقبوا عن تلك الكنوز وبحثوا عنها، واستخرجوها من بطون الأقبية المنهارة أو الآيلة للسقوط، بعد أن لبثت قروناً حبيسة أبنية لا علاقة لها بالحضارة، خلف جدران من خلفها جدران، فكان تخليصهم لها بمثابة تعويضات، قدموها سواء في اتفاقيات السلام (عهود الأمان) أو بالطرق السلمية الدبلوماسية⁽¹⁾.

وتتوجع هذه الباحثة الألمانية من مظالم قومها، واتهاماتهم للحضارة العربية والإسلامية فتقول: "إن تلك الحضارة (الإسلامية) لا تحظى بالتفات مؤرخي الحضارات، بل تتناوشها الأحكام الظالمة، دون أن ينتبهوا إلى ذلك، كما هي الحال هنا، وإدراك كيفية وأسباب استمرارية ازدهار حضارة ما أو بقائها "عقيماً". فالحضارة ليست منتجاً يصاغ بالبحث أو بالصبّ وفق قوالب أو نماذج مُقلّبة، فلئن أخذت أية حضارة من سواها أخذاً خلافاً مبدعاً - وينسحب ذلك على الإغريق أنفسهم إذا أخذوا من تراث مصر الفرعونية والشرق الأدنى - فإنما تلتمس ما تستطيع تشكيكه وتمثله، مما يلبي متطلباتها واهتماماتها، على أن توافق هذه طبائعها في النظر والتفكير، أو أن تقترب منها إلى حدّ كبير. هكذا نجد كلّ أمة تشكل هذا وفق طبيعتها، فتصبح خلقاً من صنعها حاملاً بصماتها. لهذا فإنه لخطأ ذريع أن يؤخذ على العرب أنهم لم يأخذوا خصائص معينة تميز بها قدامى اليونان - نعى فلسفتهم أو ملاحمهم المأسوية الكبرى، حيث قامت هذه على أبنية وأمّاط معينة في الفكر اليوناني- فلا يؤاخذ العرب بأنهم لم يواصلوا على الطريقة اليونانية، ثم إنَّ العرب على العكس من ذلك قد أبدعوا حضارة متميزة الملامح، أصيلة لا يمكن أن تلتبس بغيرها، ففيها علم أصيل لا يرضى أن يواصل هكذا ببساطة، فقد تشعب أمامه مساران فكريان ثنائيان: الإغريقي والهندي، فكان أميل إلى اتخاذ طريق آخر ميّزه عن الفكر الإغريقي، وعن الفكر الهندي تمييزاً ذا سمات وخصائص فارقة. يتضح لك هذا في تباين الأمم الثلاث، منهجاً وموقفاً، إزاء الكون والعالم الخارجي، وإزاء مواضيع البحوث ذاتها. وإيجازاً نقول : إنَّ الأمر هنا يتطلب الإحاطة علماً بنفسية الشعوب أو الأمم، ذلك أن إيصال التراث الفكري العربي ليس عملاً آلياً تلقائياً"⁽²⁾.

(1) المرجع السابق، ص 78-79.

(2) المرجع السابق، ص 79-80.

ومعلوم أنَّ هونكه ذكرت كما تقدم، أنَّ المسلمين ما تقدموا خطوة واحدة تجاه الكون إلّا : ”مدفوعين إلى ذلك بالمقتضيات المستجدة في أمور العقيدة والأمة والدولة“، فالعقيدة شكلت النفسية والعقلية، وتحركت بها تجاه الإنسان والأمة والدولة والحياة والكون والعلم.

ومن المعلوم، أنَّ العلم في الإسلام يمضي على سنن معروضة بدقة في الآيات القرآنية، وهو ما يجعل للأمة خصائص ليست في غيرها، لقد قدم العرب مع نتائج بحوثهم الغنية وبطرق بحوثهم العلمية البواعث التي أشعلت الشرارة الأولى لإطلاق البحث العلمي، الذي كان منذ القرن التاسع عشر الميلادي مشلولاً، يكاد يموت خنقاً، وذلك بسبب عدم السماح الكنسي الذي فاق كلَّ حدٍّ، والمنع والتحریم والملاحقة، فأذكت النيران التي بددت الانقياد الأعمى للمسلمات، والحقائق الإنجيلية والإغريقية، وقضت على الخضوع لهيمنة اللاهوت الكنسي، وساعدت البحوث الطبيعية على تفتحها الذاتي وانطلاقها القوي⁽¹⁾.

ثم تبين أنَّ العرب يخضعون العلوم لمعايير نقدية علمية، وأنَّ احتفاء عالم الإسلام بأسباب الكون وقوانينه، جرياً على مفاهيم قرآنية علمية ماثورة في أغلب السور القرآنية، جعل الفارق كبيراً جداً بين عالم الهنود والإغريق، وعالم الإسلام النابض العريق، فتقول: ”ولحسن الحظَّ نجد الفكر العربي يحتفل بالواقع، بينما ترى الفكر الهندي يحتفل بالناحية الذاتية كلَّ احتفال، خلافاً للفكر اليوناني الذي ينتقل من الجزئي إلى الكلي، من الحقائق المفردة إلى الفكرة المجردة؛ فالفكر الإغريقي لم يكن همّه الحقائق الملموسة المحسوسة، وإنما وقف بحوثه على مثله العليا، وتحركت دراساته النظرية حرّة طليقة من إसार التأثيرات المادية في مجال الفكر البحث...على العكس من ذلك تميزت خطى العرب بثباتها اليقيني العلمي، فقد سلكوا نهجاً وعراً، صعوداً من أسفل الدرج في تسلسل تدريجي، يتغلغل دنيا الحقائق العلمية كلَّ منها على حدة : المنهج التجريبي القائم على الرصد والملاحظة دون كلل أم ملل، والقياس، والمعادلات والحلول الرياضية، والترقي في صبر وكبد من الخاص إلى العام، ولئن كان اليوناني في جوهره من فلاسفة الطبيعة (مع وجود استثناءات، فإن العربي قد غدا عالم الطبيعة بالمعنى الحرفي للكلمة، ومخترع علم الطبيعة التجريبي، ولقد عبّد - تقصد من التعبيد - العربي بآلاته حقول العلوم البكر الوعرة تعبيداً، ومهد طرق البحث تمهيداً“⁽²⁾.

(1) المرجع السابق، ص 82.

(2) المرجع السابق، ص 80-81.

• الغرب والسرقات العلمية

ثم تبين في كتابها أنّ الغرب قد سطا على إنجازات العرب والمسلمين العلمية ونسبها لنفسه، فتقول: "يسطو الغرب سطواً على إنجازاتهم العلمية، خاصة مبتكراتهم ومخترعاتهم، فيدعيها لنفسه، ناسباً إياها لغير أصحابها من الأوروبيين، فإذا أعوزته الشخصية الأوروبية، راح يلتمس شخصية وهمية يخترعها، ويلفق لها الأساطير.. ولا ينجو من هذا التجني على العرب والمسلمين، بعض أعلام الغرب النابهين المشهورين في عصرنا الحديث. فقد راح بعضهم حتى نهاية الخمسينيات من القرن العشرين، يرمي العقلية العربية بأنها عقيمة كلّ العقم، وأن العرب مقلدون فحسب، لا يملكون موهبة الإبداع والخلق والإبتكار، وأن كنوز المعرفة القديمة التي وقعت في أيديهم، ونجت من الإبادة والحرق البربري العربي لها، تحولت إلى الغرب عن طريقهم، فكان دورهم دور الببغاء في تكرار بعض ما يسمع دون فقه لما يردّد، أو دور ساعي البريد، الذي يقتصر دوره على أداء الرسائل إلى ذويها ومستحقيها"⁽¹⁾.

وتقدم مثلاً للسطو على تراث العرب، فتقول هونكه :

"ومن كبار المنتحلين الذين سطوا بانتظام على تراث العرب، وكان لهم في ذلك باع طويل: النصراني قسطنطين الإفريقي، الذي ولد في قرطاجة، والذي احترف بيع الأعشاب والعقاقير الطبية، وطوف بالبلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، حيث أتيح له أن يختلف إلى مدرسة الأطباء في سالرنو، وكانت هيئة التدريس فيها من أعراق وأجناس متباينة: هنا عنت له فكرة التوفيق بين التناقض الهائل في مستوى معرفة الفرنجة بالطبّ، والبون الشاسع لمعرفة العرب المتمثلة في القلاع العربية الشامخة في علوم الطبّ والتطبيب، وبعد أن احتشد للأمر متخذاً ما يلزمه من تدابير، غادر سالرنو ليعود إليها بعد حين، وتحت إبطيه مجلدات ومجلدات... ثم أكبّ على عمله الخصب في همّة ونشاط عجيب، وبينما توالى المؤلفات التي سطرها ريشته سيالة، يعقب بعضاً دون هوادة، غير مهملة مجالاً واحداً من مجالات الطبّ؛ حيث تدفق ما فيها من علم قيم، كأنه شلال من التنوير والتجلي، ينصب فياضاً من منابعه على هيئة تدريس الطبّ في سالرنو - راحت منزلته تعلو، فاشتهر بعلو الكعب، بوصفه أستاذاً علامة في الطبّ، وأحاطته هالة من المجد والتوقير، فياله من عقل فذ منقطع النظير!، على أنه بعد انصرام أربعين عاماً، أن أن تتكشف حقيقة حكيم مونت كاسينو العظيم، فلم يكن سوى

(1) المرجع السابق، ص 8-9.

تاجر محتال، محنك دجال : فسرعان ما سقط خير هنا وخير هناك، على مؤلف لهذا أو ذاك من مشاهير أساطين الطبّ العربي، مما انتحله التاجر الجوال من قرطاجة، الذي ظنّ أنه قد ضمن لاسمه المجد والخلود. لقد شقّ على الغرب دائماً أن يعترف بالأحقية العربية في الوضع والتأليف والابتكار، وظلّ حتى عهد ليس ببعيد يبذل كلّ طاقاته لدفع ذلك وتفنيده⁽¹⁾.

وتستغرب هونكه من سطحية المعرفة الغربية عن العرب والمسلمين، على الرغم من وجود الإسلام في صقلية والأندلس قرونًا طويلاً، وعلى الرغم من الحروب الصليبية التي جعلت الغرب قريباً من الشرق والعرب والمسلمين، فتقول: "وإنه لمخجل أن نرى هذا النقص المخزي يتسلل إلى كتابات أعلام الغرب، حتى لنجده من كبار مؤرخي الحضارة المعاصرين، ألا وهو "جي توينبي"، حيث يبرهن على ذلك حكمه القاسي على العرب، إذ وصفهم بأنهم "غير متحضرين"، وأنهم "خلق غريب مستعبد من العالم الهليني أو المتطفلين على الحضارة الهلينية الإغريقية"، وأنهم "أولئك المحمديون البدائيون أقصى القول فيهم، أنهم تقليد بربري جاهل زائف لديانة السريان الغربية عنهم"، وقد جعلتهم تلك البدواة الجاهلة "لا يسعون إلى اعتناق النصرانية" لقصورهم⁽²⁾.

وهكذا، فدائماً ما نصطدم : "بأحكام مسبقة ظالمة شدّ ما شوهت وجه الإسلام، ولا تزال حتى اليوم تتناولها بالتجريح في موقفها المعادي له أشدّ العداء، ولا أدلّ على هذا من كلمة الفيلسوف الألماني الكبير "ليبنز" (1646-1716) وهي كلمة تدلّ على الجهل التام بالإسلام، حيث زعم أنّ "القدر المقدور بالجبر"، والذي يتيح للإنسان أن يرجع البصر فيما يصيبه من قضاء، إنما يسبغ عليه السكينة، وهكذا يصور القدر النصراني "الذي ينبغي أن يدعّن له ويتقبله النصراني بالصبر، راضياً من الرب الرحيم مصرف الأمور"، على النقيض من القدر المحمدي "الخانق المتشائم كلّ التشاؤم جملة وتفصيلاً، حتى إنّ الإنسان لا تتاح له الفرصة مرة واحدة لتجنب الأخطار التي تهدده أبداً، وإمّا عليه أن يرمي بنفسه في خضمها أعمى البصر والبصيرة". إنّ هذا محض إفتراء على الحقّ!، بل إنّنا هنا نصطدم - ولكن على مستوى فكري أعلى - بالغلو المفرط المنحاز في تصويره للخصم، وهو نفسه الغلو الذي عهدناه من قبل مستهل القرون الوسطى. والحقّ أنّ هذا الحكم المسبق المفتري، والذي لا يفتأ مغذوه يلحون على إثمائه، زاعمين أنّ التوكل المذعن خصيصة تسيطر على المسلمين، إنما يتعارض مع روح القرآن، وتنفيه الأحاديث النبوية نفيّاً قاطعاً، بل إنّ كليهما يدعوان الإنسان

(1) المرجع السابق، ص 92-93.

(2) المرجع السابق، ص 12-13.

إلى الاحتكام إلى إرادته الحرّة للبت في الأمور، ويهييان به أن يتبصر- انطلاقاً من كونه مسؤولاً- ويتفحص الإمكانيات المختلفة، والأهواء والمشارب المتعارضة، ليميز بينها وليختار اختياراً حرّاً بين الفضيلة والرزيلة...إنّ القرار الحرّ يشترط أوّل ما يشترط وعي المسلم وإدراكه، فهو نفسه يستطيع أن يغير نفسه، كما تنص الآيتان الواردتان في سورة الشمس مثلاً ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَاها وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ﴾ (الآيتان 9-10). كما تؤكد الآية الحادية عشرة من سورة الرعد ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِيْمَ بِقَوْمٍ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ** ﴾، فالإنسان في واقع الأمر هو صانع قدره، فيما يخصّه هو نفسه⁽¹⁾.

ولقد جذب الفكر الإسلامي وعلومه التطبيقية والتجريبية وطريقة المعيشة المرتبطة بهذا الفكر، الشباب الأوروبي وسحرهم، وبينما كان العرب يعرفون مصدره الأصيل، كانت النصارى تعرف وتنكر، أو تُخفي وتُدبر، أو تكتم وتقتل، لكن الشباب الأوروبي، على الرغم من ذلك كله، صار مفتوناً بالعلم وتقنياته، والسحر الشرقي من الكرم والسماحة والعلاقات الجميلة، والأخلاق الرفيعة، والنظافة والنظام، وفي ذلك تقول هونكه: "إنّ سحر أسلوب المعيشة العربي ذاك قد اجتذب إلى فلكه الصليبيين إبان وقت قصير، كما تؤكد شهادة الفارس الفرنسي "فولشير الشارقي": "وها نحن الذين كنا أبناء الغرب قد صرنا شرقيين!، ثم راح يصوّر أحاسيسه، وقد تملكه الإعجاب بالسحر الغريب لذلك العالم العجيب، بما يعقب به من عطر وألوان، تبعث النشوة في الوجدان، ثم يتساءل بعد ذلك مستنكراً: "أفبعد كلّ هذا نقلب إلى الغرب الكئيب؟!، بعدما أفاء الله علينا وبدل الغرب إلى الشرق"⁽²⁾.

• الحروب الصليبية

وتتحدث هونكه عن الحروب الصليبية التي دامت قرنين وانتهت بهزيمة الصليبيين، وخروجهم صاغرين من البلاد الإسلامية، فتبين تلك العاقبة الوخيمة التي عصفت بالعالم على مدة قرون، باهظة تكاليفها من بشر احتشدوا لها احتشاداً، فتقول: "لقد عاد خمس الفرسان فقط إلى ديارهم!، الخمس من فرسان الحملات الصليبية الست الكبيرة، والحملات الأخرى الصغيرة التي لا تحصى، والتي أبيدت فيها آلاف مؤلفة من المشاة البسطاء، فضلاً عن الصغار والمراهقين بين ثلاثين وخمسين ألفاً حصدوا حصداً...ومن ذا الذي يستطيع أن

(1) المرجع السابق، ص 39-40.

(2) المرجع السابق، ص 42-43.

يقدر مبلغ الخزي والعار اللذين أحاطا بالصليبيين بعد ما لمسوا حقيقة خصومهم، الذين كانوا يتصورونهم (كما وصفوا لهم) أخساء محتقرين يتخبطهم مسّ الشياطين“⁽¹⁾.

لقد كانت الدعايات كاذبة عن عدم سماحة المسلمين. والصليبيون وقعوا: ”في شرك الأكاذيب والشائعات التي روجت لها الكنيسة للإنتقام، لكن تكذب هذه الدعاوى رسالة تلقاها الإسقف أجتاتيوس في بيزنطة، من أخيه الروحي البطريرك تيودوسيوس من بيت المقدس يقول فيها: ”إنّ العرب هنا هم رؤساؤنا الحكام، وهم لا يحاربون النصرانية بل على العكس من ذلك يحمونها، ويؤدون عنها، ويوقرون قساوستنا ورهباننا ويجلون قديسينا“. وتُعقب هونكه على هذه الرسالة بقولها: ”ولا يكاد المرء يصدق هذا الذي يسمع، إذْ كان ذلك إيان الأفق المعتم، الذي يترص فيه الموت بالمسلمين في كل مكان، كانت السماحة حبلً بالحروب الصليبية. والحق أنّ المسلمين... قد إلّتموا منذ عهد الرسول محمد بضمان سلامة النصارى“⁽²⁾.

ثم تقول: ”من ذا الذي يستطيع أن يقدر مبلغ الخزي والعار اللذين أحاطا بالصليبيين بعد ما لمسوا حقيقة خصومهم، الذين كانوا يتصورونهم (كما وصفوا لهم) أخساء محتقرين يتخبطهم مسّ الشياطين؟!، لقد تفتحت أعينهم أول ما تفتحت في الشرق، فوجدوا أنّ أولئك الذين قد وصفوا لهم بأنهم أوغاد سفلة، إنما هم بشر مثلهم، بل إنهم أرقى منهم وأرجح فكراً، ليس في فنّ الحروب فحسب، وليس في تفوقهم في تسلحهم واتخاذهم الصلب، أو الفولاذ الدمشقي في صناعة أسلحتهم وتنظيمهم وصفوفهم مشاة وفرساناً، وفي بنائهم حصونهم وقلاعهم وآلاتهم المعروفة... وإنما قبل كل شيء في إستماتتهم في الدفاع عن الحمى دفاعاً جاداً، والتزامهم الخلقي ضبطاً وربطاً أفضل مما لديهم، فقد كان الصليبيون على العكس من ذلك“⁽³⁾.

وتستدل هونكه على أخلاق المسلمين، وحضارتهم ورقيتهم في تعاملهم لأسرى الصليبيين، بما كتبه عالم الفلسفة اللاهوتية ”أوليفروس“ من كولونيا، وهو الذي شارك في الحروب الصليبية، عن المروءة والفروسية العربية، التي أثبتتها في شخصية السلطان الكامل الأيوبي، فقد كتب عام 1221م يقول: ”منذ تقادم العهود، لم يسمع المرء بمثل هذا الترفق والجلود، خاصة إزاء أسرى العدو اللدود، ولما شاء الله أن نكون أسراك، لم نعرفك طاغية، ولا سيّداً داهية، وإنما

(1) المرجع السابق، ص 24-25.

(2) المرجع السابق، ص 20-21.

(3) المرجع السابق، ص 25.

عرفناك أباً رحيماً شملنا بالإحسان والطيبات، وعوناً منقذاً في كلِّ النوائب والملمات. ومن ذا الذي يمكن أن يشك لحظة واحدة في أنَّ مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله.. إنَّ الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وأخواتهم وأذقناهم مرَّ العذاب، لما غدونا أسراهم وكدنا نموت جوعاً، راحوا يؤثروننا على أنفسهم على ما بهم من خصاصة، وأسدوا إلينا كلَّ ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان“. انتهت رسالة الفيلسوف، إنَّ الإنسان ليبيكي لمثل هذا النموذج العجيب من المسلمين، فما هو واحد من فلاسفة الغرب، يمدح النموذج الأخلاقي البارز للمسلمين، وتعلق زيجريد هونكه على رسالة أوليفروس، فتقول: ”هنا كان ينبغي أن يقرع ناقوس، وأن تتجاوب لرنينه نواقيس أخرى.. وإذا كان عربي قد قدم مثل هذا البرهان على السمو الإنساني والمروءة المتناهية، فإنَّ ذلك ليس بدعاً أو حدثاً مفرداً، فثمة شواهد أخرى في هذا الصدد، ونذكر هذا الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد، الذي نشأ في الغرب تنشئة الملوك الشرفاء، فقد مرغ تلك السمعة الطيبة في العار، ودأب على تلويثها بشكل مخز دائماً أبداً، فبينما أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربي أنَّ حياتهم آمنة. إذا هو فجأة منقلب المزاج فيأمر بذبحهم جميعاً. ويحذو قائد الجيش الفرنسي حذوه سريعاً، وهكذا لطخ بفعلته النكراء، وسفكه تلك الدماء، سمعته إلى الأبد، وضيَّع ثمرة انتصاره في أذيال الخزي والهوان.. وعلى العكس من هذا، عرفنا صلاح الدين، الذي أخزى قواد الجيوش النصارى، فلم ينتقم قطَّ من أسراهم الذين كانوا تحت رحمته، ردّاً على خيانتهم وغدرهم، وفضاعتهم الوحشية التي ليس لها حد“⁽¹⁾.

هذه هي فروسية الإسلام الحقيقية، التي غابت عن كثير من مشاهد عالم اليوم، وشوهت حقيقتها بنماذج شائنة، تشبه في بعض صورها النماذج النصرانية لا الإسلامية، وتضيف هونكه فتقول: ”على العكس من المسلمين لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خلقي، يفرض عليها أن تسمح لأولئك ”الكفار“ بممارسة حقوقهم الطبيعية، الأمر الذي يمليه على الأقل، حقَّ الجوار ومحبته، كما شعرت تلك الفروسية النصرانية بأنه ليس لزاماً عليها أن تلتزم بكلمة الشرف التي تعطيها لغير النصراني. وحينما سفك فرسان الحملة الصليبية عام 1204م حتى دم إخوانهم من النصارى في بيزنطة، أخذ نيكثاس أكوميناتوس يبيكي مصارعهم قائلاً: ”بل إنَّ محاربي المسلمين الأعداء أنفسهم، رحماء طيبون، قياساً إلى أولئك القوم، الذين يحملون صليب المسيح على أكتافهم“⁽²⁾.

(1) المرجع السابق، ص 33-34.

(2) المرجع السابق، ص 34-35.

يقول توماس أرنولد عن تأثير ذلك في جنود النصارى : ”يظهر أن أخلاق صلاح الدين الأيوبي وحياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيراً سحرياً خاصاً، حتى إن نفراً من الفرسان المسيحيين، قد بلغ من قوة انجذابهم إليه، أن هجروا ديانتهم المسيحية، وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين“⁽¹⁾.

ثم تقول هونكه تحت عنوان (الفروسية العربية تجعل القساوة المسيحية حَجَلِي)، من كتابها ”الإبل على بلاط قيصر“: ”لم يعد الانتماء إلى العقيدة، وإما روح الفروسية هي التي أصبحت تحدّد الآن (من جديد) طبيعة الجبهات في ذلك اللقاء بين الشرق والغرب، تلك الروح تتناقض بشكل واضح مع الروح المسيحية، التي تتسم بالتعصب والأفق الضيق“، ثم تذكر هونكه ما حدث بعد حصار بيلاجيوس لقلعة دمياط، أن السلطان الكامل: ”قام بعدها، وبغض النظر عن ذلك الحدث، بإنقاذ الجيش المسيحي، بعد أن هزمه أمام القاهرة، حيث بقى عدّة أيام يعاني من الجوع الشديد، وذلك أنه استمر يرسل إليه وطوال أربعة أيام بـ 3000 رغيف كل يوم، وغير ذلك من المواد الغذائية، وبذلك أبقى على ألد أعدائه وأعداء بلاده حين وقعوا بين يديه، ومنعهم من التضور جوعاً، وذلك بدلاً من أن يرّد على الشيء مثله.

إلا أن ذلك العمل من أعمال الفروسية لم يكن استثناءً فريداً، ذلك أن الشهامة العربية كانت تسبب، المرة تلو الأخرى، الخجل للمسيحيين الذين يعكرون السلام دون هوادة، مثلاً كما فعل أوائل الفرسان الصليبيين في أنطاكية المحتلة، حيث يقرر أحد شهود العيان المسيحيين : ”أنهم غطّوا أنحاء المدينة كافة بالجثث، إلى درجة أنه لم يكن في وسع أي شخص أن يتوقف هناك، بسبب الرائحة العفنة المتصاعدة منها“، ولم يكن في وسع المرء أن يعبر الشوارع إلا إذا وطئت قدماه رؤوس القتلى“، وقد تمثّلت الذروة المؤلمة لتلك القسوة الممتناهية، حين وقع في القدس التي تم الاستيلاء عليها فيما بعد، ”حمام دم آخر، حيث إن رجالنا كانوا يخوضون في الدماء حتى الكاحل، كما حدث أيضاً عندما حاول ميخائيل السوري في وصفه للفرسان، الغارقين في الدماء من قمة رأسهم إلى أخمص أقدامهم، عندما حاول أن يجعل صورة بطريك القدس ترسخ في ذاكرة الأجيال التالية، حيث كان البطريك يجوس الشوارع قاتلاً كل المسلمين، ودخل كنيسة القبر ويدها ملطختان“.

(1) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، 1970م)، ص 111.

وحين حرّر صلاح الدين القدس - والكلام لهونكه - من جديد عام 1187 بعد أن ظَلَّت 88 عاماً تحت سيطرة الفرنجة، فإنه أبقي - على النقيض من تلك التصرفات المشار إليها تماماً - على حياة السكان المسيحيين عن طريق إصدار أوامر صريحة بذلك إلى فرسانه، كما منحهم حرية الانسحاب والحماية المسلحة أثناء ذلك، كما منح الموسرين مهلة أربعين يوماً لتقديم الفدية، ومنح الأقل غنى حريتهم مقابل مبالغ بسيطة، وحين طلب منه أخوه أن يطلق سراح ألف شخص دون أية مبالغ، فإنه وافق، كما فعل الشيء نفسه بالنسبة إلى خمسة آلاف من كبار السن، وحين طلب شيخان من الذين شاركوا في عملية الاستيلاء على القدس، من صلاح الدين - وفقاً لما يرويهِ أحد المؤرخين المسيحيين - أن يسمح لهما بالبقاء وقضاء بقية عمرهما في القدس، فإنه لَبى هذه الرغبة وأمر بإعطائهما ما يحتاجانه طالما كان يطلبانه، وهكذا أمضيا حياتهما هناك". وفوق ذلك فإنه منح عدوه الكبير، البطريك الروماني، وقائد عملية الدفاع عن القدس وغيرهما من المدافعين، منحهم حريتهم بناء على رجائهم، وقد جعل حراساً يرافقونهم حتى حدود أراضي الفرنجة، حين قام أحد فرسان الفرنجة، بعمل يهزأ فيه بالشهامة الإسلامية، يمليه عليه تكوينه الديني، حيث نهب وقتل كثيرين ممن أطلق سراحهم.

كذلك كانت السماح والفظاعة تقفان على طرفي نقيض، ممثلتين في ذلك الأسلوب الذي كان يتم التعامل به مع الأسرى، ذلك أنه حين وقع ملك القدس، "جاي دي لوزيجنان" في الأسر خلال المعركة السالفة بالقرب من حطين، فإن صلاح الدين عامله بكرم، وأطلق سراحه بناء على العهد الذي قطعه على نفسه أمامه، بألا يشهر السيف في وجهه بعد الآن. إلا أن ذلك لم يمنع جاي دي لوزيجان من أن يخرق وعده على الفور، ذلك أن عقدة التفوق المسيحية كانت تسيطر على أمثاله وتجعلهم يقنعون أن المرء ليس في حاجة إلى أن يلتزم بالاتفاقيات التي يعقدها مع الكفار.

• التسامح العربي وانتشار الإسلام

وتردّ هونكه على أكذوبة نشر الإسلام بالسيف، والحرق والحديد والنار، وهي من أقسى الأحكام الأليمة المسبقة الراسخة في الغرب ضدّ الإسلام، فتقول: "يثبت التاريخ لنا أن الدور الحاسم في انتشار الإسلام، يرجع إلى التسامح العربي. وبعد انصرام ألف ومائتي عام، لا يزال الغرب النصراني متمسكاً بالحكايات المختلقة الخرافية، التي كانت الجذّات يروينها، حيث زعم مختلقوها أن الجيوش العربية بعد موت محمد، نشرت الإسلام "بالنار وبحد السيف البتار" من الهند إلى المحيط الأطلنطي، ويلج الغرب على ذلك بكافة السبل:

بالكلمة منطوقة أو مكتوبة، وفي الجرائد والمنشورات، وفي الرأي العام، بل في أحداث حملات الدعاية ضد الإسلام“⁽¹⁾.

وتؤكد زيجريد على أنّ ذلك الشعار المنتشر في الغرب، هو: ”كذب لا أساس له من الصحة التاريخية أو الحقيقة الواقعية، ”لا إكراه في الدين“ تلك هي كلمة القرآن الملزمة، كما تردّ في الآية السادسة والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة، فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامي، وإنما بسط سلطان الله في أرضه، فكان للنصراني أن يظل نصرانياً، ولليهودي أن يظلّ يهودياً كما كانوا من قبل، ولم يمنعهم أحد أن يؤدوا شعائر دينهم، وما كان الإسلام يبيح لأحد أن يفعل ذلك. ولم يكن أحد لينزل أذى أو ضرراً بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، ويبيعهم وصوامعهم وكنائسهم...لقد كان أتباع الملل الأخرى - بطبيعة الحال من اليهود والنصارى - هم الذين سعوا لاعتناق الإسلام، والأخذ بحضارة الفاتحين، ولقد أُلحوا في ذلك شغفاً وافتتاناً، أكثر مما أحبّ العرب أنفسهم، فاتخذوا أسماء عربية وثياباً عربية، وعادات وتقاليد عربية، واللسان العربي، وتزوجوا على الطريقة العربية، ونطقوا بالشهادتين. لقد كانت الروعة الكامنة في أسلوب الحياة العربية، والتمدن العربي، والسمو والمروءة والجمال - وباختصار: السحر الأصيل الذي تتميز به الحضارة العربية عن الكرم العربي، والتسامح، وسماحة النفس - كانت هذه كلها قوة جذب لا تقاوم“⁽²⁾.

هذا الشيء المدهش الغريب، والمثير والعظيم، من دخول الشعوب طوعاً في الإسلام، استحال على الكنيسة المتربصة قبوله، و”أقض مضاجعها“، كما تقول هونكه، إنه تَأَبَّى على فهم الكنيسة: ”دخول شعوب الأقطار المفتوحة في الإسلام أفواجاً بمحض إرادتها، دون مساعي إرساليات التبشير، ودون الإكراه في الدين، أجل! لقد كانت السماحة العربية والروح العربي، وأسلوب الحياة العربي، مما استحوذ على نصارى إسبانيا، وليس كما زعم المبطلون زوراً وبهتاناً أثيماً - بأنهم أرغموا على الإسلام خشية السيف البتار، والحريق بالنار“⁽³⁾.

• الفتح الإسلامي ومكتبة الإسكندرية

وفي نهاية الكتاب تردّ هونكه على فرية حرق الفتح الإسلامي لمكتبة الإسكندرية، وأنّ عمر بن الخطاب قد أمر بذلك، وتؤكد أنّ النصارى هم من كانوا يقومون بحرق المكتبات،

(1) زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، مرجع سابق، ص 40-41.

(2) المرجع السابق، ص 41-42.

(3) المرجع السابق، ص 44.

قبل الإسلام، فالقيصر "كاراكلا" أغلق الأكاديمية وذبح علماءها، والبطريق النصراني عام 272 أغلق المجمع وحرق مؤلفاته، وأبادهما المشتعلون حماساً من النصارى، كذلك يحول القيصر فالنس "السيزار يوم" إلى كنيسة، وينهب مكتبته، ويحرق كتبها.. وفي عام 391م يفلح البطريق "ثيوفيلوس" في الحصول على إذن القيصر "ثيودوزيوس" لهدم "السرابيوم" كبرى الأكاديميات، ويترك الحريق يلتهم 300 ألف مخطوط، ويشيد ديراً وكنسية على الأنقاض!، ويستمر هذا الحال حتى ينهي النصارى على مراكز الثقافة في الإسكندرية.

ثم تؤكد هونكه بعد أن ذكرت تاريخ إفناء المكتبات على يد النصارى: "هكذا نرى أن المكتبات القديمة في مصر جميعاً، لم يكن لها أي وجود أيام دخول العرب الإسكندرية عام 642م"، ثم تسخر هونكه من الزعم الغربي القائل أن العرب استخدموا الكتب في إيقاد حماماتهم لمدة ستة أشهر، فتقول: "إن ذلك الرماد قد ذرته ريح الشمال قبل ذلك بستة قرون في الصحراء"، ويشير ذلك غضباً كامناً متقدماً في وجدان هونكه فتقول: "إن هذا الانحطاط الفكري السادر يبين مدى إلحاح الغرب على إلصاق الأحكام المسبقة الظالمة بالعرب، ومدى استمتاعه غياً بتزييفه لحقائق التاريخ بتفاصيل لا أساس لها سوى الخيال"⁽¹⁾.

وهي لا تسكت عن سرد الحقيقة كاملة، فتدافع عن عمرو ابن العاص، فاتح مصر والإسكندرية، وتدافع عن عمر ابن الخطاب، الخليفة المسلم آنذاك، فتقول: "ولا يخجل القوم هنا من افتئاتهم على خليفة المسلمين عمر بن الخطاب المشهود له بأنه من أعظم مؤسسي الدول، وأجلهم قدراً وكفاءة، وعبقرية، يهتمونه بالسذاجة وضيق الأفق، والجهل الذي لا جهل بعده"⁽²⁾. ثم تقول: "إن عمر نفسه هو من أملى نصّ المعاهدة أو العهد مع البلدان المفتوحة كافة بألا يخرب جنوده الأرض والزرع، وأن لا يستبيحوا المال والعرض: "وهو عهد تتضاءل إلى جانب عظمتة وحكمته، كل عهود الأمان واتفاقيات السلاح قبله وبعده، وتتوارى في ظلّه خجلاً"⁽³⁾.

ونجد هونكه تعرض نصّ معاهدة عمر بن الخطاب مع بطريق الإسكندرية: "يسري هذا العهد على جميع الرعايا النصارى، وقسيسهم وراهبانهم وراهباتهم، ويعطيهم الأمان لأنفسهم حيث كانوا، ولكنائسهم وأماكن حجهم، والسماح لهم بزيارتها..."⁽⁴⁾.

(1) المرجع السابق، ص 74-75.

(2) المرجع السابق، ص 75.

(3) المرجع السابق، ص 76.

(4) المرجع السابق، ص 76.

وتؤكد في كتابها شمس الله، أنَّ إقبال العرب على الكتب واقتنائها، كان يشبه شغف الناس اليوم باقتناء السيارات وأجهزة التلفزيون، فتقول : ”نمت دور الكتب في كل مكان نحو العشب في الأرض، ففي عام 891م يحصي مسافر عدد دور الكتب العامة في بغداد بأكثر من مائة، وبدأت كل مدينة تبني لها داراً للكتب..وأن يجلس كل شخص في قاعات المطالعة ليقراً ما يريد، كما ويجتمع فيها المترجمون والمؤلفون في قاعات خصصت لهم...فمكتبة صغيرة كمكتبة النجف في العراق، كانت تحوي في القرن العاشر أربعين ألف مجلد، بينما لم تحو أديرة الغرب سوى إثني عشر كتاباً ربطت بالسلاسل، خشية ضياعها“⁽¹⁾.

وتذكر هونكه أنَّ ابن طبيب صلاح الدين نفسه، كان يملك ثلاثين ألفاً من الكتب، وهو ابن المطران، طبعاً، هذا مسيحي في بلاد الإسلام تأثر بالجو العام، أما المسيحي الغربي، وفي عالمه الأثير، فكان يعيش جفاف العلم وفقدان الكتاب.

كما تذكر أنه بينما كان شارل الأكبر يجهد نفسه لتعلم القراءة والكتابة، وبينما كان أمراء الغرب يعترفون بعجزهم عن الكتابة أو القراءة، وفي الأديرة يندر أن تجد من رهبانها من يعرف قراءة الخط أو يمسك بالقلم، كما كان الحال في دير القديس جالينوس عام 1291م، «بينما كان هذا كله يحدث في الغرب، كانت آلاف مؤلفة من المدارس في القرى والمدن، تستقبل ملايين البنين والبنات، .. يتقدمون خطوة تلو الأخرى في المبادئ لقواعد اللغة...عن رغبة وإيمان، لأنَّ من واجب كل مسلم أن يقرأ القرآن، وهنا تتسع الهوة بين الشرق والغرب أيضاً، فالكتاب المقدس لا يجد الناس إليه سبيلاً إذا استثنينا الكهنة ورجال الدين ..على خلاف ذلك كانت الحال في العالم الإسلامي، لقد اهتمت الدولة بتعليم الرعية... لقد قدم العرب بجامعةاتهم التي بدأت تزدهر منذ القرن التاسع، والتي جذبت إليها منذ عهد البابا سلفستروس الثاني، عدداً من الغربيين من جانبي جبال البرانس، ظلَّ يتزايد حتى صار تياراً فكرياً دائماً، فقدم العرب بها للغرب نموذجاً لإعداد المعلمين لمهن الحياة العامة، وللبحث العلمي»، فليس لمثل هذه الأمة أن تقوم بحرق المكتبات، ولا بالإعراض عن اقتناء الكتب وفحصها، كما أنه: «فلم يكن العربي يرضى أن يحرق فمه بأفكار سرقها عن غيره، فمن يرغب من المعلمين أن يحاضر عن كتاب لغيره، وجب عليه أن يحصل أولاً على إجازة من مؤلف هذا الكتاب»⁽²⁾.

(1) زيجريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، مرجع سابق، ص 386.

(2) المرجع السابق، ص 393-398.

• التوجه الأوروبي إلى العرب والإسلام

وإذا انتقلنا إلى كتاب آخر من مؤلفاتها الثرية التي أنصفت بها الإسلام والحضارة الإسلامية، وهو كتاب ”التوجه الأوروبي إلى العرب والإسلام .. حقيقة قادمة وقدر محتوم“، نجدها تحاول بيان حقيقة الإسلام واضحة في مواجهة الضباب الذي يسود النظرة الأوروبية للعرب والإسلام، فهي ترى أنَّ هذه النظرة السوداوية قد ساهمت في بلورتها عوامل يأتي على رأسها مناهج التعليم الأوروبية، فمنذ الصغر تشحن ذاكرة التلميذ الغربي بكل ما هو مسيء للإسلام، وبفعل هذه المغالطات أصبحت المغالطات مسلمات، والافتراءات وقائع، والأكاذيب حقائق.

وتقول : ”العرب شعب يؤمن بالتسامح في السجيا والطباع والمعتقدات الدينية، وذلك عكس الدعايات الخاطئة التي تحيط بهذا الشعب“، ولم تأل في كتابها جهداً في التأكيد على دور حضارتنا العربية الإسلامية في تطور البشرية، وإخراجها من عتمة الجهل إلى نور المدنية والتحضر، فالإسلام هو المحرك للمسلمين للخلق والإبداع، والدافع للبذل والعطاء، فدان لهم العالم، فأناروه بنور الحضارة الساطع، وأظّلوه بظل المدنية الوارف.

وتؤكد هونكه في كتابها أنَّ العرب كانوا أصحاب أفكار ومبتكرات كثيرة في مجال الاختراعات الميكانيكية، كتصميم الساعات المختلفة، وأجهزة الرصد الفلكية والبوصلة، وكذلك ابتكروا تقنيات صناعية جديدة، وكثيرة في مجالات عديدة ومختلفة، منها تصنيع الورق والمعادن والجلود والزجاج، وصناعة الفخار والخزف، وتحويلها إلى منتجات جاهزة للتسويق، وقد وجدوا في أوروبا أسواق عطشى، متلهفة للحصول على هذه المنتجات.

• المسلمون ومعاملة الأسرى

وتبرز هونكه في كتابها موقفاً من المواقف الفريدة للتسامح العربي والإسلامي، وهو موقف المسلمين من أسرى الحروب الصليبية، وما تلقاه هؤلاء الأسرى من حسن المعاملة، فتقول: ”على العكس من الفظاعة المسيحية، اتسمت معاملة العرب للأسرى المسيحيين بالحنس والنبيل والشهامة، وقد كان ذلك محط تقدير واحترام ألمانين، فهذا ”أوليفيروس“ الواعظ والمعلم الكنسي، والمكلف بالدعاية للحملات الصليبية، يكتب رسالة إلى السلطان الكامل عام 1221م يقول فيها : ”منذ أقدم العصور لم نسمع بمثل لذلك، جموع من الأعداء تتحلى بمثل تلك الأخلاق الكريمة تجاه أسراهم .. لا أحد يجرؤ على الشك بأن تلك الأخلاق

النييلة، واللفف والرففة والشفة، هف هبة الله لك. أولئك الرجال الذين قتلنا آباءهم وأمهاتهم وأبناءهم وبناتهم وإخوتهم شرّ قتلة، وقلبنا لهم اللوة والحرقة، كانوا هم الذين أقرّوا عيوننا، وأنعشونا، وأحيونا بطعامهم وشرابهم بعد أن شارفنا على الموت جوعاً، وغمرونا بعد ذلك كلّه بجميل صنائعهم، وقد كنا تحت سيطرتهم وفي قبضتهم“.

وتعلق هونكه على الرسالة قائلة : ”هذه الشهامة وروح الفروسية، لم تكن استثناء وحيداً، إذ طالما أخجلت السماحة العربية أولئك المسيحيين، الذين يسعون بلا شفقة ولا رأفة لهدم الإسلام، وتقويض بنيانه. لقد فتح أبناء الغرب أعينهم بعد عصور من أساطير الرعب القائمة، حول هؤلاء العرب المسلمين، ليروا ما يخطف أبصارهم، ويبهير أنظارهم من ذلك الأسلوب الحيائي العربي بأناقته وظرافته وبهائه وبهجته، ومن تلك الحضارة المثيرة بغرابتها، المتفوقة على حضارة الغرب آنذاك بكلّ نواحيها“.

• الإبل على بلاط قيصر

وإذا كانت المستشرقة هونكه قد تعرضت في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب» وفي كتابها «الله ليس كذلك» لأوروبا كلّها، فإننا نجدّها في هذا الكتاب «الإبل على بلاط قيصر»، تقتصر على علاقات العرب والألمان، حيث كانت تلك العلاقات، منذ بداياتها الأولى، ذات طبيعة خاصة : فهناك نوع معيّن من التعاطف يميّز تلك العلاقة، إلى حدّ أنها لم تتحول إلى علاقة عدائية، حتى في أثناء الحروب الصليبية، بل إنها كثيراً ما كانت تتسم بالودّ، وتعود تلك العلاقة الخاصة إلى نوع التشابه في شخصية وفلسفة كلا الشعبين، وهو موضوع أثار اهتمام الباحثين منذ وقت بعيد.

وتعتمد هونكه في هذا الكتاب على إجراء مقارنة، تهدف إلى إلقاء الضوء على تلك الصلات الفريدة في نوعها، كما أنها تشير إلى العلاقات الإنسانية المتعددة، والتأثيرات الحضارية المختلفة، التي تمت نتيجة اللقاءات التي جرت منذ عهد شارلمان بين الألمان والعرب، ولقد كانت تلك اللقاءات تمثل قمة حقيقية للتفاعل الحضاري، وتتجاوز بتأثيراتها المتعددة والمثيرة الأمور الظاهرية.

وقد جاء الكتاب في ثمانية أبواب ومقدمة وخاتمة، وثبت بالمراجع والبيانات المبوبة، وبيان بالصور. ولنلق نظرة على محتويات الكتاب بصورة عامة. الباب الأول : لقاءات عربية ألمانية. الباب الثاني : الفروسية العربية والفروسية الألمانية. الباب الثالث : الحروب

الصليبية: صراع بين الغرب والشرق. الباب الرابع : الشهامة العربية والشهامة الألمانية. الباب الخامس: المؤثرات العربية تصنع حياة من نوع جديد. الباب السادس : المؤثرات العربية تصنع أسلوب حياة جديداً. الباب السابع : حوافز فنية عربية. الباب الثامن : الحكمة العربية والألمانية. وبذلك تفتح الكاتبة أمام القراء الألمان طريقاً جديداً لفهم العرب، حيث أصبح هذا الأمر من ضروريات العصر.

• تكريم وتقدير

وهكذا كانت زيجريد هونكه منصفة كل الإنصاف للإسلام، وحضارته في كل ما كتبت من كتب وأبحاث، ولم يمنعها انتماؤها للغرب وحضارته أن تقول كلمة الحق، وتعلو من شأن الإسلام دون محاباة أو تحيز.

حقاً إنها بما وضعت من مؤلفات، وبما طرحت من أفكار، وبما أثبتت من حقائق، أسهمت إسهاماً مقدراً في ترسيخ تقاليد المصالحة، والتفاهم المتبادل بين الشعوب والأديان والثقافات والحضارات، حتى غدت رمزاً وقُدوة وأَمْوْذَجاً، احتذى به العديد من المستشرقين والباحثين في أوروبا وديار الغرب بصفة عامة.

ومن حقها علينا عدم نسيانها، بل من الواجب تذكير الأجيال الجديدة من المثقفين، وتعريفهم بتجربتها الرائدة في التقريب والمصالحة، وترسيخ روح السلام والوئام بين جميع سكان العالم.

ولقد نالت التكريم والتبجيل والتقدير الكبير لجهودها العلمية في كل بلد إسلامي، رحلت إليه، فحصلت على جوائز وأنواط وتتويجات واعترافات كثيرة، كان منها جائزة «كانط»، وجائزة «شيلر». كما نالت أعلى مراتب التكريم خارج ألمانيا وأوروبا، ففي عام 1988م، قلّدها الرئيس المصري، وسام «النجمة الكبرى»، وهو أعلى أوسمة الاستحقاق المصرية، تقديرًا لها على الخدمات الجليلة، التي قدمتها للثقافة العربية والإسلامية، وقد أعربت يومئذ عن امتنانها بإلقاء محاضرة قيمة عن الفكر العربي الإسلامي وأثرهما في الفكر الأوروبي، أمام المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، وكانت محلّ إعجاب الحاضرين. وقد عُينت كأول امرأة، غير مسلمة حينئذٍ، عضواً في المجلس، وأعقب ذلك عشرات الدعوات، التي قدمت لها من رؤساء الدول والملوك والأمراء، ومراكز البحوث والجامعات في أقطار المغرب العربي، وشبه الجزيرة العربية، ومن مختلف أنحاء العالم الإسلامي، لحضور حفلات استقبال أو إلقاء محاضرات أو المشاركة في ندوات.

وقد حقق لها هذا التكريم والاحتفاء غبطةً لم تتحقق لباحثات كثيرات غيرها، عبّرت عنها في إحدى المناسبات بقولها، وهي في حالة انتشاء كامل ”لم أكن في النهاية بحاجة إلى إبراز جواز سفري، فحتى موظفو الجمارك، كانوا قد عرفوني عن طريق الصحف والتلفزيون.. لقد كانوا باستمرار يستقبلونني، ويودّعونني بفرحة ظاهرة“.

وتوفيت هذه المستشرقة النبيلة بمدينة هامبورغ في شهر نوفمبر 1999م عن عمر ناهز 86 عاماً، قضته في البحث عن الحقيقة، ونشر قيم التسامح والتقارب بين الحضارات والثقافات، والإشادة بأثر العرب والمسلمين في تطوّر حركة الفكر والعلم.

الفصل الثالث

من بريطانيا.. المستشرق كارين أرمسترونج

العاشقة المحبة للإسلام ونبيه محمد، ﷺ

تعدّ "كارين أرمسترونج" عالمة الأديان البريطانية، والتي تقيم في الولايات المتحدة الأمريكية، من الأصوات المنصفة للإسلام ونبيه وحضارته في العصر الحديث، فهي واحدة من أهم وأشهر الكتاب والباحثين والمستشرقين، الذين مالوا إلى العقل والإنصاف في نظرهم للشرق الإسلامي ودينه وحضارته، وممن حضروا وكتبوا عن الإسلام والغرب في التاريخ المعاصر، ولا تزال حتى اليوم تجوب البلاد والمدن في الولايات الأمريكية وأوروبا، وتلقى المحاضرات، وتدلي بالأحاديث، وتكتب المقالات دفاعاً عن الإسلام، ودحضاً للاتهامات والمفاهيم المغلوطة عنه وعن نبيه.

كما أنها من أشهر الباحثين اليوم في الأديان ومقارنتها، وقد هالتها الصورة النمطية المشوهة لنبي الإسلام، والتي تربى عليها الغرب منذ الحروب الصليبية، فتعمقت في دراسة الشرق الأوسط، وأديانه وثقافته وتاريخه، وكتبت في ذلك مجموعة من الكتب، تتناول فيها العقائد والأديان الرئيسة (اليهودية، المسيحية، الإسلام)، وتبحث عما هو مشترك بينها، كما تبحث فيها عما يؤثر منها في تاريخ العالم، ويوجه أحداثه. وقد اشتهر ردّها على البابا بنديكت بقوة وانفعال، عندما قالت له: "نحن لا نستطيع تحمل إبقاء هذا الإجحاف القديم ضدّ الإسلام".

ويعتبرها البعض باحثة جريئة، اجتأت على الموروث الصليبي الحقود، الذي أحاط بها في نشأتها، وبخاصة أنها اتجهت إلى الرهبانية في بداية حياتها، والتي تضاعف من جرعة العداء إزاء الآخر بعامة، والإسلام وأهله بخاصة.. في حين يعرفها البعض الآخر بأنها (الراهبة الهاربة) التي تركت حياة الدير، لا لتفقد اهتمامها بالشأن الديني، وإنما لتدلف إليه مرّة أخرى عبر بوابة البحث في مقارنة الأديان، وتصبح واحدة من أهمّ مقدمي سيرة الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، لمجتمعها الغربي، تلك الأهمية التي لا تقتصر على خلفيتها

المعرفية والأكاديمية، ولكن تمتدّ إلى الأسباب التي دفعتها للكتابة عن سيرة الرسول، وعلى رأسها ضرورة "أن تمدّ القارئ الغربي بنظرة واضحة، يحجبها الغموض والخلط الفلكلوري، عن رجل كان نبياً بشراً .. غير من التاريخ الإنساني، ويستمر - حتي هذا اليوم - في العمل كمصدر إلهام لمزيد من الناس"⁽¹⁾.

وهي في لقاءاتها الصحفية تتحدث بصراحة شديدة، فتعترف بشعورها بالعار بسبب الصمت الأوروبي، حيال ما يتعرض له الإسلام والمسلمون من تشويه، وتنصح الحكومات الأوروبية وأمريكا، بالبدء فوراً في حوار جادّ مع المسلمين من أجل فهم الإسلام الحقيقي، بعيداً عما يقدمه الإعلام الغربي من صور مشوهة لذلك الدين العظيم، كما تلقي بالمسؤولية على المسلمين في ضرورة تعريف الغرب بعظمة الدين الإسلامي، عن طريق الفعل، وليس القول فحسب، وتتمنى عبر كتابتها عن سيرة محمد، ﷺ، أن تساعد الغرب في فهمه للدين الإسلامي، الذي تراه ينتشر عبر العالم.

وما يهّمنا هنا، هو أعمالها التي تدلّ على حرصها الصادق على الموضوعية، والإنصاف إلى مدى نادر واستثنائي في الغرب، ولا سيما في الوقت الحاضر، حيث تصاعد مدّ الحقد بعد انهيار العدو الشيوعي، ليحل الإسلام والمسلمون محلّه، عدواً رئيساً بحسب اقتناع الشريحتين المتنافرتين أصلاً في مجتمعات الغرب، وهما: شريحة المتدينين وشريحة اللادينيين!!⁽²⁾.

• البداية والتكوين الفكري

وكارين أرمسترونج كاتبة أكاديمية بريطانية الجنسية من أصل أيرلندي، متخصصة في علم الأديان المقارن، ولدت في 14 نوفمبر 1944م بإنجلترا، لأسرة من أصول إيرلندية، والتحقت بجمعية "يسوع الطفل المقدس" للعمل كراهبة مبتدئة من عام 1962 إلى عام 1969م، ضمن نظام تعليمي، وبعد ذلك تم إرسالها إلى كلية "سانت آن" في جامعة أوكسفورد، حيث درست الأدب الإنجليزي، ثم قرّرت ترك الدير بعد سبع سنوات من الرهبنة، معترفة بأنها لم تستطع أن تفي بمطالب حياة الرهبانية، والتي كانت قد اختارتها .. تلك الحياة التي وصفت ضيقها

(1) داليا يوسف، كارين أرمسترونج : الراهبة الهاربة، موقع وجهات نظر، ديسمبر 2006م، في :

http://www.weghatnazar.com/article/article_details.asp?id=1023&issue_id=70

(2) مهند الخليل، كتاب "محمد" لكارين أرمسترونج : راهبة سابقة تتحرر من أغلالها، موقع السودان الإسلامي، 17 سبتمبر 2012م، في :

http://www.sudansite.net/index.php?option=com_content&view=article&id=4854:qq-----&catid=30&Itemid=147

ومحدودية الخبرات التي تمنحها في كتابها "عبر البوابة الضيقة"، لتكسب بذلك عداء الكثير من البريطانيين الكاثوليك، رغم تصدر كتابها هذا قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في بريطانيا.

وفي عام 1976م، أصبحت معلمة إنجليزية في مدرسة بنات، وذلك حتى تركت التدريس عام 1982م، وبدأت عام 1984م في العمل على تنفيذ سلسلة من الأفلام التسجيلية من ستة أجزاء، عن حياة وأعمال القديس سان باولو، للقناة الرابعة بالمملكة المتحدة، فدفعتها هذه الأفلام إلى البحث من جديد في شؤون الأديان السماوية، وهكذا اطلعت بكثافة على الأديان الإبراهيمية الثلاثة، وهو أمر كانت قد بدأت خلال السنوات السبع التي قضتها في حياة الرهبانية، ولم يقف أثر تجربة الفيلم التسجيلي عند هذا الحد، إذ أن هذا التكليف استلزم سفرها إلى القدس عدّة مرات، وهناك بدأت في الملاحظة وطرح الأسئلة على من تعمل في أوساطهم. وفي القدس سمعت مضيفها من الإسرائيليين، يشيرون إلى العرب والدين الإسلامي بأكثر التعبيرات ازدراءً، فلم تصدق، وهي التي نشأت تستنكر فظائع الهولوكوست، وتساءلت: كيف لأناس عانوا الكثير من الاضطهاد أن يتورطوا في مثل هذا النوع من العنصرية.. وعن هذا تقول: "لقد صدمني أن أسمع الإسرائيليين، لا يدافعون فقط عن قتل الصغار الذين لا حول لهم ولا قوة، بل ويعملون أيضاً على تسويق هذا الأمر"، وتقول: "كل هذا أتى لينبهي إلى أن أرى جانباً آخر من القصة، عبر زيارة مناطق المسلمين في القدس، ومن هنا أدركت أن ثمة شيئاً ما تمّ حذفه عمدًا في أوروبا، وربما في أمريكا أيضاً، وأن الشرق الأوسط والإسلام بحاجة لأن يتم تقديمهما بالشكل الصحيح، بعد أن لطخت المبالغات والتشويهات صفحات تاريخ الكتابة عنهما في الغرب".

وهكذا قررت أن تقرأ في الديانات السماوية من جديد، وتعجبت عندما تمعنّت في الإسلام، حيث وجدته ديناً يستحق الدراسة والتأمل، ويختلف تمام الاختلاف عن الإسلام الذي تقدمه لهم وسائل الإعلام الغربية⁽¹⁾.

وانطلقت بعد ذلك في عالم الكتابة، تركز على مقارنة الأديان، وعندما زارت القدس في 1996م، تفهمت الكثير، فتغيرت مواقفها، وبدأت تعرف الإسلام على غير ما قرأت، وفي ذلك الوقت نشرت كتابها: "القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث" عام 1996م، وكتبت في

(1) إيداد عبد الله، المفكرة والراهبة البريطانية كارين أرمسترونج لـ المدينة: غالبية الأوروبيين لا يفهمون طبيعة الإسلام، جريدة، (المدينة)، جدة، ملحق الرسالة، العدد: 18510، 8 نوفمبر 2013م، في:

الجارديان أنّ معاناة المسلمين في جوانتنامو، وأبو غريب، وفلسطين، أدت إلى تضامن الناس والعدالة، وبسبب انشغالنا بما يسمى بصراع الحضارات، حدث هذا التوتر الداخلي⁽¹⁾.

وكنتيجة لزيارتها للقدس، واجهت أرمسترونج حالة جادة من التساؤل والأرق تقول: "لقد أقلقني أنّ وعياً جديداً بدأ يقوض ما خبرته، ونشأت عليه من ثقافة غربية متسقة، ونظام قيمي ارتبط بتلك الثقافة"، وتضيف: "إننا نقدم مجتمعنا كمجتمع متسامح ورحيم، ومع ذلك فإننا نصدر أحكاماً من مواقع شديدة الجهل وتخلو من العقلانية".

كانت هذه هي الفترة التي بدأت خلالها أرمسترونج في اقتفاء أثر ما وصفته بالحكمة الجديدة، وتعيد البحث في مسائل اليهودية والمسيحية والإسلام، وحتى هذا الوقت كانت مصادرها الروحية والفكرية هي تعاليم الكنيسة، والروافد التقليدية للإعلام والأكاديمية الغربية. وقد أشارت إلى أنّ جميعها تعرض للمسيحية واليهودية في ضوء أفضل، بينما تعطي صوراً سلبية لكل ما يتعلق بما هو عربي أو إسلامي.

ومن هنا جاء تركيز أرمسترونج الأساس على أبناء حضارتها الغربية، لتمدهم بفهم أفضل للإسلام ونيبه، ومن ثم فقد قامت بتمشييط المكتبات، واطلعت على أعمال مدارس مقارنة الأديان، وحضرت الحلقات الدراسية لتعثر على ثروة من الكنوز البحثية، والأعمال المفيدة، إلا أنها لم تجد شيئاً يناسب القارئ العادي، الذي لم ينشأ في ظل الثقافة الإسلامية، ممّا حثّها على التفكير في تقديم جوانب من الدين الإسلامي، وسيرة رسول الله، ﷺ، بصورة تناسب القارئ الغربي العادي.

وكان من ضمن الأحداث التي دفعته للكتابة عن حياة نبي الله محمد، ﷺ، قضية سلمان رشدي، وكتابه "آيات شيطانية"، الذي استقبل بموجات من الغضب من قبل المسلمين، لما اعتبر إساءة إلى رسول الله وآل بيته، وبينما استاءت أرمسترونج من تلك الفتوى، التي أصدرها الإمام الخميني، والتي قضت بإباحة دم سلمان رشدي وناشر كتابه، ولكن في الوقت ذاته، لم يرق لها الطريقة التي تمّ بها التعامل مع قضية سلمان رشدي، ومناقشتها في إنجلترا، فتقول: "هؤلاء الصليبيون الجدد، يدافعون عن الحقّ في حرية التعبير، ولكن من موقع الجهل، لقد احتجوا على حرق آيات شيطانية، كما لو كان المسيحيون لم يشعلوا حريقاً من قبل في كتب اختلفوا مع محتواها، لقد اضطررت أن أسأل أصدقائي، لماذا قوانين الكفر والتجديف لا تطبق - في بريطانيا - إلا فيما يتعلق بالمسيحية فقط".

(1) عبد الرحمن أبو المجد، كارين أرمسترونج : هل هي الأقرب إلى الاعتدال؟!، شبكة الألوكة على الانترنت، 1 يونيو 2010م،

في : <http://www.alukah.net/sharia/0/22282>

ووسط هذه الأجواء من فقدان الوعي والتوتر الفكري، قررت أرمسترونج سنة 1991م أن تكتب سيرة النبي محمد ﷺ، خصيصاً للقارئ الغربي، وقد رأت آنذاك ضرورة وجود توافق أكبر بين التراث المسيحي اليهودي، والدين الإبراهيمي الثالث: الإسلام⁽¹⁾.

• مؤلفات ثرية

ولم تكن سيرة النبي، ﷺ، هي المجال الوحيد الذي كتب فيه تلك الباحثة، بل تميزت بالعديد من الكتب والمؤلفات والأبحاث الثرية، التي جاءت حول الإسلام وتاريخه وحضارته ومقارنة الأديان.

فمن مؤلفاتها "الحرب المقدسة : الحملات الصليبية، وأثرها في العالم اليوم"، عام 1988م، والذي نال شهرة كبيرة، وحقق رقماً قياسياً في المبيعات، وقد ناقشت فيه تاريخ الحروب الصليبية، والصراع في الشرق الأوسط في العصر الحديث. ثم كتاب "محمد ﷺ: سيرة النبي" عام 1991م، و"المسعى 4000 سنة من اليهودية، والمسيحية، والإسلام" عام 1993م، و"القدس: مدينة واحدة وعقائد ثلاث" عام 1996م، و"المعركة لأجل الله: الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام" عام 2000م، و"الإسلام : موجز تاريخي" عام 2000م، و"الإيمان بعد 11 سبتمبر" عام 2002م، و"محمد "صلى الله عليه وسلم" نبي لعصرنا" عام 2006م.

ولها أيضاً : "الكتاب المقدس: سيرة ذاتية" عام 2007م، و"التحول الكبير : بداية من تقاليدنا الدينية" عام 2006م، و"التاريخ القصير للأسطورة" 2005م، و"في البداية : تفسير جديد من سفر التكوين" عام 1996م، و"نهاية الصمت : المرأة والكهنوت" 1993م، و"الصوفيون في اللغة الإنجليزية من القرن الرابع عشر" 1991م، و"ألسنة النار : مختارات من الخبرة الدينية والشعرية" 1985م، و"ابتداء العالم" 1983م، و"المسيحية أولاً : القديس بولس الأثر على المسيحية" 1983م، و"من الباب الضيق" 1982م.

ومن خلال عدد من هذه المؤلفات، أخذت أرمسترونج على عاتقها تصحيح صورة الإسلام، وتقديم الصورة الحقيقية لبنينا الكريم للغربيين، فقد ترسخ في الثقافة الغربية تاريخ طويل من الرعب من الإسلام (الإسلاموفوبيا)، يرجع لأيام الحروب الصليبية، وانتشر

(1) داليا يوسف، كارين أرمسترونج : الراهبة الهاربة، مرجع سابق.

في الأوساط المسيحية لأوروبا خلال القرن الثاني عشر، بفعل الرهبان أنَّ محمداً ﷺ كان دجلاً فرض دينه على الناس الرافضين بقوة السلاح، وكانوا يسمونه بأبشع الأسماء، ويعتونه بأقبح الصفات وأحطها... ومنذ أحداث 11 سبتمبر 2001م، والهجوم متواصل عبر أطراف متعددة، اعتبرت النبي محمداً ﷺ إرهابياً ومدمن حرب، حتى أصبحت هذه الصورة المشوهة، صوراً نمطية مقبولة لدى الغرب.

وأمام هذه الحالة، ترى أرمسترونغ أنَّ محمداً ﷺ لم يكن قطَّ رجل عنف، بل إنه نموذج لهداية العالم في زماننا، وتقترح للوصول إلى هذه النتيجة "أن نقارب حياته بطريقة معتدلة، حتى نستطيع تقدير إنجازاته المعتبرة"، تلك الحياة التي كانت حملة لا تكلُّ ضدَّ الطمع والظلم والتكبر، كان اهتمامه الأكبر تغيير قلوب الناس وعقولهم، ولم يحاول فرض معتقد ديني.

وهذه الفكرة تنتصر لها أرمسترونغ من خلال معالجة قضايا : الدعوة المكية، والجاهلية، والهجرة، والجهاد، والسلام، وتنبع أهمية الدراسات التي تكتبها من أهمية كتاباتها التي تعرف رواجاً لافتاً بالغرب، وبخاصة بريطانيا وأمريكا، كما أنَّ موقفها من النبي ﷺ، ومن دين الإسلام، يكاد يكون متميزاً في زمن عُرف بالنيل من شخصية الرسول الكريم ﷺ، ومن شريعة الإسلام.

• كتاب محمد...سيرة النبي

وعندما نقف مع بعض مؤلفاتها حول الإسلام ونبيه، ﷺ، نجد كتابها "محمد...سيرة النبي" الذي يعدُّ واحداً من أهمِّ الكتب، فقد أحدثت صدى واسعاً وراج رواجاً كبيراً عند صدوره عام 1992م، كأحدث الكتب الاستشرافية التي أرخت للسيرة النبوية، وأعيدت طباعته عدَّة مرات، وبلغت مبيعاته في الولايات المتحدة وحدها في الشهر التالي لتفجيرات نيويورك (11 سبتمبر عام 2001م) ربع مليون نسخة. وقد قام بترجمته إلى العربية د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، كما ترجمه محمد الجورا بعنوان آخر هو: "الإسلام في مرآة الغرب.. محاولة جديدة في فهم الإسلام".

والكتاب دراسة قامت بها الكاتبة ونشرتها إبان موجة الكراهية والعداء للمسلمين والإسلام، التي انفجرت في الغرب بعد نشر كتاب سلمان رشدي "آيات شيطانية"،.. وقد اتخذت من ردود فعل المسلمين الغاضبة إزاءه، ومن ترحيب الغرب المبالغ فيه بالكتاب

الشيطاني، وازدرائه لمشاعر المسلمين، منطلقاً لكتابها عن النبي محمد ﷺ.. فهي تثبت فيه بالأدلة القاطعة والبراهين الواضحة، أنَّ أسباب الحقد والكراهية والعنف الذي يسود الساحة الدولية ترجع إلى الهيمنة الغربية على الشعوب والأفراد.. وأنَّ تلك الأحقاد ترجع أساساً إلى المفاهيم المغلوطة، التي تروجها العناصر المغرضة، التي تستهدف تعميق الفرقة، وإحداث القطيعة بين الإسلام والغرب.

وتؤكد الباحثة في هذا الكتاب أنَّ الإسلام هو دين السلم والتسامح، وتنفي عن الرسول ﷺ الاتهامات التي توجه إليه من قبل المتعصبين العنصريين في الغرب، أمثال الكاتب البريطاني سلمان رشدي، والمستشرق الصهيوني برنارد لويس، ومارتين كرامر وغيرهم... كما تبرز عبقرية النبي محمد ﷺ، فهي ترى رسول الله ﷺ رجلاً تربى يتيماً، وعاش كسائر البشر إنساناً بسيطاً متواضعاً آمن برسائله، وأخلص لها، واتبع طريق الحق، ثم غادر الحياة الدنيا في هدوء، بعد أن حقق إعجازاً بشرياً غير مسبوق.. ولم يمت في ساحة القتال أو في مقعد الملك وأبهة الأباطرة، وظلَّ بعد وفاته يعيش في وجدان الإنساني بما جاء به من تعاليم سامية، أرسى قواعد السلام والوفاق والعدل الإنساني، وحققت الخير للبشرية.

والكتاب موجّه بصفة رئيسة إلى القارئ الغربي، وليس إلى القارئ العربي المسلم.. ولكن ترجع أهميته لنا إلى أن رؤية الكاتبة فيه، تبرهن على أنَّ الكاتب لكي يُقنع فعليه أولاً أن يقتنع.. وهو لن يقتنع إلا إذا واثته فرصة الرؤية الموضوعية.. ولن تتأني الرؤية الموضوعية إلا إذا خلص الإنسان نفسه من المسلمات، والتحيزات، والأفكار المسبقة، وجرد نفسه من روااسب التنشئة، وعوائق اللاوعي الفردي والجماعي⁽¹⁾.

وهذا الكتاب بمثابة تجلية علمية لعوامل كراهية قومها للدين الإسلامي، لأنه لم يحدث - قبل ظهور الاتحاد السوفيتي في القرن الميلادي الماضي - أن واجه الغرب تحدياً مستمراً يوازي التحدي الذي واجهه من الإسلام والمسلمين.

ولا ينسى الغربيون، أنه عندما نشأت الدولة الإسلامية قبل خمسة عشر قرناً، كانت أوروبا ما تزال منطقة متخلفة، وقد امتدت الفتوحات الإسلامية بسرعة إلى معظم بقاع العالم النصراني في المشرق الأوسط والمغرب، ثم كان الفشل الذريع صفقة مؤلمة للمشروع

(1) الحبيب في عيون المستشرقين المنصفين: كارين آرمسترونج، موقع محمد النبي على شبكة الانترنت، في :

<http://www.mohamedalnabi.com/oyoonmostskrken/20.html>

الصليبي، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، لتفاجأ أوروبا بعد ذلك بدخول الإسلام إلى قلبها، من بوابة أخرى على يدّ العثمانيين.

لذلك ترى الكاتبة، أنه تعذر على الغربيين بسبب مرارة الخوف والهزيمة، أن يلتزموا بالعقلانية أو الموضوعية إزاء العقيدة الإسلامية، ولذلك رسموا للإسلام صورة مشوهة، تعكس بواعث قلقهم الدفينة. وقد ازدادت المشكلة تعقيداً في العصر الحديث، حيث بدأ المسلمون - للمرة الأولى في تاريخهم - في إضمار كراهية قوية للغرب، كنتيجة منطقية لسلوك الأوروبيين والأمريكيين في العالم الإسلامي في فترات الاحتلال المخزية.

وتمضي أرمسترونج في تمييزها الحصيف بين الإسلام، وبعض ممارسات بعض المنتسبين إليه، وتضرب لذلك بعض الشواهد، منها احتجاز الشيعة في لبنان رهائن غربيين، حيث يشعر الناس في أمريكا والغرب بالنفور من الإسلام نفسه، دون أن يدركوا أنّ هذا السلوك مخالف لنصوص وتشريعات مهمة في القرآن، عن أخذ الأسرى المقاتلين وحسن معاملتهم. ولكن أجهزة الإعلام والصحافة لا توفر للأسف المعلومات الصحيحة. ومثال صارخ آخر يتمثل في التغطية الإعلامية الغربية غير الموضوعية لفتوى الخميني بقتل سلمان رشدي، فقد تجاهل الإعلام الغربي الأغلبية التي عارضت الفتوى في العالم الإسلامي، ولا سيما أنّ كبار العلماء في السعودية وشيوخ الأزهر في القاهرة، عارضوا الفتوى قائلين، إنها غير شرعية، فالشريعة الإسلامية لا تسمح بالحكم بالإعدام على أحد دون محاكمة، ولا تمتد سلطتها القضائية إلى خارج العالم الإسلامي، وفي مارس 1989م عُقد مؤتمّر إسلامي أعلنت فيه أربع وأربعون دولة من بين خمس وأربعين دولة رفضها فتوى الخميني.

إنّ روح الإنصاف التي تتجلى بقوة في كتابات أرمسترونج، هي التي دفعتها إلى دعوة قومها مرات ومرات إلى الإطلاع على الإسلام، في مصادره الأصلية، بعيداً عن الأحكام الجاهزة، ومحاورة المسلمين بعقلانية واحترام⁽¹⁾.

والكتاب في مجمله محاولة من الباحثة لإنصاف الإسلام وحضارته، وبيان حقيقته للغربيين، الذين تعرضوا لمحملات فكرية دعائية، استهدفت تشويه الإسلام في أذهانهم⁽²⁾.

(1) مهند الخليل، كتاب "محمد" لكارين أرمسترونج : راهبة سابقة تتحرر من أغلالها، مرجع سابق.

(2) محمد مسعد ياقوت، الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية، (جدة: دار الخراز)، ص 165، منشور في موقع:

نبي الرحمة، الرابط التالي : WWW.nabiallahma.com

• محمد رجل الله

ولنا أن نقطف بعضاً مما ورد في هذا الكتاب، لنقف على قدر النزاهة والإنصاف الذي تميزت به هذه المستشرق، وهي تدرس سيرة النبي ﷺ، تقول في الفصل الثاني من كتابها :

”كان لدى محمد ﷺ مواهب روحانية وسياسية عظيمة - رغم الصعوبة العملية في الجمع بين الجانبين معاً - كما أنه كان مقتنعاً أنّ على كل الأفراد المتدينين مسؤولية إقامة مجتمع خير عادل.. وبينما كان يملك محمداً أحياناً الغضب، فإنه كان أيضاً رءوفاً شديد التأثير، وعلى قدر هائل من التعاطف.. لم نقرأ أبداً أن المسيح قد ضحك، لكننا كثيراً ما نجد محمداً يبتسم، ويداعب المقربين منه، نراه أيضاً يلعب الأطفال، ويختلف مع زوجاته، ويبكي بحرقه لوفاة أحد أصحابه، فنحن إن استطعنا النظر إلى محمد كما ننظر إلى الشخصيات التاريخية العظيمة الأخرى، فمن المؤكد أننا سنراه أحد أعظم العباقرة الذين عرفهم التاريخ.. فلأن يأتي برائعة أدبية، ويؤسس ديانة عظيمة، وقوة عالمية جديدة، فتلك إنجازات غير عادية.. ولكي نوفي عبقريته حقها، فإن علينا دراسة المجتمع الذي ولد فيه، والقوى التي صارعها..“⁽¹⁾.

وتحت عنوان ”محمد رجل الله“ تقول في الفصل نفسه : ”كان محمد ﷺ يتمتع بموهبة سياسية رفيعة القدر، إذ تمكن من تغيير أحوال أمته تغييراً شاملاً، وأنقذهم من العنف غير المجدي ومن التحلل، ومنحهم هوية جديدة يزهون بها، وبهذا أصبحوا على استعداد لتأسيس حضارتهم المتفردة، ولقد أطلقت تعاليم محمد ﷺ مخزون قوة العرب لدرجة أنهم وفي خلال مائة عام امتدت إمبراطوريتهم من جبل طارق إلى الهيمالايا. وعليه فإن كان هذا النصر السياسي هو الإنجاز الوحيد لمحمد ﷺ، فمن حقّه علينا أن يحوز إعجابنا، لكن نجاح محمد ﷺ اعتمد على الرؤية الدينية التي نقلها للعرب، والتي اعتنقتها بدورها الرعية من شعوب الإمبراطورية، وذلك لأنها لبث حاجة روحانية لديها.

غير أنّ محمداً ﷺ والمسلمين الأوائل، لم يحققوا انتصاراتهم بسهولة، كما يحلو للبعض أن يتخيل، ولكنهم اشتبكوا في معارك شرسة يائسة، ولولا أنّ الاعتبار الأول للنبي ورفاقه المقربين، كان للدين ما كتب لهم البقاء. وخلال تلك السنوات الخطرة كان محمد ﷺ

(1) كارين أرمسترونج، سيرة النبي محمد، ترجمة: د.فاطمة نصر ود.محمد عناني (القاهرة: دار سطور، ط2، 1998م)، ص 81.

مؤمناً بالوحي المباشر الآتي من الله، لكنه كان عليه أيضاً، أن يوظف كل ملكاته الطبيعية، أمّا المسلمون فقد كانوا يدركون القدرات غير العادية لمحمد ﷺ، ويعون أيضاً أنه قد غير مجرى التاريخ⁽¹⁾.

ثم تنتقل الكاتبة للتعليق على منهج المؤرخين المسلمين في كتابة سيرة رسول الله ﷺ، مقارنة بمنهج المؤرخين الغربيين في تناولهم لسيرة المسيح (عليه السلام)، وتاريخ المسيحية، فنجد رأيها منصفاً غاية الإنصاف، تقول :

«هؤلاء المؤرخون (المسلمون)، لم يعتمدوا ببساطة على أفكارهم الخاصة، بل نجدهم يُصنمون سردهم للأحداث وثائق مبكرة، ويتبعون الروايات الشفهية إلى مصادرها الأصلية، ورغم تبجيلهم لمحمد ﷺ فإن كتاباتهم عنه ليست سيراً من سير القديسين غير النقدية».

«ف نجد ابن سعد وابن اسحاق يوردان أحداثاً غير مدهنة للرسول ﷺ، وخاصة أنهم قد سجلوا كل ما قالته عائشة، التي كانت تمتاز بالصراحة والجرأة والأمانة، ومن تلك السيرة والتي تتميز بثقتها في طبيعة الشخصية، التي يؤرخ لها، (تقصد شخصية النبي عليه الصلاة والسلام) بالقدر الذي لا يحتاج كاتبوها معها للإغراق في عمليات لتبييضها، يخرج القارئ بصورة واقعية مفحمة عن ذلك الإنسان غير العادي».

«ومن الطبيعي القول بأن هؤلاء المؤرخين، لم يكتبوا بنفس الأسلوب الذي يتبعه المؤرخون الغربيون المحدثون، الذين نراهم كثيراً ما يوردون أقصوصات، يُصَفُون عليها طابع الإعجاز، والتي يمكن لنا الآن تفسيرها تفسيراً مختلفاً، لكن هؤلاء المؤرخين (المسلمين) نجدهم يعون طبيعة مادتهم المعقدة، وأيضاً يعون الطبيعة المراوغة للحقيقة»⁽²⁾.

ثم تقول : «إن السرد الإنجيلي، يختلف تماماً عن السير التي كتبها المؤرخون العرب، فقد عُنِيَ كتاب الأنجيل بالمغزى الديني لحياة المسيح، أكثر من عنايتهم بسرد الوقائع التاريخية، وتعتبر تلك الكتابات غالباً عن احتياجات واهتمامات وعقائد الكنائس الأولى، أكثر من تركيزها على سرد وقائع الأحداث الأصلية. فمثلاً يشير الدارسون المحدثون

(1) المرجع السابق، ص 73.

(2) المرجع السابق، ص 73 - 74.

للعهد الجديد إلى أنَّ السرد الإنجيلي، لوقائع عذابات المسيح وموته مشوش تشويشاً تاماً، وأنَّ تلك الوقائع قد تمَّ تغييرها... أما أقوال المسيح فلم يسجل منها إلاَّ أقلُّ القليل“ (1).

• أخلاق نبوية

وفي الفصل التاسع تقول عن الرسول ﷺ : الواقع أنَّ محمداً ﷺ قدم نموذجاً رفيعاً للتآخي في سلوكه الشخصي، فالرجل الذي كان أعداؤه يزدادون فرقاً منه ووجلاً، كان يحظى بحبِّ عميق بين أفراد الأمة، والتي كانت رغم الخطر الدائم الذي تواجهه، تمثل مجتمعاً ينعم بسعادة غامرة.

كان محمد ﷺ يرفض أن يقيم فجوة من الاعتبارات الشكلية أو الرسمية بينه وبين غيره من المسلمين، وكان يكره أن يخاطبه أحد بألقاب التشريف الطنانة، وكثيراً ما كان يشاهد وهو جالس على سجيته، ودون تكلف على الأرض في المسجد، وكثيراً ما كان يختار أن يجالس أفقر أفراد المجتمع.

وكان يحظى بحبِّ الأطفال بصفة خاصة، فكان دائماً ما يحملهم بين يديه ويعانقهم ويقبلهم، وعندما كان يخرج في إحدى الغزوات، كان من عادة الأطفال أن يخرجوا لاستقباله عند عودة قوة الغزو، فكانوا يسيرون أمامه في موكب النصر، حتى يصل إلى الواحة، وكان إذا سمع طفلاً يبكي في المسجد أثناء صلاة الجمعة، كثيراً ما يُنهي الصلاة قبل الموعد المفترض انتهاءها فيه، لأنه لم يكن يطيق أن يتصور الحزن الذي تكابده أم الطفل، وإذا كانت القوانين (الأحكام) التي جاء بها القرآن تبدو بالغة الصرامة لنا اليوم، فقد كان المعروف عن النبي ﷺ نفسه أنه رحيم لين الجانب“ (2).

ثم تقول : ”لقد دأبنا في الغرب على مرِّ القرون، أن نتصور محمداً ﷺ في صورة الرجل الجهم، والمحارب القاسي والسياسي البارد، ولكنه كان - على العكس من ذلك - رجلاً يتميز بأقصى درجات الشفقة ورقة المشاعر، فكان على سبيل المثال، مُحبباً للحيوان، إذا رأى قطرة نائمة على بردته تركها، وكره أن يُقلقها، وقد قيل إنَّ أحد معايير تقدم المجتمع، هو موقفه من الحيوان، وجميع الأديان تحث الناس على حبِّ العالم الطبيعي واحترامه، وكان محمد ﷺ يحاول تعليم المسلمين هذا السلوك، كان العرب في الجاهلية يعاملون الحيوان

(1) المرجع السابق، ص 80.

(2) المرجع السابق، ص 341-342.

معاملة بالغة القسوة، فكانوا مثلاً يقطعون قطعاً من لحمها ويأكلونها، وهي ما تزال حية، ويضعون قلائد مؤلمة حول أعناق الإبل، وقد حظر محمد ﷺ وصم الحيوانات وصماً يتسبب في إيلاهم، وحظر تنظيم مسابقات اقتتال الحيوان، وجاء في الأثر، أنه قال : إنّ رجلاً سقى كلباً يعاني من العطش فدخل الجنة، وإنّ امرأة حبست قطتها فماتت جوعاً فدخلت فيها النار. وهذه الأحاديث التي وصلت إلينا، تدلّ على مدى الأهمية التي اكتسبتها تلك القيم في العالم الإسلامي، ومدى السرعة التي تقدم بها المجتمع، نحو رؤية، تتميز بمزيد من التراحم الإنساني والتعاطف والشفقة⁽¹⁾.

• الإسلام دين واقعي

وفي الفصل العاشر والأخير كتبت تحت عنوانه ” وفاة الرسول“، تقول: ”لقد كان الإسلام دائماً ديناً واقعياً وعملياً، يرى أنّ الذكاء الإنساني والإحياء الإلهي يعملان جنباً إلى جنب في توافق، وفي عام 632م بدا وكأنّ إرادة الله على وشك التحقق في بلاد العرب، وخلافاً لأنبياء كثيرين سابقين، فإنّ محمداً ﷺ لم يأت فقط برؤية أمل جديدة للأفراد من الرجال والنساء، لكنه أيضاً اضطلع بمهمة خلاص المجتمع الإنساني وإقامة مجتمع عادل، يُمكن البشر من الرجال والنساء من تحقيق إمكانياتهم الفعلية، وأصبح للانتصار السياسي منزلة تشابه منزلة القربان المقدس عند المسيحيين، فقد كان آية للحضور الإلهي غير المرئي وسطهم. وهكذا فقد كان على النشاطات السياسية أن تستقر كمسؤولية مقدسة، وأصبح النجاح اللاحق للإمبراطورية الإسلامية آية على أنه، بالإمكان خلاص البشرية جمعاء. وبدلاً من أن يتجول بطريقة لا دنيوية بين تلال الجليل مبشراً وشافياً، كما فعل المسيح في تصوير الكتاب المقدس له، كان على محمد ﷺ أن يشتبك في جهد سياسي شاق لإصلاح المجتمع، كما كان على تابعيه أن يتعهدوا بمواصلة النضال.. وبدلاً من تكريس الجميع جهودهم لإعادة بناء حياتهم الشخصية الخاصة في سياق السلم الروماني القائم، كما فعل المسيحيون الأوائل، اضطلع محمد وصحابته بمهمة تجديد مجتمعهم، الأمر الذي بدونه لم يكن ليتحقق أي تقدم أخلاقي أو روحي“⁽²⁾.

ثم تقول الكاتبة: ”وبعد وفاة محمد ﷺ كان النجاح المستمر للمشروع الإسلامي مبرراً للجهد السياسي، وغداً برهاناً على الاعتقاد في أنّ إعادة تنظيم المجتمع وفقاً لمشئته

(1) المرجع السابق، ص 343.

(2) المرجع السابق، ص 371-372.

اللَّهُ، تؤدي إلى سيادته، فما لبثت الجيوش العربية أن أسست إمبراطورية، امتدت من جبال الهملايا حتى جبال البرانس... وبعد حوالي مائة عام من وفاة الرسول ﷺ، بدأ الخلفاء في تشجيع اعتناق الآخرين للإسلام، وبدأوا يدخلونه أفواجا، مما يرهن على أن القرآن أجاب احتياجات القوم الدينية في الشرق الأوسط، وشمال إفريقيا، كما برهن أيضاً على أن الإسلام أمكنه استيعاب حكمة الحضارات القديمة الأخرى، وسرعان ما أقام إرثه الحضاري المتميز⁽¹⁾.

”وهكذا يعتبر محمد ﷺ على المستوى الرمزي، الإنسان الكامل أو النموذج الإنساني الأمثل، وصورة التلقي الكامل لله، ومن هنا تأتي الأهمية التخيلية للاعتقاد في أمية محمد ﷺ، لأنها تبين انفتاحه الكامل على الكلمة الإلهية، وكذلك ينظر لمرحلة الإسراء على أنها المثل الكامل للفناء في الله، الذي يتحدث عنه المتصوفون“⁽²⁾.

ثم تختتم الباحثة كتابها بهذه الكلمات : ”هذا وإن كان المسلمون اليوم بحاجة إلى فهم الموروثات، والمؤسسات الغربية بدقة أكثر، فإننا في الغرب بحاجة أن نخلص أنفسنا من بعض أحقادنا القديمة، ولعلّ شخص محمد ﷺ يكون مناسباً للبدء، فقد كان رجلاً متدفق المشاعر، ذا شخصية قوية، وقد أتى ببعض الأفعال التي نجد صعوبة في تقبلها، لأنه كان ذا عبقرية تستعصي على الإدراك، وقد أسس ديناً وموروثاً حضارياً، لم يكن السيف دعامته، كما تزعم الأسطورة الغربية، وديناً اسمه الإسلام، ذلك اللفظ ذو الدلالة على السلام والوفاق“⁽³⁾.

• حرب باردة ضد الإسلام

ولاشك أن هذا الكتاب يكتسب أهميته من التوقيت الذي صدر فيه، فقد جاء في وقت يتعرض فيه الإسلام لأخطر الحروب الباردة، وهذا ما عبرت عنه المؤلفة بقولها : ”يبدو أن حرباً باردة ضد الإسلام توشك أن تحل محل الحرب الباردة التي كانت ضد الاتحاد السوفيتي“.

وهو كتاب لا يقتصر فقط على إنصاف نبي الإسلام ﷺ، بل ربما يزداد منه المسلم العادي معرفة بدينه، فقد استعرضت فيه تاريخ العداء الغربي للإسلام ورسوله في العصور الوسطى، بسبب دوافع سياسية، حيث رسم الغرب صورة خيالية لمحمد ﷺ، أو

(1) المرجع السابق، ص 384.

(2) المرجع السابق، ص 388.

(3) المرجع السابق، ص 393.

”مهاوند“، ووضعوا فيه وفي الإسلام كل ما يكرهون، ثم تمثلت في رواية ”آيات شيطانية“ ”لسلمان رشدي، كل تلك الملامح البذيئة عن النبي، وأدت الفتوى بقتل سلمان رشدي إلى استرجاع تلك الصورة القديمة، للذهنية الأوروبية، خصوصاً بعد تفجر المذابح الإرهابية الأصولية، وهذا ما دفع كارين آرمسترونج إلى تأليف هذا الكتاب الرائع، كي تؤكد كما جاء في نهاية الكتاب، حاجة الغرب ليتخلص من أحقاده القديمة، وليقترب أكثر من فهم شخصية محمد ﷺ، الذي ”كان ذا عبقرية تستعصي على الإدراك، وقد أسس ديناً وموروثاً حضارياً لم يكن السيف دعامته، وديناً اسمه الإسلام الذي يعني السلام والوفاق“⁽¹⁾.

ومن خلال فصول الكتاب يتضح لنا، أنَّ المؤلفة قد اعتمدت في فهم الإسلام والسيرة النبوية على القرآن الكريم، والمصادر التاريخية القديمة، كابن هشام وابن سعد والطبري، وربطت النصوص القرآنية والتراثية بأحوال الجزيرة العربية، وعقدت مقارنات بينها وبين التراث المسيحي واليهودي، وذلك في إطار محاولاتها لتقريب الصورة الإنسانية للنبي محمد ﷺ من العقل الغربي، ولتصحيح مفاهيم الغرب.

وأشارت إلى عقلانية الإسلام التي لم ينشأ عنها صراع بين البحث العلمي والمرجعية الدينية، بمثل ما حدث في أوروبا، كما ساعدت هذه العقلانية على إقامة تراث علمي بين المسلمين، تأثرت به أوروبا في العصور الوسطى، برغم كراهيتها للإسلام والمسلمين.

وأشادت المؤلفة ببعض الحقائق الإسلامية التي يجهلها الغرب، مثل حقوق المرأة ومساواتها بالرجل، وعدالة الإسلام الإنسانية والاقتصادية، ودافعت عن الإسلام والرسول في موضوعات أساء الغرب فهمها، مثل تعدد الزوجات للنبي والمسلمين، والجهاد والقتال في الإسلام، كما دافعت عن الإسلام والنبي في بعض الألغام التي وردت في التراث، مثل روايات قتل أسرى من بني قريظة، وزواج النبي بزینب بنت جحش، وشككت في رواية الغرانيق، التي اعتمدت عليها رواية ”آيات شيطانية“ لسلمان رشدي.

بل هناك أكثر من ذلك، إذ أنها برؤية عقلانية، فهمت من القرآن حقائق إسلامية، لاتزال غائبة عن أكثرية المسلمين، مثل أنَّ معنى الإسلام هو الاستسلام لله وحده، والاكتفاء بالله تعالى رباً، حيث كانت الجاهلية تعرف الله، ولكن تتخذ معه الأولياء والأرباب.

(1) المرجع السابق، ص 5.

وقد تناثرت بين كتابها عبارات التقدير والتبجيل للنبي محمد ﷺ، فتعتبره أعظم العباقرة في التاريخ، إذ جمع العرب على عقيدة التوحيد في (23) سنة، بينما استغرق ذلك من أنبياء بني إسرائيل سبعمائة عام، وكان مثلاً للتآخي والرفقة والشفقة، ولم يكتف بالدعوة، وإرساء أمل جديد، بل جاهد لإقامة مجتمع عادل، وحقّق في نهاية حياته ذلك الإعجاز، إذ قضى على العنف القبلي والوثنية، وجعل العرب مستعدين لبدء مرحلة العالمية⁽¹⁾.

• محمد ﷺ، نبي زماننا

وأما الكتاب الثاني للمستشفة كارين أرمسترونغ، والذي لا يقل أهمية عن كتابها "محمد.. سيرة النبي"، فقد صدر عام 2006م تحت عنوان Muhammad Prophet for Our Time، وباللغة العربية: "محمد ﷺ" نبي لعصرنا، أو "محمد ﷺ، نبي زماننا"، كما جاء على غلاف الترجمة العربية لفاتن الزباني، وتوضح كارين بأنّ هذا الكتاب، الذي جاء بعد مرور خمس عشرة سنة على الكتاب الأول، جديد ومختلف كلية، ذلك أنّ كتابها الأول لم يعد يفي بالغرض بعد هجمات 11 سبتمبر، حيث دعت الحاجة، في نظرها، إلى التركيز على جوانب أخرى من حياة محمد ﷺ، لأنّ هذه الأحداث زادت من العداء للإسلام ونبيه.

وهذا الكتاب لم يكتب مثله في عصره، حيث نجح في إحداث صدى إيجابي واسع بين مثقفي الغرب عامة، لتكتمل الرؤية، حول مكانة هذه الباحثة وعملها، كما نجح في توضيح بضعة جوانب من عظمة النبي ﷺ الإنسانية، لمن يحاولون أن يجردوه من إنسانيته.

فعندما جاءت عاصفة الرسوم الهوجاء المسيئة للرسول في الصحف الدنمركية، ثم جددت تصريحات بابا الفاتيكان بندكت السادس عشر الإساءة إلى الرسول، واجتاحت ثورة الغضب العالم الإسلامي مرّة أخرى، بسبب هذه الإساءات الشيطانية ضدّ خير البرية، ﷺ، وفي خضم تلك العواصف الهوجاء وهذه الأجواء المظلمة، ينبثق شعاع مضيء من قلب هذه الغوغاء مصحوباً بصوت يدوي في أرجاء المكان، ويضرب في أعماق الزمان: إرفعوا أيديكم وكفّوا ألسنتكم عن محمد، فنحن بحاجة إليه، وكان هذا الشعاع هو كتاب "محمد نبي زماننا" وكان هذا الصوت هو صوت كارين أرمسترونج، صوت الحق الذي علم بواطن السيرة النبوية وسر أغوارها.

(1) منيرة حسين، كارين أرمسترونج تدافع عن النبي محمد ﷺ، موقع أهل القرآن، 9 يناير 2009م، في:

http://www.ahl-alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=4722

والكتاب يضمّ خمسة فصول : الفصل الأول عن مكة المكرمة، والثاني عن عصر الجاهلية، والثالث عن الهجرة النبوية، والرابع حول الجهاد في الإسلام، والخامس عن السلام في الإسلام.

وقد استطاعت المؤلفة عبر فصول الكتاب، أن تقدّم رؤيتها تجاه النبيّ الخاتم، ومدى احتياج البشرية لرسالته الربانية، وتعاليمه الإنسانية، لإنقاذ العالم من مهالك الحروب التي أحرقت الملايين، وأوشكت أن تهلك الآخرين.

فهي ترى أنّ كلمة الجهاد، لا تعني الجهاد المقدس، وإنما تعني الكفاح لجلب السلام إلى بلاد العرب، التي مزقتها الحرب، وذكرت أنّ محمداً ﷺ كان يمتلك عبقرية عميقة، مكنته من إقامة الدين بوحى من ربّه، وتأسيس عادات وتقاليد ثقافية، لم تستند إلى السيف، ولكن بنيت على السلام والمصالحة المبيّنة. وتمنت الكاتبة أن يوجد في هذا الزمان رجال يعملون مثل أعمال محمد، ولذلك كان عنوان كتابها "محمد نبي لزماننا" ⁽¹⁾.

• مصطلح اجتماعي عالمي

والواضح في هذا الكتاب، أنّ الكاتبة مبهورة بشخصية النبي محمد، صلي الله عليه وسلم، كمصطلح اجتماعي عالمي استطاع أن يصنع السلام، وأن يجمع الفرقاء العرب والعجم في سلة واحدة، وهذا الجمع والتوحيد، تمّ بعد مستحكم العدوات التي شاعت بين بني البشر عموماً، وبين العرب بصفة خاصة، ومن هنا ترى الكاتبة أنّ القرن الذي نعيشه، بما يعتره من اضطرابات وقلقل، أحوج ما يكون إلى محمد، ﷺ، ليحقق للبشرية سكينتها وائتلافها.

لقد تمّنت أرمسترونج عبر كتابتها عن سيرة محمد، ﷺ، أن تساعد الغرب في فهمه للدين، فرغم أنها تؤمن بأنّ الديانات التوحيدية الثلاث، تحمل رسالة واحدة، غايتها ووسيلتها الحب والعدالة والسعادة للإنسان، هنا على الأرض، إلا أنّ الدين، من وجهة نظرها، أصبح منطقاً متخذاً لأكثر الصراعات والعدوات، والحروب الدموية في العالم، وقد لاحظت أنّ الإسلام مستهدف بالكرهية بصورة خاصة، فعندما ظهر كتاب "آيات شيطانية" رحّب به الغرب جداً بعد ردود فعل المسلمين إزاء الكتاب، وتعلق به المجتمع الغربي، رغم ازدرائه لمشاعر المسلمين، وهذا ما دفعها إلى الخروج من الدير، لتبحث عن سرّ هذه الكراهية للإسلام.

(1) دبشير محمود رزق، شاهدة من أهلهم، جريدة الأهرام، 6 مارس 2007م، وفي موقع ديدات، الرابط التالي:

<http://deedat.wordpress.com/2007/03/06/%D9%83%D8%A7%D8%B1%D9%>

وهي تري أنَّ هدف الإسلام هو بناء مجتمع عادل، ومحمد هو أول من أقام البناء، فقد فهم المسلمون أنَّ القرآن كلفهم برسالة، هي بناء مجتمع عادل وكریم، يعامل كل فرد باحترام، لذلك كان الصلاح السياسي للمجتمع المسلم، وما زال أمراً ذا أهمية عالية، تقول: ”جسدت حياة النبي، ﷺ، المثالية الإسلامية قديماً وحديثاً، حيث تكشف سيرته ما غمض من تدبير الله لشؤون العالم، والذي يجب على كل إنسان مسلم السعي لتحقيقه“ (1).

ثم تقول : ”في شخصية محمد، ﷺ، دروس مهمة، ليس فقط للمسلمين ولكن أيضاً للغربيين، حيث كانت حياته كلها جهاداً، وكلمة الجهاد لا تعني الحرب المقدسة، ولكنها تعني كفاحاً، فقد كدح محمد، ﷺ - بكل معاني الكلمة - ليجلب السلام على العرب، الذين مزقتهم الحروب، ونحن نحتاج لمن هم مستعدون لعمل ذلك اليوم، كانت حياته حملة لا تكل ضد الطمع والظلم والتكبر، لقد أدرك أنَّ العرب في مفترق طرق، وأن طريقة التفكير السابقة لم تعد تنفع، لذلك بذل نفسه في جهاد مبتكر لينشئ حلاً جديداً تماماً، لكل المشكلات البشرية“ (2).

• الافتراء منبعه مسيحي

وتعترف الكاتبة بجرأة فتقول : ”لدينا في الثقافة الغربية تاريخ طويل من الرعب من الإسلام (إسلاموفوبيا)، يرجع لأيام الصليبيين، فقد صمم رهبان مسيحيون من أوروبا في القرن الثاني عشر، على أنَّ الإسلام دين عنف انتشر بالسيف، وأنَّ محمداً، ﷺ، كان دجالاً فرض دينه على العالم الرافض بقوة السلاح، وكانوا يسمونه فاسقاً ومنحرفاً جنسياً، أصبحت هذه القصة المشوهة عن حياة النبي، ﷺ، واحدة من الصور النمطية المقبولة في الغرب، وكان من الصعب على الغربيين رؤية محمد، ﷺ، في ضوء أكثر موضوعية، ومنذ تدمير مبنى التجارة العالمي في 11 سبتمبر 2001، استمر أعضاء من اليمين المسيحي في الولايات المتحدة، وبعض قطاعات وسائل الإعلام الغربية في هذا العداء التقليدي، مدعين أنَّ محمداً، ﷺ، مدمن حرب بطريقة لا يمكن شفاؤها“ (3).

ثم تقول : ”لا يمكننا أن نتحمل إطلاق العنان لهذا النوع من التعصب الأعمى، لأننا بذلك نقدم هدية للمتعصبين، الذين يستخدمون هذه الأقاويل، لإثبات أنَّ الغرب في حرب

(1) كارين أرمسترونج، محمد ﷺ، نبي لزماننا، ترجمة: فاتن الزلبياني (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط1، 2008م)، ص 21.

(2) المرجع السابق، ص 25.

(3) المرجع السابق، ص 24.

صليبية جديدة ضدّ العالم الإسلامي، لم يكن محمد قطّ رجل عنف، لابدّ أن نقرب من حياته بطريقة متوازنة، حتى نستطيع تقدير إنجازاته المعتبرة. إنّ تكريس هذا الإجحاف غير الدقيق، يدمر التسامح والتحرر والعاطفة، التي يفترض أنها تشخص الحضارة الغربية⁽¹⁾.

• القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث

وتستمر مؤلفات أرمسترونج المنصفة للإسلام ونبيه وحضارته، فنجد كتابها "القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث"، الذي صدر عام 1996م، وفيه تعرض تاريخ وحضارة مدينة القدس في اليهودية والمسيحية والإسلام.

وهذا الكتاب يتناول ثلاثة مفاهيم مترابطة، أولها : مفهوم القداسة، فالإنسان لا يشعر بالقداسة باعتبارها قوة قائمة خارج كيانه فحسب، بل يشعر بها أيضاً في أعماقه، ولكن الإحساس بالقداسة، شأنه شأن التجربة الجمالية، يتطلب الغرس والتنمية، وهو مطلب لا يتمتع به المجتمع العلماني الحديث، أمّا المجتمعات التقليدية، فهي تعتبر القدرة على إدراك القداسة قدرة ذات أهمية، وهناك كثيرون يشعرون بأنه لولا حاسة القداسة، لما أصبحت الحياة جديرة بأن نحياها.

والمفهوم الثاني هو مسألة الأسطورة، وقد تدنى موقع كلمة الأسطورة اليوم في ثقافتنا، فهي تستعمل بصفة عامة للدلالة على ما هو غير حقيقي، ويصدق ذلك على المناظرة الدائرة عن القدس، فالفلسطينيون يقولون إنه لا توجد آثار على الإطلاق تدل على قيام مملكة يهودية على يدي الملك داوود، ومن الأرجح أنها أسطورة فحسب، ومسألة القدس مسألة متفجرة، لأنّ المدينة اكتسبت كياناً أسطورياً.

أمّا المفهوم الثالث فهو الرمزية، ونحن الآن نعيش في مجتمع ذي توجه علمي، ولم نعد قادرين على أن نستعمل الصور والرموز بصورة طبيعية في تفكيرنا، إذا وضعنا منهجاً للتفكير، يتسم بالمزيد من الطابع المنطقي العقلاني، وقد كان لكلّ من هذه المفاهيم أو التيارات الثلاثة دورها في تاريخ القدس الطويل المضطرب.

والكتاب يعدّ محاولة لإدراك ما يعنيه اليهود والمسيحيون والمسلمون، عندما يقولون أنّ المدينة مقدسة لديهم، كما يشير إلى بعض ما يترتب على قداسة القدس في تقاليد كلّ دين من هذه الأديان.

(1) المرجع السابق، ص 24-25.

فقد كتبت أرمسترونج عن الفتح الإسلامي لفلسطين وبيت المقدس، فقالت: ”لقد عبّر عمر بن الخطاب عن مبدأ التواضع التوحيدي، أكثر من أي ممن فتحوا هذه المدينة من أيام داود، لقد كان فتحاً لم تشهد هذه المدينة مثله طول تاريخها المأسوي، كان فتحاً سلمياً، دون إراقة دماء أو تدمير ممتلكات أو إحراق رموز دينية مخالفة للإسلام أو طرد للسكان أو نزع ملكية أو إجبار أحد على اعتناق الدين الجديد، مثلما كان يفعل الفاتحون السابقون . لقد بدأ الإسلام هنا بداية حسنة جداً“⁽¹⁾.

وعن العهدة العمرية لأهل (إيلياء) أي بيت المقدس، كتبت تقول : ”هذا ما أعطى عبد الله - عمر أمير المؤمنين - أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم، أن لا تؤخذ منهم كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنقص منها ولا من خيرها، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار منهم أحد، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن...ولا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم ... وكان على كل أسرة أن تدفع ديناراً كل عام....وأتاح لهم الحرية الدينية، وأتاح لمختلف العقائد أن يعيشوا في تناغم نسبي، وهذا النظام يفوق بكثير النظام البيزنطي، الذي كان يضطهد الأقليات، وكتب المؤرخ البيزنطي (ميخائيل السرياني) أن المسلمين لم يكونوا يسألون أحداً عن ديانتهم، ولم يضطهدوا أحداً بسبب إعلان عقائده، بخلاف ما فعله المسيحيون اليونانيون (البيزنطيون) الهراطقة“⁽²⁾.

وكتبت أيضاً تقول: ”وسمح المسلمون للمسيحيين ببناء وترميم الكنائس بلا قيود، فكان هناك طوفان من تشييد الكنائس في فلسطين، وبلاد الشام، في القرنين السابع والثامن الميلاديين، بعد المنع البيزنطي لمسيحي الشرق من بناء الكنائس لقرون، وظل المكان الوحيد المخصص لعبادة المسلمين هو مسجد عمر في جبل المعبد.

أما اليهود، فقد رأى عمر بن الخطاب أنه لا يوجد سبب وجيه لمنعهم من دخول بيت المقدس، (كما منعهم المسيحيون منها)، فقام باستدعاء سبعين عائلة من يهود (طبرية) وخصّص لهم المنطقة المحيطة ببركة سلوام، وبنوا معبد (الكهف)، بعد أن كان البيزنطيون يجرمون الديانة اليهودية، وأجبرهم (هرقل) على اعتناق المسيحية. أما المسلمون فقد حرروا اليهود من ظلم (بيزنطة)، وكتب اليهود قصيدة بالعبرية، ترحب بالعرب الفاتحين

(1) كارين أرمسترونج، القدس.. مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة: د.فاطمة نصر ود.محمد عناني (القاهرة: دار سطور،

1998م)، ص 386.

(2) المرجع السابق، ص 390-391.

المبشرين بالمسيح المنتظر، وكتب حاخامات القدس خطاباً يذكر الرحمة التي أظهرها الله لشعب إسرائيل، حينما سمح لمملكة إسماعيل أن تفتح فلسطين، وعبروا عن أفراحهم بوصول المسلمين إلى القدس⁽¹⁾. وظلّ بيت المقدس مدينة مسيحية، فيها منطقة إسلامية واحدة، وظلّ الشعب خليطاً عرقياً، كما كان من قبل، ولم يُسمح للفاتحين المسلمين بالاستيطان، هناك إلاّ كحامية عسكرية، تعيش في مجتمعات معزولة عن سكان البلاد، وسُمح لبعضهم بامتلاك أراضٍ غير مسكونة⁽²⁾.

• الصليبيون واجتياح القدس

ثم تتحدث أرمسترونج عن الصليبيين واجتياحهم للقدس في القرن الحادي عشر الميلادي، فتقول: "في سنة 1096م، بدأ الوعاظ يشجعون الناس، ومنهم بابا روما السيوف، وسارت خمسة جيوش قوامها ستون ألف جندي مسيحي، ومعهم الحجاج المسيحيون من الفلاحين وزوجاتهم، وتوفي معظمهم في الطريق بسبب البرد والجوع. ثم تبعهم خمسة جيوش أخرى قوامها مائة ألف رجل، وحشد من القساوسة، وكان منظرهم يوحي بغزو بربري، وتوفي منهم الكثير، وعاد الباقيون.

وفي العام نفسه قامت فرقة صليبية جرمانية (ألمانية) بارتكاب مذابح في المجتمعات اليهودية، في البلاد المجاورة لألمانيا في أوروبا، على ضفاف نهر الراين، لأنهم يرونهم أنهم هم الأعداء الحقيقيون للمسيحية. وهذه هي أوّل مذبحّة منظمة شاملة في أوروبا، وقد تكررت تلك المذابح في كلّ مرّة قامت فيها حملة صليبية، لأجل إنشاء أورشليم المسيحية (بالتخلص من المسلمين و اليهود). ثم خرجت جيوش أكثر تنظيماً إلى القسطنطينية، وهزموا الأتراك (المسلمين) في (نيقية)، ووصل الجيش الصليبي إلى (أنطاكية) سنة 1097م، وانتصر الصليبيون، وأخذوا (الرها) التي هي (أديسا الأرمنية)، وأقاموا فيها إمارتين صليبيتين، وحاصروا القدس في سنة 1099م.

وكان يُعرف عن مسيحيي أوروبا البرابرة، القسوة المتحجرة المطلقة، والتعصب الديني الأعمى، لذلك هرب الكثيرون من الأرثوذكس اليونانيين، واليعاقبة المسيحيين من بيت المقدس. ثم وصل أسطول بحري من (جنوه) يحمل الصليبيين، إلى (يافا)، وقاموا بذبح ثلاثين ألف مسلم ذكراً وأنثى، ولما دخلوا القدس، ذبحوا كلّ المسلمين، حتى داخل

(1) المرجع السابق، ص 393-394.

(2) المرجع السابق، ص 395، ودكتور وديع احمد، الفتح الإسلامي لم يهدم الكنائس، منتديات الدكتور وديع احمد، في : <http://www.dr-wadee3.net/forum/showthread.php?t=829>

المسجد الأقصى، وكذلك حاصروا اليهود في معبدهم، وقتلوهم بالسيوف، ولم يتركوا أحياء (وكان عددهم عشرين ألفاً كما قال المؤرخون. واستولوا على الممتلكات، وتدفقت الدماء في الشوارع أنهاراً، حقيقة لامجازاً، كما يروي (ريموند الأجويلي) قائلاً: كان بالإمكان رؤية أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل، وكانت الدماء تصل الى ركبهم، وإلى ألجمة الخيل في المسجد والمعبد، وكان حكماً إلهياً عادلاً ورائعاً (كما يقول الصليبي الكافر)، أن يمتليء هذا المكان الذي عانى طويلاً من كفر الكفرة بدمائهم ﴿ **قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾، وتمّ بذلك تطهير المدينة من المسلمين واليهود، حتى لم يبق أحد يُقتل. فاغتسل الصليبيون، وساروا بالتراويل إلى كنيسة القيامة، ووصف الرهبان هذه المذبحة بالورع القتالي للصليبيين. وكان الصليبيون ينظرون إلى المسلمين على أنهم جنس كريه، شرير، غريب عن الربّ، ولا يصحّ معهم إلاّ الإبادة، كما كتبت، وأنّ هذا فعل إلهي، وأنّ الصليبيين هم شعب الله المختار، الذين حملوا الرسالة التي أضعها لليهود.

وادعى الراهب روبرت أنّ هذه الحملة الصليبية، هي أعظم أحداث التاريخ بعد حادثة صلب المسيح، وأنّ ضدّ المسيح (المسيح الدجال) سيصل سريعاً إلى أورشليم المسيحية، وتبدأ معارك يوم القيامة. وتمّ إحراق جثث اليهود والمسلمين، ولكن ظلت جثث كثيرة متناثرة في الطرقات لمدة خمسة أشهر !!!.

وتحولت القدس الإسلامية الزاهرة، إلى مستودع نتن من الجثث. وأقام الصليبيون سوقاً لبيع ما نهبوه، واحتفالات عظيمة ومرحاً، وسط الجثث، وبذلك يأتي الصليبيون في أسفل قائمة البشر، كما كتبت المؤرخة المسيحية. وعاد معظم الجنود إلى وطنهم، تاركين القدس التي أصبحت مدينة خربة، وأصدر الصليبيون قانوناً يمنع المسيحيين الشرقيين والمسلمين واليهود من دخول القدس⁽¹⁾.

وأصبح (جود فري) حاكماً للقدس، وسكن في المسجد الأقصى، وحول قبة الصخرة إلى كنيسة، ومعبد اليهود مقراً لبابا روما، ومات بالتيفود في العام التالي مباشرة. فدفنوه في كنيسة القمامة، التي سموها كنيسة القبر المقدس⁽²⁾.

(1) للاستزادة انظر : كارين أرمسترونج، القدس.. مدينة واحدة وعقائد ثلاث، مرجع سابق، ص 450-458.

(2) د. وديع احمد، الحملات الصليبية من كتاب (القدس) للمؤرخة المسيحية المعاصرة (كارين أرمسترونج)، منتديات وديع احمد على الانترنت، في :

<http://www.dr-wadee3.net/forum/showthread.php?t=856&s=4dd687d24e9ccf749108ba32a7e790ec>

• الحرب المقدسة

ومن الكتب الهامة التي ألفتها كارين كتاب ”الحرب المقدسة : الحملات الصليبية، وأثرها على العالم اليوم“⁽¹⁾، ويقع هذا الكتاب في مجلد ضخيم يبلغ عدد صفحاته 709 صفحة، وهو مقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسة عدا المحتويات. القسم الأول ”رحلة إلى ذات جديدة“، ويشمل ثلاثة فصول، توضح فيها لماذا كانت الحرب المقدسة، ثم ما قبل الحرب المقدسة، وتلمس الغرب لروح مسيحية جديدة، ثم النزاع الراهن بين العرب واليهود.

والقسم الثاني ”الحرب المقدسة“، ويشمل خمسة فصول، تبدأ فيها المؤلفة بالفصل الرابع منذ عام 1096م، وكيف بدأت الحرب المقدسة تشعل جهاداً جديداً، مروراً بحملة القديس برنار، فالجهاد الديني والصليبية العلمانية، وكيف استحوطت الصهيونية العالمية حرباً مقدسة، ثم تستشهد بمقتل أنور السادات عام 1981م، لتختتم الفصل الثامن حول الحرب المقدسة والسلام.

والقسم الثالث، يحوي ثلاثة فصول ثم الخاتمة، ويبدأ الفصل التاسع بعام 1199م، عندما وجهت الحملات الصليبية ضدّ المسيحيين، والسلام المسيحي.

وفي الفصل العاشر تضع نهاية الحملات الصليبية. أمّا الفصل الحادي عشر، فتقدم فيه المؤلفة سرداً من عام 1300م إلى يومنا الحاضر، لتختتم بالرؤية الثلاثية في لوحة فنية تشمل الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام.

وتصل إلى نتيجة هامة مفادها، أنّ الغرب يستخدم تعبير الحرب الصليبية للحديث عن كل ما هو خير وإيجابي، في حين كان يجب عليه أن يعتبر الحقبة الصليبية أكثر المراحل اكفهراراً في تاريخ الهوية الغربية، بسبب وحشيتها وعدوانيتها وقسوتها⁽²⁾.

ويعالج هذا الكتاب موضوع الحروب الصليبية معالجة تاريخية، ومقاربات سياسية من الواقع القائم، على نحو يبدو تاريخياً سياسياً تحليلياً ودينياً أيضاً، ويركز على الصراع بين اليهود والمسلمين والمسيحيين، الذين يفترض أنهم يتبعون جميعاً نبياً واحداً هو إبراهيم، ويؤمنون بنبوة ذريته من الأنبياء، ويتبعونهم.

(1) ترجم هذا الكتاب سامي الكعكي، ونشرته دار الكتاب العربي ببيروت في طبعته الأولى عام 2004م.

(2) للاستزادة انظر : كارين أرمسترونج، الحرب المقدسة.. الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، ترجمة سامي الكعكي (بيروت: دار الكتاب العربي)، ص 110-108.

وفيه تؤكد كارين أنّ أوروبا بدأت تشهد في القرن الحادي عشر الميلادي حالة من النهضة، ومحاولات للتخلص من الشعور بالدونية تجاه المسلمين، الأشد منهم بأساً والأرقى ثقافة، وبدأوا يحاولون بناء ذات جديدة، ويشعرون بثقة جديدة، وهكذا كانت الحملات الصليبية جزءاً أساساً من هذه العملية، وعبرت تماماً عن الروح الغربية الجديدة.

إنّ اختلاق عدوّ إجراء بالغ الأهمية، كوسيلة لتطوير هوية جديدة، وقد وفر المسلمون ذلك العدو الكامل، وإن كان من الواضح أنّ الفرنجة لم تكن لهم حتى ذلك الحين، أية مأخذ على المسلمين، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن الديانة الإسلامية، سوى أنّ المسلمين غير مسيحيين، وأنهم مقاتلون أشداء، ومن شأن التغلب عليهم أن يعلى كثيراً من شأن الفرنجة.

وكانت الحروب الصليبية قائمة أساساً على معاداة السامية، وبدأت بمهاجمة اليهود والسعي للقضاء عليهم، وكانوا يخيرون بين التنصر والموت، وقبل أن تتحرك الجيوش الصليبية إلى الشرق، كانت مشغولة بتطهير أوروبا من اليهود قتلة المسيح، وجعل الصليبيون من اللاسامية مرضاً غريباً لا شفاء منه، استمر متلبثاً في الغرب طوال العصور الوسطى. وعندما نهض هتلر مرة أخرى، كان يقتل أيضاً حتى الذين اعتنقوا المسيحية من اليهود، قبل مئات السنين، ثاراً من المذابح التي ارتكبتها قادة الحروب الصليبية⁽¹⁾.

تقول المؤلفة : ”يجب أن يكون واضحاً، كيف وصلت الفكرة الصليبية إلى أن ترتبط ارتباطاً واضحاً ومباشراً بالنزاع الحالي في الشرق الأوسط، ففي بداية رحلتهم إلى ذات جديدة لهم، ذبح الصليبيون اليهود، وفي نهاية حملتهم المرعبة ذبحوا المسلمين في القدس بوحشية تقشعر لها الأبدان، وكان الحقد على اليهود والمسلمين قد انغرس عميقاً في الهوية الغربية، ولولا اللاسامية الغربية لما قامت دولة يهودية في الشرق الأوسط“⁽²⁾.

وتؤكد أنّ القرن الثامن عشر شهد حقبة قومية ملتهبة، وظهر اليهودي عدوّاً للشخصية القومية، وفي ألمانيا تشكلت قومية قائمة على الشعب، وليس الحضارة والمدنية، وهذه الرؤية جعلت اليهود عدوّاً أساساً للروح الألمانية، ”وفي خضم هذه المناخات القومية المحمومة، كان أمراً طبيعياً أن يلتمس اليهود، يلتمسون حلاً قومياً لأنفسهم، وأيقن العديد

(1) إبراهيم غرايبة، الحرب المقدسة.. الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، موقع عنكاوا دوت نت، 30 نوفمبر 2009م، في :

<http://www.ankawa.com/forum/index.php?topic=368936.0>

(2) كارين أرمسترونج، الحرب المقدسة.. الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، مرجع سابق، ص 113.

من المستوطنين اليهود الأوائل، أنه لا قبل لليهود باكتشاف ذواتهم الحقيقية، إلا بإعادة الاتصال المادي بأرض آبائهم⁽¹⁾.

وقد نشأت الحركة الصهيونية، وكانت الهجرة الأولى إلى فلسطين بدوافع صهيونية في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وعندما تبلورت الحركة الصهيونية، حركة سياس ذات شرعية ومعترفاً بها لدى كثير من الحكومات، وقادة الدول في أوروبا، كانت الفكرة الأساس هي وطن قومي لليهود، وليس بالضرورة أن يكون هذا الوطن هو فلسطين، بل يمكن أن يكون في سينا أو أفريقيا.

وعندما انتزع البريطانيون فلسطين من الأتراك عام 1917م، لم يكن الفلسطينيون قد أخطروا رسمياً بإعلان بلفور، وجرت الأحداث بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين، كما هو معروف، فقد بدأ اليهود يتدفقون إلى فلسطين، حتى أعلنوا قيام دولتهم عام 1948م، وهجر مئات الآلاف من الفلسطينيين من أوطانهم، وهدمت قراهم ومحيت من الوجود، واستبدل بها قرى بأسماء عبرية، وتحول النزاع العلماني على الأرض مرّة أخرى إلى نزاع ديني وحرب مقدسة.

ثم تتحدث المؤلفة عن الدوافع الحقيقية للحرب الصليبية، فتؤكد أن رواد الحرب الصليبية على الشرق، مثل "غودفري" ولي عهد دوقية اللورين، التي قضى عليها الإمبراطور هنري الرابع، لم يكن له مستقبل في الغرب، فجاء على رأس أول جيش صليبي، ليكون أول حاكم صليبي للقدس. وكذلك "بوهيموند" أحد إقطاعيي دوقية أبوليا جنوب شرق إيطاليا، الذي وجد في الحرب الصليبية فرصة للمجد والثراء في الشرق. و"روبرت أوف نورماندي" الابن البكر لوليام الفاتح، والذي فشل في صراعه مع أخيه في وراثة عرش أبيه، وعندما عاد من الحروب الصليبية وضعه أخوه في السجن، ليقضي بقية حياته فيه. ومنهم "بالدورين" الذي خسر كل أملاكه، وفشل في أن يكون رجل دين، فكل هؤلاء كانوا يقودون جيشاً من الغوغاء، يحلم بالسلب والنهب والثراء.

وهكذا امتزجت في الحرب الصليبية الدوافع الشخصية، والمغامرة، والمثل المسيحية، فكانت هذه الحملات. كما أوصلت تداعياتها وتطوراتها حالة من المساواة الجديدة المفروضة بين الفقراء، والعاديين من الأوروبيين، وبين الفرسان والنبلاء، الذين جعلتهم

(1) المرجع السابق، ص 117.

المحنة والغربة، والحاجة متساوين تماماً، مما أعطى الفقراء فرصة بالشعور أنهم من الصفوة، وكانت غنائم بعضهم من الوفرة التي تجعلهم في مصاف النبلاء، وتحررهم من شعور طويل متراكم بالمدلة والعبودية، وتعززت فكرة الصليبيين الفقراء الباحثين عن العدالة والمساواة.

وعندما وصل الصليبيون إلى القدس ودخلوها، قتلوا كل من وجدوه في طريقهم من رجال ونساء وأطفال، كما لو كانوا يستعيدون المشهد التوراتي، الذي صوّر دخول يوشع بن نون للمدن والمناطق نفسها قبل ألفي عام. وجرى تعزيز الوجود الصليبي بفرق من الفرسان المقاتلين، الذين استولوا على القلاع والحصون، وأقاموا نظاماً خاصاً، اقتبسته بعد مئات السنين المستوطنات والكيوتسات الإسرائيلية.

وفي المقابل، كان المؤرخون المسلمون الذين كتبوا عن الحروب الصليبية، يرونها حملات عسكرية توسعية اقتصادية، ولم يربطوها أبداً بالدين المسيحي، غير أنّ عماد الدين زنكي، بدأ حملة مضادة لمواجهة الصليبيين، واستعادت من جديد قيم الجهاد وأفكاره لتجميع المسلمين في مواجهة الصليبيين، وتحولت الحرب لدى المسلمين من علمانية للتحرير والدفاع، إلى حرب ممزوجة بالكرامات الدينية، وتصاعدت الوتيرة الدينية للحرب بمجيء محمود نور الدين زنكي بعد مقتل أبيه عماد.

وتؤكد المؤلفة أنّ الحرب المقدسة اليهودية، تنحو منحى الحرب المقدسة المسيحية، حتى إنّ الصهاينة المتدينين، يبدون كما لو أنهم يستعيدون ويقتبسون النموذج الصليبي، ويبدو أنّ الحرب الصليبية ساعدت في تشكيل الصهيونية الدينية تماماً، كما أنشأت اللاسامية المعادية لليهود.

«ولقد كتب رضوان السيد تحليلاً لهذا الكتاب، ونشرته جريدة (الحياة) اللندنية، وقد رأينا أن نقتطف منه بعض الفقرات لأهميته، يقول فيه⁽¹⁾: تبدأ كارين أرمسترونغ دراستها بوقائع معروفة، يمكن إيجازها بدعوة البابا أوربان الثاني الفرسان المسيحيين، عام 1095م للاندفاع نحو الشرق، من أجل تحرير القدس من قبضة أتباع دين محمد، واستنقاذ الدولة البيزنطية المسيحية من هجمات الترك (السلاجقة)، الذين استولوا على أجزاء كبيرة من آسيا الصغرى، وهددوا القسطنطينية نفسها. على أنّ هؤلاء الفرسان،

(1) رضوان السيد، كارين أرمسترونغ و"الحرب المقدسة" في اليهودية والمسيحية والإسلام، جريدة الحياة (لندن)، 25 أغسطس 2003م.

بالترتيبات الطبقيّة السائدة في المجتمعات الإقطاعيّة آنذاك، قادهم عملياً، وللمرة الأولى رجال الدين المسيحيون، الذين أرسلهم البابا معهم، والذين ما كان من حقّهم، ولا من تقاليدهم استخدام السلاح بأنفسهم. لكن في خضمّ الحماسة الدينيّة الهائلة، وعبر عقود عدّة، تطورت لديهم رؤية جديدة دفعت باتجاه تكوين أخويات مسلحة، وبلورت دوغما دينية حول الحرب المقدسة أو الحرب العادلة، والتي شدّت لها رجال الدين الأرثوذكس، الذين قابلوهم عند أسوار القسطنطينية وفي أنطاكية، وسائر أنحاء المشرق».

«كان الغرب إذًا، وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، وهو يخوض حرباً ضروساً في حملات متتابعة، يبحث عن روح جديد، وتتكون لديه إحساسات رسالية لا يمكن تحقيقها إلّا بالحرب باسم المسيح، لكنها في الوقت نفسه تعيد تشكيل المجتمع الأوروبي، والكنيسة الأوروبية. فقد تفرّعت عن الحرب ضدّ المسلمين، حروب ضدّ الأرثوذكس، ثم حروب وحملات ومحاكم تفتيش ضدّ الهراطقة والمنشقين في الداخل الأوروبي استمرت حتى القرن الخامس عشر. وما توقف الأمر عند هذا الحدّ، ففي القرن السادس عشر، وعندما كانت الحروب الدينيّة ضدّ المسلمين شارفت على الانتهاء، واجهت أوروبا الكاثوليكية، تحديين كبيرين: الإنقسام الداخلي الكبير في الإصلاح البروتستانتي، واختراق العثمانيين بعد المغول لأوروبا من أقصاها إلى أقصاها، وسط ظروفٍ وأفكارٍ جديدة».

«على أنّ هذه البانوراما الشاسعة الأفق، التي تتراوح بين العرض التاريخي لحركات الجيوش، والتطور التاريخي للأفكار الدينيّة والدينيّة أو الدويليّة، توازيها بانوراما أخرى، تعرّض أوضاع المسلمين وعقائدهم، ووجوه تصرفهم منذ بدء الحروب الصليبيّة، وحتى الغزوات العثمانيّة. هناك التركيز المُسرف بعض الشيء في عرض عقيدة المسلمين القتاليّة، في عودةٍ مستمرةٍ إلى القرآن، والتاريخ الإسلاميّ الأول. لكن هناك أيضاً الإصرار على أنّ الروح الجهادي ما كان قوياً لدى المسلمين على مشارف الحروب الصليبيّة، وحتى أيام نور الدين وصلاح الدين. كان المسلمون مشدوهين لهذه الوحشية التي يُظهرها الفرسان والرهبان، وقد لمسوا ذلك الانشده أيضاً من جانب البيزنطيين، الذين كان خوفهم من حملة الصليب لا يقلّ عن خوف المسلمين».

وهذه المعلومات الغزيرة المستقاة من المصادر المسيحيّة (العهد القديم على الخصوص)، والإسلاميّة (القرآن)، ومن تاريخ الصراع ومراجعته الأدبيّة (كتابات رجال الدين والآخرين المرافقين للحملات، وكتابات المسلمين من رجال صلاح الدين، ومن بعدهم مثل

ابن الأثير وأبو شامة)، هي التي أوصلت المؤلفة إلى تحليل ”معقول“ للكراهية المسيحية الوسيطة المتأصلة ضد الإسلام، حتى بعد مضي أكثر من قرنٍ على انقضاء الحملات الصليبية. فحتى الذين قرأوا القرآن مترجماً من الرهبان والعلمانيين، وحتى الذين تمتعوا بحسن مُعاملة المسلمين لهم على رغم قسوتهم ومذابحهم ضد المسلمين، ظلّوا يعتبرون المسلمين إمّا هرطقة مسيحية، أو وثنيين. وتصل المؤلفة بعد تقليب الأمر على كلّ وجوهه، إلى أنّ عظمة الإسلام ونجاحه التاريخي، وتحديه للمسيحية عقائدياً وتاريخياً بنجاح، هي التي كانت - ولا تزال - السبب من وراء الكراهية، في ما تحسب.

• معارك في سبيل الإله

وتستمر المؤلفات الثرية التي وضعتها المستشرقة البريطانية كارين فنجد كتابها ”معارك في سبيل الإله.. الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام“⁽¹⁾، الذي تحاول فيه البحث عن ظاهرة الأصولية وما وراءها، والصراع الذي يصاحبها، وإلى أين تتجه في الديانات الثلاثة الرئيسة، معتبرة أنها كالسرطان الذي ينخر جسد جوهر الديانات ورسالاتها السماوية، محذرة من استخدام النص المقدس كبرنامج سياسي ثقافي، حسب مفسري الأديان، لأنّ ذلك يقود إلى دمار المجتمعات، وقد اهتمت آرمسترونج بالأصوليات، مشيرة إلى أنّ الأصوليات المتطرفة الثلاث، تتشاطر قواسم مشتركة، فلم يكن لدى الأصوليين وقت للديمقراطية أو التعددية الحزبية، أو التسامح الديني أو الحفاظ على السلام أو الخطاب الحرّ، أو فصل الدين عن الدولة، لكنهم يميلون إلى الانخراط في نمط واحد، وهو الصراع مع الآخر، الذي يعدونه حرباً كونية بين قوي الخير والشر.. وهؤلاء يستمدون أفكارهم من بعض النظريات الماضية، ويقيمون لأنفسهم ثقافة خاصة مغلقة، مضادة للثقافة السائدة في المجتمع الذي ينسحبون منه، ولا يشعرون بالانتماء إليه.. ولكي يحققوا أهدافهم المرضية، يلجأون إلى العنف المسلح وإراقة الدماء والهدم والتدمير، ومن ثم يصبح المجتمع بالنسبة لهم كافراً ينبغي الخروج عليه، وإعلان الجهاد ضده، لذا فكلّ الأصوليات تحارب وتقتل باسم الدين.

وهي ترى أنّ الأصولية لا تقتصر على أديان التوحيد الكبرى الثلاثة، فتقول: ”هناك نزعات أصولية بوذية وهندوسية، بل وكنفوشيوسية، وهي ترفض كذلك كثيراً من النظريات

(1) صدر الكتاب عن دار ألفريد كنوفا في نيويورك عام 2000م، وقام بترجمة إلى العربية كل من د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، وصدر ضمن سلسلة ”كتاب سطور“، في طبعته الأولى عام 2000م.

العميقة التي توصلت إليها الثقافة الحديثة، بعد جهد جهيد، وهي تحارب وتقتل باسم الدين، بل وتكافح حتى تدخل :“المقدس“ إلى عالم السياسة والنضال الوطني“⁽¹⁾.

وفي سياق رصد هذا بزوغ ظاهرة الأصولية في القرن العشرين، تشير إلى مقاومة الأصوليين المسيحيين - حقبة طويلة من الزمان- الاكتشافات العلمية الخاصة بعلم الأحياء والفيزياء، وإصرارهم على أن كتاب سفر التكوين يبدو علمياً في جميع تفاصيله، وأنه في الوقت الذي كانت فيه غالبية البشرية تلقي بقيود وأصفاد الماضي، أظهر الأصوليون اليهود مخزونهم من الحيل والمبادئ الدينية، والخرافات والأساطير التي تمكنهم من إعادة سلطة الدين، في الحصول على حقوقهم المهضومة، على يد الغرب المسيحي، معتبرين أن قانونهم المقدس - الذي مارسوه بصرامة وتشدد - هو القانون الدولي الوحيد القابل للتطبيق، معتبرة أن الأصوليين المسلمين قد تبعوهم في ذلك، في تحويلهم للقضية العربية- الإسرائيلية، من قضية دنيوية إلى قضية دينية خالصة⁽²⁾.

وتصدم كارين، قارئها، حينما تبرهن له، أن الأصولية ما قامت إلا دفاعاً عن أقدس القيم، التي تؤمن بها، والتي تعرضت للنزعات العدوانية من جانب قيادات الحداثة، وتعترف بأن المفكرين الذين استمتعوا بثمرات الحداثة ومنجزاتها - وهي منهم - يتعذر عليهم أن يتفهموا مدي الأحزان والآلام، التي تثيرها الحداثة في نفوس الأصوليين، لأن التحديث لم يكن في كل أشكاله تحريراً وعتقاً من التخلف والجهالة، والخضوع لسطوة الماضي، ولكنه تحقق كذلك عبر هجوم عدواني على المقدسات الدينية، مرجعة اندلاع المعارك في سبيل الإله، لمحاولة ملء خواء قلب المجتمع المؤسس على العقلانية العلمية، وأن المؤسسات العلمانية كان باستطاعتها بدلاً من توجيه السباب إلى الأصوليين، توجيه النظرة الثاقبة نحو ثقافتهم المضادة لفهمها، فقد كانت مجتمعات شكري مصطفى، مؤسس جماعة التكفير والهجرة، في مصر الصورة المعكوسة لسياسة الباب المفتوح للسادات، على حين أن الاهتمام بهم قيمة رئيسة في الإسلام، حيث ترى أن كل ذلك أوضح شعبية وقوة تلك الحركات، وأن الناس في مصر مازالوا يريدون أن يكونوا متدينين، رغم التوجهات العلمانية.

(1) كارين آرمسترونج معارك في سبيل الإله.. الحركات الأصولية الدينية في اليهودية والمسيحية والإسلام، ترجمة د.فاطمة نصر ود.محمد عناني (القاهرة : سلسلة كتاب سطور، ط1، 2000م)، ص 4.

(2) للاستزادة انظر: المرجع السابق، الفصلين الثالث والرابع، ص 108 - 217.

ولأنّ هذه الحملة لإعادة القدسية إلى المجتمع، كانت قتالية في معظم الأحيان، فقد أصبحت عدوانية، وافتقدت التراحم الذي أصرت كلّ العقائد على أنه جوهر الحياة الدينية، لافتة إلى أنّ الغضب لم يكن حكراً على الأصوليين، فكثيراً ما وقع العلمانيون والأصوليون في شرك عداوات متصاعدة، وأنه إن كان على الأصوليين أن يطوروا تقييماً أكثر تعاطفاً لأعدائهم، طبقاً لما تنص عليه تعاليم موروثاتهم، فعلى العلمانيين أيضاً، أن يكونوا أكثر إيماناً بالنزوع إلى الخير والتسامح، واحترام الإنسانية، وأن يوجهوا عنايتهم بشكل أكثر، تأكيداً إلى المخاوف والقلق والاحتياجات التي تسيطر على جيرانهم الأصوليين، والتي لا يملك لأي مجتمع تجاهلها⁽¹⁾.

• وجهة نظر معتدلة تجاه الإسلام

ولاشكّ أنّ الاهتمام العالمي المتزايد في النقاش حول تأثير الإسلام، جعل من المستشرقة أرمسترونج متكلمة ذات شعبية واسعة، وذات تأثير كبير، لأنها ساعدت في بناء وجهة نظر معتدلة إلى حدّ ما نحو الإسلام، من قبل جمهور عريض في أوروبا وأمريكا، لكن هذا لم يُرض اليهود، فتحركوا ضدها بحملات ضاغطة متواصلة، وعلى سبيل المثال، اتهمها المستشرق اليهودي "إفريم كارش" بتحريف الحقيقة، لموقفها الموضوعي من بني قريظة!.

وحول الإسلام المتفاهم، ألقت محاضرة بعنوان "Understanding Islam"، "الإسلام المتفاهم"، في معهد جامعة أكسفورد للدراسات الأمريكية بإنجلترا، في ظلّ المخاوف والفرضيات الغربية، بالإضافة إلى مدى معاداة الإسلام السائدة في الغرب منذ 11 سبتمبر، وأجابت في هذه المحاضرة عن عدّة تساؤلات، وأكدت بأنّ المسلمين "لم يطلبوا منا التخلي عن نماذجنا وقيمنا، بل بالعكس"، وجاءت الكثير من الأسئلة إلى أرمسترونج أثناء محاضرتها، التي دلّت على أنه ليس هناك إحساس وإرادة لمعرفة متعمقة حول الإسلام، لكن أيضاً هناك كم كبير جدّاً من الاعتراضات الإعلامية المتأصلة ضدّ الإسلام في الروح الأمريكية.

تقول أرمسترونج: «إنّ أحداث 11 سبتمبر قسمت الأكاديميين الأمريكيين إلى معسكرين، المعسكر الأول، تحت قيادة مارتين كرامر - رئيس دراسات الشرق الأوسط - الذي اتهمني، واتهم أكاديميين مثل جون إسبيسيتو، رئيس الحوار الإسلامي المسيحي في جامعة جورج

(1) هبة عبد الستار، عندما تتدلّع المعارك في سبيل الإله : كارين أرمسترونج : الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام،

جريدة الأهرام (القاهرة)، العدد 46100، 23 فبراير 2013م.

تاون، بأننا نخدع الناس حول الاعتقاد بأن الإسلام ما كان تهديداً، وحجة كرامر التي ادعاها، ثبت خطأها فقط بعد بضعة أسابيع من 11 سبتمبر، إذ كتب كرامر مقالة من أبراج عاجية بنيت على الرمل، ألقى باللوم فيها مباشرة على الأكاديميين، للإخفاق في توفُّع الأعمال الوحشية، وإسكات الأصوات المعتدلة».

وتوضح كثرة أجهزة الإعلام في الولايات المتحدة، التي حاولت إسكات الأصوات المعارضة بعد 11 سبتمبر، وعلى سبيل المثال، كانت قد كُلفت من قبل مجلة النيويورك لكتابة مقالة عن الإسلام، لكن المجلة نشرت بحثاً للأكاديمي بيرنارد لويس، بدلاً من أن تنشر مقالها.

تقول: "لقد اعتقدوا أنني قس للمسلمين، لأنّ مقالتي كانت حول النبي محمد، ﷺ"، كصانع سلام، وهذا لم يناسب جدول أعمالهم بقدر ما تناسبهم مقالة لويس، فكّل من لويس وكرامر صهاينة أوفياء، يكتبون من واقع التحيز المتطرف، لكن الناس بحاجة لمعرفة أنّ الإسلام دين عالمي، وأنّ الخطّ الذي انتهجه لويس، بأنّ الإسلام دين عنيف، أصلاً خطأ مغرض، ولقد زرت إسرائيل في الثمانينيات فصدمت من مدى العنصرية التي تمارس ضدّ الفلسطينيين⁽¹⁾.

ولا شكّ أنّ دراسات المستشرقين، كثيراً ما تكون موجهة لخدمة أهداف مطلوبة، ترصد لها الملايين لتحقيق هذه البحوث، وهذا ما يجعل هذه الدراسات غير مبرأة من الغرض، كدراسات روبرت سبنسر على سبيل المثال، الذي يعمل مستشاراً خاصاً حول الإسلام لبعض الأفراد والمجموعات، وقد طلب منه كتابة كتابه الأول: "الإسلام المكشوف"، لكي يصحّح للبعض إساءة الفهم حول الإسلام، التي كانت واسعة الانتشار في ذلك الوقت، "يقصد بـ (يصحح) يشوّه الفهم حول الإسلام". وقد عمل سبنسر مستشاراً بالقيادة المركزية الأمريكية USCC ووزارة الخارجية الأمريكية، ووزارة الخارجية الألمانية، وفي 2002 عُيِّن من قبل بول ويريش بمؤسسة الكونجرس الحرّة، وطلب منه أن يكتب عن الإسلام، فكتب سلسلة الدراسات (series of monographs) عن الإسلام، غير أنّ حالة أرمسترونج متفردة، وقد تعدّ الأقرب إلى الاعتدال⁽²⁾.

(1) عبد الرحمن أبو المجد، كارين أرمسترونج: هل هي الأقرب إلى الاعتدال، مرجع سابق.

(2) المرجع سابق.

• كارين ودستور الرحمة

وفي فبراير 2008م تقدمت أرمسترونج لمنظمة تيد بمشروع دستور الشفقة Charter for Compassion، باسم مجلس قادة المسيحيين والمسلمين واليهود، لرسم دستور للرحمة، وفازت أرمسترونج بمنحة قدرها مائة ألف دولار من منظمة تيد TED، وهي منظمة خيرية تقدم منحها لكل مفكر يريد تغيير العالم إلى الأفضل - وذلك لوضع دستور الرحمة، وهو عبارة عن أولويات أخلاقية مشتركة في الأديان السماوية، تحد من الصدام، وتنشد المحبة والسلام، وتتبنى فهماً عالمياً لروح هذه القاعدة الذهبية.

وفي مايو 2008م منحت أرمسترونج جائزة حرية العبادة بمعهد روزفيلت، وصرح المعهد بأنها صارت صوتاً مهماً، يطالب بفهم متبادل في أوقات كثر فيها الهرج والمجابهة، والعنف بين المجموعات الدينية، واستشهد المعهد بأن تركيزها الشخصي المثالي نحو السلام، يمكن أن يوجد في الفهم الديني.

وفي نوفمبر 2009 م كشفت عن دستور الشفقة في واشنطن، وكان من ضمن الموقعين عليه الأمير الحسن بن طلال، ورئيس أساقفة ديزموند، والسير ريتشارد برانسن، وتضمن شخصيات دينية من غير الديانات السماوية.

وبالطبع قامت حملة ضارية ضد أرمسترونج ومشروع الشفقة، وعلى طريقة شاكير مامي، كتبت مقالاً نارياً بعنوان "كارين أرمسترونج أم المجانين"، اتهمتها بأنها مجنونة، ونقدت القرآن ضمن السياق، مدعية أن القرآن لا يعرف هذه القاعدة الذهبية، وأنه لا توجد فيه أية آية تؤكد الشفقة والرحمة والتراحم، واستشهدت بقوله تعالى : ﴿الرَّائِيَةُ وَالرَّائِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽¹⁾. وتجاهلت كثيراً من الآيات التي تحث على الشفقة والرحمة، قال تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾⁽²⁾.

وأضافت أن المشروع سيطبق على مدرسة القادسية للبنات، الخاصة بالجالية المسلمة في أمستردام، وهنا اعترض المستعرب "سامون أدميرال" وقال : صحيح أن القادسية

(1) النور : 2.

(2) الممتحنة : 8.

لم تكن مجرد معركة، بل كانت المعركة الحاسمة على الفرس، وأنَّ المدرسة في أمستردام تسمى على اسم ذلك، إنَّ لغة عدم الرحمة هي لغة الإسلام، ولا أحد حتى اليوم يتضايق من ادعاء الشفقة العظيمة⁽¹⁾.

• مواقف وآراء

وبعد سنوات من البحث والدراسة والتأليف حول الإسلام وحضارته ونبیه، انتهت إلى مجموعة واضحة من المواقف والآراء، فعندما سئلت : كيف وجدت الإسلام بعد دراستك الأديان السماوية كلّها، وهل يستحقّ كلّ هذا الهجوم عليه في الغرب؟، قالت : «لقد وجدت إسلاماً يختلف جذرياً عن الإسلام الذي يروّج له الإعلام الغربي، وكثير من التيارات اليمينية المحافظة في الغرب، فالإسلام مثلاً لم يدعُ إلى معاداة أي من الأديان السماوية التي سبقتها، ولم يدعُ إلى رفضها، بل إنَّ الإسلام لم يدعِ إلى كراهية المسلمين لليهودية أو اليهود بشكل مطلق، على العكس، فالقرآن يدعو المسلمين إلى الإيمان بالأديان السماوية التي سبقتها، وحسن التعامل مع أهل الكتاب، على عكس المفهوم السائد لدينا بأنه دين عدائي، ولا يقبل غير المسلمين. كذلك وجدت النبي محمد صلى الله عليه وسلم شخصية مثالية، ولديه دروس مهمة ليست فقط للمسلمين، وإما للشعب الغربي».

وهي ترى أنَّ الاتجاه العدائي ضدَّ الإسلام في الغرب هو جزء من منظومة القيم الغربية، التي بدأت في التشكل مع عصر النهضة والحملات الصليبية، وهي بداية استعادة الغرب لذاته الخاصة، مرّة أخرى. فالقرن الحادي عشر كان بداية لأوروبا الجديدة، وكانت الحملات الصليبية بمثابة أوّل ردّ فعل جماعي، تقوم به أوروبا الجديدة، وكان الإسلام هو العدو، وكره الأوروبيون الإسلام مثلما يكره الناس في العالم الثالث أمريكا الآن.

وعن الإساءات المتتالية التي يتعرض لها الإسلام في الغرب، قالت : «للأسف الشديد فإنَّ الإساءات بالفعل تتكرر، ولكن لا بدّ أن يدرك المسلمون أنَّ المسيئين للإسلام قلة قليلة، والمشكلة تتمثل في أنَّ غالبية المجتمع الأوروبي والأمريكي لا يفهم مبادئ الإسلام، ولا يدرك سماحته، ولا يعرف أنه دين رحمة وسلام، مما أفسح المجال للمتطرفين في الغرب، لبث أفكارهم، وزرع الكراهية للإسلام بين الجماهير هناك، هذا في الوقت الذي لم يعرف المسلمون حتى الآن، كيف يواجهون المجتمع الأوروبي بالحوار لتعريفه بطبيعة هذا الدين،

(1) عبد الرحمن أبو المجد، كارين أرمسترونج : هل هي الأقرب إلى الاعتدال، مرجع سابق..

وما يحمله من مبادئ نبيلة وقيم سامية، لا سيما أنَّ أغلب هذه الشعوب لا تعتبر الأديان فوق النقد، من فرط تقديرها لحرية التعبير، ويكفي أنَّ نعرف أن نسبة كبيرة من الشباب في بريطانيا وهولندا وغيرها من الدول الأوروبية، ليست لديهم فكرة عن دينهم، ومعظمهم لا يؤمن حتى بالله تعالى، ولذلك انتابهم الشعور بالذهول، عندما وجدوا المسلمين يشعرون بالأذى من التعليقات، والرسوم الساخرة على رسولهم ودينهم، وكثير منهم لا يعرفون من هي السيدة العذراء، ومنهم من شكَّ في عذريتها، وهي أظهر نساء العالمين، ومنهم من ادعى أنَّ السيد المسيح، كان قد تزوج من مريم المجدلية، فلا غرابة إذن أن يخرج من بين هؤلاء من يتهمَّ رسول الإسلام، بأن لحظات هبوط الوحي عليه، لم تكن سوى نوبات من الصرع كانت تصيبه آنذاك».

وتحدث عن أنَّ المسلمين أهملوا في تقديم صورة الإسلام السمحة، فتقول : دعنا نعترف أنَّ كلَّ الشواهد تؤكد أنَّ المسلمين تقاعسوا طويلاً عن تعريف العالم برسالة محمد ﷺ، الذي بعثه الله بشيراً ورحمة للعالمين، وانكمشوا داخل حدودهم، واكتفوا بأداء العبادات، ثم مضوا يلطمون الخدود على جهالات الغرب وأخطائه في حقَّ دينهم، وراحوا يجأرون بالصراخ والعويل والشتائم، حين وجدوا من يسخر من كتابهم ورسولهم، ولم يستفيدوا من الكتاب المنصفين في الغرب، الذين أشادوا بهذا الدين وبرسوله الكريم، ونسي مسلمو اليوم أنَّ أجدادهم بنوا حضارة عظيمة، عندما حرصوا على التعلم، وعلى الاستفادة مما تعلموه. ولكن مسلمي اليوم يكتفون باستيراد كلَّ معارفهم ومداركهم من الغرب، ولهذا فإنَّ الغرب وصل إلى اعتقاد بأنَّ المسلمين عالة على الإنسانية، ولذلك، فإنَّ العالم الإسلامي، إذا كان يريد الدفاع فعلاً عن معتقده، فعلى المسلمين أن يسارعوا إلى المساهمة في الركب الحضاري، ولا يكتفون بموقف المتفرج، خاصة ونحن نعيش في زمن لا يعرف إلا لغة المصالح، فإذا نهض المسلمون وتفوقوا علمياً، فثق تمام الثقة أنَّ الغرب سيشعر أنهم أنداد له، ولن يغامر بالإساءة لمسلم واحد.

• التقارب بين الإسلام والغرب

وتؤكد على أنَّ الغرب لابدَّ أن يلعب دوراً محورياً في مسيرة التقارب مع العالم الإسلام، فيحذف من مناهجه كلَّ ما يسيء للإسلام، فعلى سبيل المثال، لابدَّ على الغرب أن يتأكد أنَّ القرآن الكريم منح المسلمين مهمة تاريخية، تتمثل في خلق مجتمع عادل، يحظى كلُّ أفرادها بنفس القدر من القيمة والاحترام، وخبرة تأسيس مثل هذا المجتمع والعيش فيه،

منحت المسلمين جوهر الحياة الدينية، الذي يعني أن شؤون الدولة لا تنفصل عن الشؤون الروحية عند المسلمين، وكذلك القرآن يحرم العدوان، ولا يسمح بالحروب إلاّ دفاعاً عن النفس، ويؤكد أن القيم الإسلامية الحقيقية هي السلام والمصالحة والعفو، وكلمة (الجهاد) لا تعني الحرب المقدسة، كما يعتقد البعض في الغرب، وإنما الكفاح والجهد، كذلك فإنّ المسلمين مأمورون ببذل محاولات واسعة على جميع الجبهات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعرقية والروحية لتنفيذ مشيئة الله، أمّا الجهاد فهو قيمة روحية لأغلب المسلمين، لا ترتبط بالعنف، والإسلام ليس دين سيف، كما قيل لنا ونحن صغار، لذلك فنحن أيضاً في حاجة إلى إصلاح المناهج، وليس المسلمين فقط.

• الإسلام وحقوق المرأة

ونجدها تدافع عن وضع المرأة في الإسلام، وعدم صحّة ما يشاع في الغرب عما يسمونه موقف الإسلام المتعنت من المرأة، فتقول : الإسلام قدم للمرأة حقوقاً لم تكن تعرفها من قبل، حتى في ظلّ وجود ديانتين سماويتين سابقتين عن الدين الإسلامي، وأنا هنا أكتفى بذكر قصة حدثت في صلح الحديبية، حيث كان المسلمون مستفزّين بشدّة بسبب طريقة المفاوضات، التي استخدمها سهيل بن عمرو مع الرسول، ﷺ، ابتداءً من رفض (البسملة) على الطريقة الإسلامية، ورفض أن يكتب الرسول محمد صفته، وإنما كتب محمد مجرداً، ثم رفض دخول المسلمين الكعبة في عامهم الذي أتوا فيه، وتأجيل ذلك إلى عام مقبل. بالإضافة إلى الشرط المجحف، والذي يعبر عن عدم المساواة في الالتزامات، وهو الخاص بردّ محمد، ﷺ، من يأتيه من غير إذن وليه، وعدم التزام قريش بالردّ بالمثل.

ولم تتحمل أعصاب المسلمين كلّ هذا.. على النقيض من الرسول، ﷺ، الذي أمرهم في هذه اللحظات بأن يحلّوا إحرامهم، وأن يذبحوا الهدي إيذاناً بالعودة دون تأدية العمرة، ويدخل الرسول، ﷺ، إلى زوجته أم سلمة في خيمتها حزناً، ويقول "هلك الناس.. هلك الناس، يعصون أمر نبيهم"، وتشير عليه أم سلمة بأن يحلّ الإحرام، وأن يذبح دون أن يناقش أحداً أو يلتفت إلى قول أحد، ويفعل الرسول، ﷺ، فيقتدي به المسلمون، وينقذ الأمة من فتنة شديدة محققة، أخذاً بمشورة أم المؤمنين أم سلمة.. إذن كان للمرأة دور سياسي بارز في حياة المسلمين، ولم تكن أبداً كمّاً مهماً كما يزعمون، وكانت تشارك في السياسة وفي التجارة، بل وفي الحرب، وفي شؤون الحياة كافة، ولكن غلب عليها العمل في

المنزل، في تربية الأبناء، وهي مهمة جدّ صعبة، في عمل المأكل بيدها، والملبس بأصابعها، والمشرّب بجلب الماء من الخارج إلى بيتها.. كثيرة، هي الشؤون التي كانت تضطلع بها المرأة، وتوليها اهتماماً أكبر من دفع الأموال للتجارة بالمضاربة والمراوحة، كما كانت تفعل السيدة خديجة أم المؤمنين بأموالها قبل الإسلام، وبعده، وكثيرة هي الأمور التي تخضع لظروف الزمان والمكان، والتي تجعل المرأة في وقت ما تقوم بهذا العمل أو تتركه للرجل، والمهمّ توزيع الأعباء بعدالة وإنصاف، دون أي انتقاص من حقوق المرأة.

• الصراع العربي الإسرائيلي

«وحول موقفها من الصراع العربي الإسرائيلي تقول : بصراحة شديدة، «إنّ الاحتلال الإسرائيلي يمارس كلّ ما هو غير أخلاقي، وساعده في ذلك، أننا نعيش اليوم في عالم يتسم بعدم التوازن، وسيادة سياسة الكيل بمكيالين، والغريب أنّ الغرب الذي يظنّ أنه ظلم يوماً ما اليهود، يقوم اليوم بردّ هذا الظلم بمساعدة اليهود على ظلم أناس آخرين هم الفلسطينيون بشكل خاص، والمسلمون بشكل عام، ولهذا فأنا أرى ضرورة أن يضغط الغرب من منطلق أخلاقي وإنساني على الكيان الإسرائيلي، من أجل رفع الذلّ عن الفلسطينيين، وبصراحة شديدة، فإنّ الغرب في حاجة ماسة اليوم إلى رفع صوت التراحم، الذي اختفى تماماً خلف الآلة الإعلامية الصهيونية، التي لم تتوقف عن تشويه القضية الفلسطينية، رغم أنها سبب استمرار الصراع الديني والسياسي بين الشرق والغرب».

«وفي رأيي الشخصي فإنّ التعنت الإسرائيلي هو المسؤول عن وجود نوع من المقاومة العنيفة تجاه الإسرائيليين، والغرب بصفة عامة، فالمقاومة تكون دائماً أكثر شراسة وعنفاً مع الاحتلال، وكلّ احتلال يولد نوعاً من المقاومة، وبصراحة شديدة أيضاً، لابدّ أن نعترف أنّ الغرب يتحمل المسؤولية أيضاً عن الموقف العربي الإسرائيلي، فقد وافقت بريطانيا عام 1917م على إصدار وعد بلفور، الذي منح اليهود أرضاً لا يمتلكوها في فلسطين، وأهملت تطلعات ومحنة السكان الفلسطينيين الأصليين، كما أنّ الولايات المتحدة تساند إسرائيل الآن إقتصادياً وسياسياً وتتجاهل أيضاً محنة الفلسطينيين، وهذا الأمر خطير للغاية، لأنّ الفلسطينيين لن يذهبوا بعيداً، وإذا لم يتمّ التوصل لحلّ يضمن الأمان للإسرائيليين، والاستقلال السياسي والأمن للفلسطينيين، فلن يكون هناك أمل لتحقيق السلام في العالم. والحقيقة أنني كلّما تذكرت مدى معاناة الفلسطينيين بسبب سياسة الكيل بمكيالين، أشعر بالعار، لأنني أنتمي لمنطقة تمارس تلك السياسة البغيضة».

ولقد تعرضت كارين لمضايقات عدّة من اللوبي اليهودي الأمريكي، وخاصّة المنظمات اليهودية المتطرفة، بسبب انتقاداتها المتعددة لإسرائيل، ولكنها تردّد دائماً وتقول : «إنّ هناك فارقاً بين أن تتحدث عن اليهودية، ذلك الدين الذي بشر به موسى، عليه السلام، وبين أن تتحدث عن الكيان الإسرائيلي المحتل الغاصب لأرض ومقدسات غيره، وأنا أعمل دوماً على عرض تلك الرؤية على مائدة المؤتمرات والمنتديات كافة التي أشارك فيها، حتى يعلم العالم أنّ المقاومة الفلسطينية لها ما يبررها»⁽¹⁾.

• مستقبل الإسلام في الغرب

وفي محاضرة ألقته كارين بالجامعة الأمريكية بالقاهرة في 12 ديسمبر 2005م، تحت عنوان "مستقبل الإسلام في الغرب"، أكدت أنّ الحلّ لمواجهة صراع الحضارات الذي نشهده حالياً، هو الحوار والتعاون، وتغيير طريقة تقويم أنفسنا، ومعرفة الآخر، لوقاية العالم من الإرهاب، لافتة إلى أنّ الإعلام يقدم صوراً خاطئة عن الإسلام وعن الغرب.

وقالت : الإسلام دين سلام وتسامح، وليس دين عنف، منوهة بخطبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما دخل مكة، وبآلية التي تقول "وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا"، داعية إلى ضرورة معرفة حقيقة أنّ كلّنا من آدم وآدم من تراب.

وأشارت إلى أنّ أحداث 11 سبتمبر زادت الصراع بين الحضارات، خاصة في أمريكا التي صدمتها هذه الهجمات، فأصبح هناك من يقولون أشياء مريضة عن الرسول، ويصفونه بأنه إرهابي، كما زاد عدد الذين يتحدثون عن الإسلام بشكل سيئ، لكن في المقابل بدأ البعض الآخر يفتش عن أي شيء يخصّ الإسلام.

وأوضحت أنها في زيارتها لأمريكا بعد الهجمات، فوجئت بأعداد كبيرة من الأمريكيان يأتون إليها لتحديثهم عن الإسلام، فقالت لهم أشياء كثيرة صعبة عن سياستي بريطانيا وأمريكا، محاولة محو النظرة السلبية للإسلام.

ولفتت أرمسترونج إلى وجود انقسام كبير بين أوروبا وأمريكا، فالولايات المتحدة تعدّ ثاني أكبر دولة دينية بعد الهند، في الوقت الذي تعتبر فيه أوروبا علمانية، وكانت

(1) إياد عبد الله، المفكرة والراهبة البريطانية كارين أرمسترونج لـ المدينة: غالبية الأوروبيين لا يفهمون طبيعة الإسلام، مرجع سابق.

بريطانيا هي الأكثر علمانية بين الجميع، حيث تبلغ نسبة المتدينين بها 6%، وهذا يؤدي إلى اختلاف النظرة نحو الإسلام.

وأكدت أنها التقت في أمريكا بمسلمين يحاولون أن يكونوا مسلمين جديدين، وأمريكان جديدين في الوقت نفسه، أملاً في بناء الجسر الذي يجعل العالم الغربي يرى الإسلام الحقيقي، بينما في بريطانيا (العلمانية جداً)، فلا يوجد بين المسلمين البريطانيين من يرغب في أن يصبح إماماً، فيأتي الإمام من قرية صغيرة في بنجلاديش، ولا يعلم ماذا يقول لهم.

وأضافت : «إن سبب اتهام المسلمين بالإرهاب هو الإعلام، الذي ينقل صوراً خاطئة، فهناك صوراً راسخة عن المسلم في الغرب، رغم أنهم لا يعرفون شيئاً عن الإسلام، مشيرة إلى أن الغرب في الماضي لم يكن مهتماً بالإسلام، ففي القرن 16 كانت أوروبا مثل العالم الثالث اليوم، بينما كان العالم الإسلامي، مثل أمريكا اليوم، أكثر قوة وتحضراً، وبدأ الغرب يكون أفكاره عن الإسلام من خلال الرحالة الأوروبيين، وفي القرن الثاني عشر بدأوا ينظرون إلى القرآن، فظهرت فوييا الإسلام واليهودية، التي انعكست في تصرف الغرب نحوهم، فشنوا الحرب المقدسة، رغم أنها ليست طريقة المسيحية».

وتوضح أن الغرب كان يعتقد أن الإسلام دين حرب، وانتشر بحدّ السيف، رغم أنه في الحقيقة دين تسامح وسلام، لافتة إلى أنه مع بدء عصر النهضة الأوروبية، وسياسة التحديث، التي تعتمد على الاقتصاد والتكنولوجيا، بدأت سياسة الاستعمار لإيجاد سوق جديدة، وكان لهذه السياسات ضحايا أهمها إسبانيا، التي كانت من أكثر الدول حضارة في العصر الإسلامي، وإجبار اليهود والمسلمين على التحول للمسيحية، أو عدم العيش في أوروبا⁽¹⁾.

(1) فتحة الدخاخي، الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونج : الإسلام لم ينتشر بحدّ السيف، جريدة (المصري اليوم)، العدد 549، 14 ديسمبر 2005م.

الفصل الرابع

من ايطاليا..المستشرق لورا فيشيا فاغليري ودفاعها عن الإسلام

نحن هنا أمام باحثة ومستشركة إيطالية ندر مثالها في عصرنا الحالي، مستشركة نظرت بعين الإنصاف إلى حضارة الإسلام وتاريخه وعقيدته، وبنت مواقفها وآراءها بحرية وعدالة، دون التأثير بالدعايات الكاذبة، التي يروجها الإعلام والفكر الغربي عن الإسلام ونبیه وحضارته.

إنها الباحثة ”لورا فيشيا فاغليري“ التي تعدّ من أوائل المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام ونبیه وحضارته، ظهوراً على مسرح الفكر الاستشراقي المعاصر، فقد درست الإسلام بروح متفتحة يخالطها نزاهة الفكر والمنطق، وحرّكتها عواطف الإعجاب الشديد بالأصول والأخلاق الإسلامية، كما هالتها الآراء التي تمتلئ بها كتب المستشرقين، والتي تعبّر عن جهل بالغ أو تجاهل مقصود لقيّم الإسلام وحقيقة النبوة المحمدية.

وبعد دراسة مستفيضة حول الإسلام وتاريخه وحضارته، عازمت على التصدي للدعايات الكاذبة في الثقافة الغربية، وتفنيد الأكاذيب والمغالطات التي تثار حول الإسلام، وتقديم هذا الدين من نبعه الصافي لمجتمعها الغربي، فانطلقت في كتابة الأبحاث والمؤلفات التي بلغت شهرتها الآفاق، ووضعتها في مدارج الباحثين والمستشرقين الأحرار الذين عشقوا الإسلام، وصاروا من دعاة المخلصين بفكرهم النزيه.

ولقد جاء مؤلفها الشهير، «دفاع عن الإسلام»، والذي يدلّ عنوانه بوضوح عن موقفها المبدئي من هذا الدين، وهدفها من الكتابة فيه، فهو من أوله إلى آخره بيان لحقيقة الإسلام الذي يحله الغربيون، وردّ على جميع الاتهامات الاستشراقية الرائجة في المجتمعات الغربية عن هذا الدين ونبیه وحضارته.

والمعلومات المتاحة لدينا عن فاغليري وسيرتها الذاتية، تشير إلى أنها ولدت بايطاليا سنة 1893م، وانصرفت إلى دراسة التاريخ الإسلامي قديماً وحديثاً، وإلى فقه العربية وآدابها،

وعملت أستاذةً للغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية في جامعة نابولي، وقدمت في هذا الشأن العديد من المؤلفات، منها كتاب «قواعد العربية» في جزئين عام 1937 وعام 1941م، وكتاب «الإسلام» عام 1946م، ثم كتابها الهام «دفاع عن الإسلام»، والذي صدر باللغة الإيطالية عام 1952م، ثم ترجم إلى الإنجليزية، وهو من أكثر الكتب الاستشرافية إنصافاً للإسلام ورسوله، هذا إلى جانب العديد من الدراسات في المجلات الاستشرافية المعروفة.

• القرآن المعجزة العظمى

وإذا أردنا الوقوف على فكر فاغليري ومواقفها تجاه الإسلام، لن نجد إلا هذا الكتاب كمصدر وحيد، إلى جانب بعض الآراء المتنثرة هنا وهناك في المجلات الاستشرافية، وفي اللقاءات والندوات والمؤتمرات التي شاركت فيها.

ففي الكتاب نجدها تتحدث عن القرآن الكريم بصدق عظيم، فتعتبره معجزة بكلِّ المقاييس، تقول: «إنَّ معجزة الإسلام العظمى هي القرآن، الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة من خلاله، أنباء تتصف بيقين مطلق. إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته. إنَّ كلاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي. أمّا أسلوبه فأصيل فريد، وليس ثمة أيّما غمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي، تحدر إلينا من العصور التي سبقت، والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية، إنما يتم من غير أيّما عوض عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي. إنَّ آياته كلّها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات، لابدَّ أن تؤثر في نفْسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي، وما إليها. إنه يكرّر قصص الأنبياء، عليهم السلام، وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكن يكرّرها على نحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته. إننا نقع هنا على العمق والعدوبة معاً - وهما صفتان لا تجتمعان عادة - حيث تجد كلّ صورة بلاغية تطبيقاً كاملاً، فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد ﷺ، وهو العربي الأمي الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات، لا ينمّ أي منها عن أدنى موهبة شعرية؟».

ثم تقول : «لا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهي في هذه الحقيقة : وهي أنَّ نصّه ظلّ صافياً غير محرف طوال القرون، التي تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا، وأنّ نصه سوف يظلّ على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف، بإذن الله، مادام الكون».

وقالت : «من حسن الطالع أنَّ الجمود مرض لابدَّ أن يزول، بل إنه في الواقع شرع يزول في ما يبدو. فإلى الكتاب العزيز الذي لم يحرفه قطّ، لا أصدقاؤه ولا أعداؤه، لا المثقفون ولا الأميون، ذلك الكتاب الذي لا يبليه الزمان، والذي لا يزال إلى اليوم كعهده يوم أوحى الله به إلى الرسول الأمي البسيط، آخر الأنبياء حملة الشرائع عليهم السلام، إلى هذا المصدر الصافي دون غيره سوف يرجع المسلمون، حتى إذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس، فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب. وثمة بينات قوية على أنَّ هذه العملية قد بدأت فعلاً».

ثم تقول : «إنَّ هذا الكتاب، الذي يتلى كلَّ يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يوقع في نفس المؤمن أيَّما حسّ بالملل، على العكس، إنه من طريق التلاوة المكررة، يحبب نفسه إلى المؤمنين أكثر فأكثر، يوماً بعد يوم، إنه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي إليه حساً عميقاً من المهابة والخشية. إنَّ في إمكان المرء أن يستظهره في غير عسر، حتى إننا لنجد اليوم، على الرغم من انحسار موجة الإيمان، آلافاً من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب. وفي مصر وحدها عدد الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأنجيل عن ظهر قلب في أوروبا كلها».

وتقول : «كيف يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمّد، وهو العربي الأمي؟.. وعلى الرغم أنَّ محمّداً دعا خصوم الإسلام إلى أن يأتوا بكتاب مثل كتابه، أو على الأقلّ بسورةٍ من مثل سوره : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽¹⁾.. وعلى الرغم من أنَّ أصحاب البلاغة والبيان الساحر كانوا غير قلائل في بلاد العرب، فإنَّ أحداً لم يتمكن من أن يأتي بأيّ أثر يضاها القرآن. لقد قاتلوا النبيّ بالأسلحة، لكنهم عجزوا عن مضاهاة السموّ القرآني».

وهي تذكر مدى انسجام ما ذكره القرآن من الكونيات مع البحث العلمي، فتقول: «وفيما يتصل بخلق الكون، فإن القرآن على الرغم من إشارته إلى الحالة الأصلية، وإلى أصل العالم.. لا يقيم أيّما حدّ مهما يكن في وجه قوى العقل البشري، ولكنه يتركها طليقة تتخذ السبيل الذي تريد..»⁽²⁾.

(1) البقرة : 23.

(2) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ترجمة منير البعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، ط5، 1981م)، ص 56-60، نقلاً عن: عماد الدين خليل، قالوا عن الإسلام (الرياض : الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط1، 1992م)، ص 75-76، وللاستزادة انظر: نور الدين أبو لحية، قلوب مع محمد (القاهرة: دار الكتاب الحديث، ط1، دت)، ص 538-544.

• الدعوة وانتشار الإسلام

وعن شهادتها للدعوة الإسلامية، وكيفية انتشار الإسلام، تبين سرّ الانتشار السريع لهذا الدين العالمي، فتقول: «إنّ انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة. إنّ الذي أدى إلى ذلك الانتشار، كون الكتاب الذي قدمه المسلمون للشعوب المغلوبة، مع تخييرها بين قبوله ورفضه، كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان في ميسور محمد، ﷺ، أن يقدمها إلى المترددين في هذه الأرض»⁽¹⁾.

وعن عالمية الإسلام تقول: «إنّ الآية القرآنية التي تشير إلى عالمية الإسلام بوصفه الدين الذي أنزله الله على نبيه (رحمة للعالمين)؛ هي نداء مباشر للعالم كلّ، وهذا دليل ساطع على أنّ الرسول شعر في يقين كافي أنّ رسالته مقدر لها أن تعدو حدود الأمة العربية، وأنّ عليه أن يبلغ (الكلمة) الجديدة إلى شعوب تنتسب إلى أجناس مختلفة، وتتكلم لغات مختلفة»⁽²⁾.

وقالت: «بفضل الإسلام هزمت الوثنية في مختلف أشكالها، لقد حرّر مفهوم الكون وشعائر الدين وأعراف الحياة الاجتماعية من جميع الهولاء أو المسوخ التي كانت تحطّ من قدرها، وحرّرت العقول الإنسانية من الهوى. لقد أدرك الإنسان آخر الأمر مكانته الرفيعة.. لقد حرّرت الروح من الهوى، وأطلقت إرادة الإنسان من القيود، التي طالما أبقتة موثقاً إلى إرادة أناس آخرين، أو إلى إرادة قوى أخرى يدعونها خفية. لقد هوى الكهان، وحفظه الألغاز المقدسة الزائفون، وسماسة الخلاص، وجميع أولئك الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والإنسان، والذين اعتقدوا بالتالي أنّ سلطتهم فوق إرادات الآخرين، لقد هوى هؤلاء كلّهم عن عروشهم. إنّ الإنسان أمسى خادماً لله وحده، ولم تعد تشدّه إلى الآخرين من الناس غير التزامات الإنسان الحرّ نحو الإنسان الحرّ. وبينما قاسى الناس في ما مضى مظالم الفروق الاجتماعية، أعلن الإسلام المساواة بين البشر، لقد جعل التفاضل بين المسلمين، لا على أساس من المحتد أو أي عامل آخر غير شخصية المرء، ولكن على أساس من خوف الله، وأعماله الصالحات، وصفاته الخلقية والفكرية ليس غير»⁽³⁾.

(1) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، مرجع سابق، ص 33.

(2) المرجع السابق، ص 24-25.

(3) المرجع السابق، ص 45-47.

• ظاهرة الفتوحات الإسلامية

ثم نتحدث فاغليري عن الفتوحات الإسلامية والسمات التي تميزت بها، فتقول: "إنَّ التاريخ لم يشهد، قطً، ظاهرة مثل ظاهرة الفتوحات هذه من قبل، ومن العسير على المرء أن يقدر السرعة التي حقّق بها الإسلام فتوحه، والتي تحول بها من دين يعتنقه بضعة نفر من المتحمسين إلى دين يؤمن به ملايين الناس. ولا يزال العقل البشري يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السرية التي مكنت جماعة من المحاربين.. من الانتصار على شعوب متفوقة عليه، تفوقاً كبيراً في الحضارة والثروة والخبرة والقدرة على شن الحرب. ومن أدعى الأمور إلى الدهشة أن نلاحظ كيف استطاع أولئك الناس أن يحتلوا تلك المناطق كلّها، وأن يثبتوا بعد ذلك فتوحهم على نحو جعل، حتى الحروب المتعاقبة قرناً بعد قرن، عاجزة عن إخراجهم منها، وكيف استطاعوا أن يلهبوا نفوس أتباعهم بتلك الحماسة الفائقة لمثلهم العليا، وأن يحتفظوا بحيوية نابضة لم تعرفها الأديان الأخرى، حتى بعد انقضاء عشرة قرون على وفاة محمد، وأن يفرغوا في عقول أتباعهم، على الرغم من انتسابهم إلى عصر وثقافة مختلفين كل الاختلاف عن عصر المسلمين الأولين وثقافتهم، إيماناً متقدماً لا يحجم عن القيام بأيما تضحية مهما غلّت" (1).

وقالت أيضاً: «لقد تحرك الجيش الإسلامي في سرعة، وتتابع المعارك، وبدا النجاح وكأنه قد جعل لأقدام الفاتحين أجنحة: فقد ترددت في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان أصداء الأنبياء البهيجة، الحاملة بشائر الانتصارات الرائعة. وقد اتبعت هذه الانتصارات بتنظيم البلدان المفتوحة، وتوطيد أقدام العرب فيها. ولم يكن هذا الصنيع أقلّ إعجازاً من الفتوح نفسها. لقد قوضت حضارتان وزعزع دينان، وإذا بفيض جديد من حياة عارمة يتدفق في عروق تلك الشعوب الخائرة القوى. لقد تجلى أمام عيون العالم المندهش دين جديد بسيط سهل، يخاطب القلب والعقل جميعاً، وأقيم شكل جديد من أشكال الحكومة، كان أسمى إلى حد بعيد - في خصائصه ومبادئه الأخلاقية - من تلك المعروفة في ذلك العصر. وبدأ الذهب الذي كان مخبوءاً في صناديق السراة ينتقل إلى أيدي الفقراء، مستهلاً نظاماً في التداول السليم كرة أخرى، وفي ظلّ من حكومة تسيرها مثل عليا ديمقراطية أمينة، وجد الرجال المثقفون البارعون الأذكياء تشجيعاً من النظام الجديد، فاستطاعوا أن يبلغوا أسمى المناصب العامة.

(1) المرجع السابق، ص 22.

ومن الممكن القول، في اطمئنان، إن البلاد المفتوحة عرفت - على الرغم من بعض الحالات المحتومة النادرة، التي تجاوز فيها الجند حدودهم أثناء الفتح - عهداً من الرخاء والازدهار، وشهدت غنى لم تشهده آسيا منذ قرون طويلة. وإلى هذا فقد نعمت حياة الشعوب المغلوبة، وحقوق المدنية وأموالها بدرجة من الحماية، تقارب تلك التي نعم بها المسلمون أنفسهم»⁽¹⁾.

ثم تقول : «أزعج التحول السياسي والديني العميق الذي أحدثته الفتوحات، طائفة من الناس، فراحوا يتساءلون ما الذي أدى إلى حدوثه، ولكن كثيراً منهم كانوا عمياً، أو كانوا يغمضون أعينهم عمداً هائمين طويلاً، وعلى نحو يائس في متاهة التخمينات الخاطئة. إنهم لم يستطيعوا أن يدركوا أنَّ القوة الإلهية وحدها كان في ميسورها أن تقدم الحافز الأول لمثل هذه الحركة الواسعة. إنهم لم يريدوا أن يعتقدوا أنَّ حكمة الله وحدها كانت مسؤولة عن رسالة محمد، آخر الأنبياء الكبار حملة الشرائع عليهم السلام، والنبي الذي ختم سلسلتهم إلى الأبد. أنَّ مثل هذه الرسالة كان يتعين عليها أن تكون رسالة عالمية لجميع أفراد الجنس البشري من غير تمييز، وعلى اختلاف الجنسيات والأوطان والأعراق. لقد كان أولئك إمّا عمياً، وإما غير راغبين في أن يروا»⁽²⁾.

وتقول : «كان العرب المنتصرون مستعدين دائماً - حتى وهم في أوج قوتهم وانتصارهم - لأن يقولوا لأعدائهم : (ألقوا السلاح وادفعوا جزية يسيرة نسبغ عليكم حماية كاملة. أو اتخذوا الإسلام ديناً وادخلوا في ملتنا تتمتعوا بالحقوق نفسها التي نتمتع بها نحن). وإذا نظرنا إلى ما أوحى إلى محمد أو إلى الفتوح الإسلامية الأولى، سهل علينا أن نرى مدى الخطأ الذي ينطوي عليه الاتهام القائل بأن الإسلام فرض بالسيف، وأن انتشاره السريع الواسع لا يمكن تفسيره إلا بهذه الوسيلة»⁽³⁾.

• التسامح وحرية المعتقد

وقالت : «كان المسلمون لا يكادون يعقدون الاتفاقات مع الشعوب حتى يتركوا لها حرية المعتقد، وحتى يحجموا عن إكراه أحد من أبنائها على الدخول في الدين الجديد. والجيوش الإسلامية ما كانت تتبع بحشد من المبشرين الملحاحين غير المرغوب فيهم، وما

(1) المرجع السابق، ص 26-28.

(2) المرجع السابق، ص 28.

(3) المرجع السابق، ص 32.

كانت تضع المبشرين في مراكز محاطة بضروب الامتياز، لكي ينشروا عقيدتهم أو يدافعوا عنها. ليس هذا فحسب. بل لقد فرض المسلمون، في فترة من الفترات، على كل راغب في الدخول في الإسلام، أن يسلك مسلكاً لا يساعد من غير ريب على تيسير انتشار الإسلام. ذلك أنهم طلبوا إلى الراغبين في اعتناق الدين الجديد أن يمثلوا أمام القاضي، ويعلنوا أن إسلامهم لم يكن نتيجة لأي ضغط، وأنهم لا يهدفون من وراء ذلك إلى أي كسب دنيوي. والواقع أن اليهود والنصارى لم يمنحوا حرية المعتقد الديني فحسب، بل عهد إليهم في تولي المناصب الحكومية حين كانت مؤهلاتهم الشخصية من القوة، بحيث تلفت انتباه الحاكمين»⁽¹⁾.

وتقول أيضاً متعجبة من الجاذبية التي كانت للإسلام التي تؤكد بطلان مقولة السيف: «كيف نفسر مواصلة الإسلام - على الرغم من الحرية الدينية الممنوحة في البلدان الإسلامية للمواطنين غير المسلمين، ومن فقدان أيها منظمة تبشيرية حقيقة - تقدّمه الحثيث في آسية وأفريقيا في وجه الانحطاط العام، الذي أصاب الفكرة الدينية في السنوات الأخيرة؟ إنَّ أحداً لا يستطيع اليوم أن يزعم أنَّ سيف الفاتح هو الذي يُهد السبيل أمام الإسلام، على العكس، ففي الأصقاع التي كانت في يوم من الأيام دولاً إسلامية، تولت مقاليد السلطة حكومات جديدة تنتسب إلى أديان أخرى، وعملت في أوساط المسلمين طوال فترات عديدة منظمات تبشيرية قوية، ومع ذلك فإنَّ الحكومات وتلك المنظمات لم توفق إلى زحزحة الإسلام، وإقصائه عن حياة الشعوب الإسلامية. أي قوة عجيبة تكمن في هذا الدين؟»⁽²⁾.

وتتحدث عن هزيمة الإسلام للوثنية، فتقول: «بفضل الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هزمت الوثنية في مختلف أشكالها، لقد أدرك الإنسان آخر الأمر مكانته الرفيعة، لقد هوى الكهان وحفظه الألغاز المقدسة الزائفون، وسماسة الخلاص، وجميع أولئك الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والإنسان، والذين اعتقدوا بالتالي أنَّ سلطتهم فوق إرادات الآخرين، لقد هوى هؤلاء كلّهم عن عروشهم، إنَّ الإنسان أمسى عبداً لله وحده، وأعلن محمد باسم الإسلام المساواة بين البشر»⁽³⁾.

ثم تقول عن سرعة انتشار الإسلام: «إنَّ التاريخ لم يشهد قطُّ ظاهرة مثل هذه من قبل. ومن العسير على المرء أن يقدر السرعة التي حقّق بها الإسلام فتوحه، والتي تحوّل بها

(1) المرجع السابق، ص 35-36.

(2) المرجع السابق، ص 40.

(3) أحمد مراد، شاهد من أهلها.. لورا فيشيا: محمد الصادق الطاهر الأمين، جريدة (الاتحاد) (الامارات العربية المتحدة)، 14 يوليو 2015م، في: <http://www.alittihad.ae/details.php?id=67557&y=2015&article=full>

من دين يعتنقه بضعة نفر من المتحمسين، إلى دين يؤمن به ملايين الناس. ولا يزال العقل البشري يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السريّة، التي مكّنت جماعة من المحاربين الجفّة من الانتصار على شعوب متفوّقة عليها، تفوّقاً كبيراً في الحضارة والثروة والخبرة، والقدرة على شنّ الحرب»⁽¹⁾.

• دفاع عن النبي

وتدافع فاغليري عن النبي محمد ﷺ ضدّ منتقديه من أعداء الإسلام وأدعياء الغرب، فتقول في شهادتها، كما جاء في كتابها «دفاع عن الإسلام»: «حاول أقوى أعداء الإسلام - وقد أعماهم الحقد - أن يرموا نبي الله ببعض التهم المفضرة، لقد نسوا أنّ محمداً كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال العظيم من مواطنيه، بسبب أمانته وطهارة حياته، ومن عجب أنّ هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل، كيف جاز أن يقوى محمد على تهديد الكاذبين والمرائين في بعض آيات القرآن، لو كان هو قبل ذلك رجلاً كذاباً؟ كيف يجرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحته - وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة - حثاً موصولاً؟، كيف استطاع أن يستهل صراعاً كان يبدو يائساً؟، كيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات في مكة، في نجاح قليل جداً وفي أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمناً إيماناً عميقاً بصدق رسالته؟، كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه ويدخلوا الدين الجديد، ويشدوا أنفسهم بالتالي إلى مجتمع مؤلف في كثرته من الأرقاء والضعفاء، والفقراء المعدمين، إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟، ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أنّ صدق محمد كان عميقاً وأكيداً».

وتضيف: «كان محمد ﷺ المتمسك دائماً بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة، لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، بالأناة دائماً، اعتقاداً منه بأن الزمن سيتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور، لقد عرف جيداً أنّ الله، سبحانه، لا بدّ أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري، لقد دعا الرسول العربي بصوت ملهم باتصال عميق بربه، دعا عبدة الأوثان وأتباع نصرانية ويهودية محرفتين، إلى

(1) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، مرجع سابق، ص 22.

أصفى عقيدة توحيدية، وارتضى أن يخوض صراعاً مكشوفاً مع بعض نزعات البشر الرجعية التي تقود المرء إلى أن يشرك بالخالق آلهة أخرى»⁽¹⁾.

وفي الكتاب نفسه، فندت فاغليري الشبهات التي أثارها الغرب حول زيجات الرسول، فتقول : «إنَّ محمداً ﷺ طوال سنين الشباب التي تكون فيها الغريزة الجنسية أقوى ما تكون، وعلى الرغم من أنه عاش في مجتمع كمجتمع العرب، حيث كان الزواج، كمؤسسة اجتماعية، مفقوداً أو يكاد، وحيث كان تعدد الزوجات هو القاعدة، وحيث كان الطلاق سهلاً إلى أبعد الحدود، لم يتزوج إلا من امرأة واحدة، هي خديجة التي كانت سنّها أعلى من سنّه بكثير، وأنه ظلّ طوال خمس وعشرين سنة زوجها المخلص المحبّ، ولم يتزوج مرّة ثانية، وأكثر من مرّة، وبعد أن توفيت خديجة، وبعد أن بلغ الخمسين، لقد كان لكلّ زواج من زيجاته سبب اجتماعي أو سياسي، ذلك بأنّه قصد من خلال النسوة اللاتي تزوجهن إلى تكريم النسوة المتصفات بالتقوى، أو إلى إنشاء علاقات زوجية مع بعض العشائر والقبائل الأخرى، ابتغاء طريق جديد لانتشار الإسلام، وباستثناء عائشة، تزوج محمد من نسوة لم يكن لا عذارى، ولا شابات، ولا جميلات، فهل كان ذلك شهوانية؟. لقد كان رجلاً لا إلهاً، التزم دائماً سبيل المساواة الكاملة نحوهم جميعاً، ولم يلجأ قط إلى اصطناع حقّ التفاوت مع أيّ منهم، لقد تصرف متأسياً بسنة الأنبياء القدماء مثل موسى وغيره، الذين لا يبدو أنّ أحداً من الناس يعترض على زواجهم المتعدد، فهل يكون مرد ذلك إلى أننا نجهل تفاصيل حياتهم اليومية، على حين نعرف كلّ شيء عن حياة محمد العائلية»⁽²⁾.

• الحضارة الإسلامية

ثم نجد شهادتها للحضارة الإسلامية وعظمتها، وما حققته من إنجازات على مستويات الحياة كافة، ومن ذلك قولها: «كيف نستطيع أن نقول إنّ الإسلام عاق نمو الثقافة في القرون السالفة، ونحن نعلم أنّ بلاطات الإسلام ومدارسه، كانت آنذاك منارات ثقافة لأوروبا الغارقة في ظلمات القرون الوسطى، وأنّ أفكار الفلاسفة العرب بلغت آنذاك منزلة رفيعة، جعلت العلماء الغربيين يقتفون آثارهم، وأنّ هارون الرشيد أصدر أمره آنذاك بأنّ يلحق بكلّ مسجد مدرسة، يتلقى فيها الطلاب مختلف العلوم، وأنّ المكتبات الحافلة بمئات

(1) المرجع السابق، ص 38-43.

(2) المرجع السابق، ص 99-100.

الآلاف من الكتب، كانت مشرعة الأبواب آنذاك في وجه العلماء والدارسين في طول العالم الإسلامي وعرضه، ألم يكن العرب أول من اصطنعوا الطرائق التجريبية قبل أن يعلن بيكون ضرورتها بزمان طويل؟ وتطور الكيمياء، وعلم الفلك، ونشر العلم الإغريقي، وتعزيز دراسة الطب، واكتشاف مختلف القوانين الفيزيائية، أليست هذه من مآثر العرب؟⁽¹⁾.

وتقول : «نشأ الإسلام، مثل ينبوع من الماء الصافي النмир، وسط شعب همجي يحيا في بلاد منعزلة جرداء، بعيدة عن ملتقى طرق الحضارة والفكر الإنساني. وكان ذلك ينبوع غزيراً إلى درجة جعلته يتحول، وشيكاً، إلى جدول، ثم إلى نهر، ليفيض آخر الأمر فتتفرع منه آلاف القنوات تتدفق في البلاد».

«وفي تلك المواطن التي ذاق فيها القوم طعم تلك المياه العجيبة، سويت المنازعات، وجمع شمل الجماعات المتناحرة. وبدلاً من الثأر الذي كان هو القانون الأعلى، والذي كان يشدّ العشائر المنحدرة من أصل واحد في رابطة متينة، ظهرت عاطفة جديدة، هي عاطفة الأخوة بين أناس تشدّ بعضهم إلى بعض مثل عليا مشتركة من الأخلاق والدين. وما إن أمسى هذا ينبوع نهرًا لا سبيل إلى مقاومته، حتى طوق تياره الصافي العنيف ممالك جبارة تمثل حضارات قديمة. وقبل أن توفق شعوب تلك الممالك إلى إدراك مغزى الحدث الحقيقي، داهمها ذلك التيار، قاهراً البلاد، محطماً الحواجز، موقظاً بصخبه عقولاً وسنى، منشئاً من أكبر عدد من الشعوب المتباينة، مجتمعاً موحداً⁽²⁾».

وقد ناقشت فاغليري في كتابها، اتهام الإسلام بالحسّية، ومن المعروف أنها تهمة شائعة لدى جمهور المستشرقين، ولكن اختص بها بشكل واضح المستشرق اليهودي (إينياس جولد زيهر)، الذي جعلها أحد أسباب كرهه الشخصي للإسلام، فتقول: «ومن الضروري أن ندحض هنا اتهاماً آخر يوجّهه غير المؤمنين إلى الإسلام، وهو أنه وعد أصحابه بجنة حسّية ذات حور عين وأنهار من لبن وعسل...، والواقع أنّ مثل هذه الاتهامات تنسى أنه لم يكن في ميسور أبناء الصحراء، أن يفهموا وعوداً بمكافآت روحية مُرهفة إلى أبعد الحدود، لقد كان من الضروري إعطاؤهم وصفاً واقعياً للجنة، وصفاً يكاد يكون ملموساً، وفي كلمات يسيرة، وما كان ممكناً - إلاّ فيما بعد، عندما بلغوا مستويات روحية أسمى - أن يخاطب البدو بلغة التعبد لله في ضعة وحبّ، بيد أنه لمن البهتان البالغ القول: إنّ محمداً وأتباعه

(1) المرجع السابق، ص 13.

(2) المرجع السابق، ص 21.

فهّموا هذه الأوصاف الواقعية فهماً حقيقياً؛ لأنهم منذ البدء وجدوا فيها معنى أعمق من ذلك الذي يستطيع الوصف إظهاره»⁽¹⁾.

• المرأة المسلمة والحجاب

وبينما نرى بعض المسلمين ينكرون الحجاب أو يقلّلون من فرضيته على النساء، وهو واجب في حقّهن، كما هو ثابت من إجماع الأمة، تنطق هذه الباحثة الإيطالية بكلام فيه إنصاف لمكانة المرأة في الإسلام، وهو كلام مكرّر من عدد من المستشرقين والمستشرقات الغربيين، الذين كتبوا بعدالة ونزاهة في هذه القضية، ولعل كلام امرأة في حقّ امرأة أبلغ وأقوى في عرض هذه المسألة، لاسيما وأنها مستشرقة معاصرة، وتعلم بواقع المسلمين والمسلمات في عصرنا الحديث.

تقول في كتابها «دفاع عن الإسلام» متحدثة عن الحجاب، وعن مكانة المرأة في الشريعة الإسلامية، وفي الشعوب العربية: «اجتناباً للإغراء بسوء ودفعاً لنتائجه، يتعيّن على المرأة المسلمة أن تتخذ حجاباً، وأن تستر جسدها كلّها، ما عدا تلك الأجزاء التي تعتبر حريتها ضرورة مطلقة كالعينين والقدمين. وليس هذا ناشئاً عن قلّة احترام للنساء، أو ابتغاء كبت إرادتهن، ولكن لحمايتهن من شهوات الرجال. وهذه القاعدة العريضة في القدم، القاضية بعزل النساء عن الرجال، والحياة الأخلاقية التي نشأت عنها، قد جعلتا تجارة البغاء المنظمة مجهولة بالكلية في البلدان الشرقية، إلّا حيثما كان للأجانب نفوذ أو سلطان. وإذا كان أحد لا يستطيع أن ينكر قيمة هذه المكاسب، فيتعين علينا أن نستنتج أنّ عادة الحجاب.. كانت مصدر فائدة لا تثنى للمجتمع الإسلامي. وإذا كانت المرأة قد بلغت من وجهة النظر الاجتماعية في أوروبا مكانة رفيعة، فإنّ مركزها شرعياً على الأقل، كان حتى سنوات قليلة جدّاً، ولا يزال في بعض البلدان، أقلّ استقلالاً من المرأة المسلمة في العالم الإسلامي. إنّ المرأة المسلمة إلى جانب تمتعها بحقّ الوراثة مثل إختوتها، ولو بنسبة أصغر، وبحقّها في أن لا تزف إلى أحد إلّا بموافقتها الحرّة، وفي أن لا يسيء زوجها معاملتها، تتمتع أيضاً بحقّ الحصول على مهر من الزوج، وبحقّ إعالتها إياها، وتتمتع بأكمل الحرية، إذا كانت مؤهلة لذلك شرعياً، في إدارة ممتلكاتها الشخصية»⁽²⁾.

(1) نبوة محمد، ص 202-203، نقلاً عن كتاب دفاع عن الإسلام؛ لورا فيشيا فاغليري، في: ياسر تاج الدين حامد، من المستشرقين المنصفين والمهتدين، شبكة اللوكة، 3 أكتوبر 2015م، في: <http://www.alukah.net/culture/0/92592>

(2) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، مرجع سابق، ص 103-106، في: عماد الدين خليل، (قالوا عن الإسلام)، مرجع سابق، ص 420-421.

وتتحدث عن الزواج وتعدد الزوجات في الإسلام فتقول: «في ما يتصل بالزواج، لا تطالب السنة الإسلامية بأكثر من حياة أمينة إنشائية يسلك فيها المرء منتصف الطريق، متذكراً الله من ناحية، ومحترماً حقوق الجسد والأسرة والمجتمع وحاجاتها من ناحية ثانية».

ثم تقول: «انه لم يقم الدليل حتى الآن، بأي طريقة مطلقة، على أن تعدد الزوجات هو بالضرورة شر اجتماعي، وعقبة في طريق التقدم. ولكننا نؤثر ألا نناقش المسألة على هذا الصعيد، وفي استطاعتنا أيضاً أن نصر على أنه في بعض مراحل التطور الاجتماعي، عندما تنشأ أحوال خاصة بعينها، كأن يقتل عدد من الذكور ضخم إلى حد استثنائي في الحرب مثلاً، يصبح تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية، والحق أن الشريعة الإسلامية التي تبدو اليوم وكأنها حافلة بضروب التساهل في هذا الموضوع، إنما قيدت تعدد الزوجات بقيود معينة، وكان هذا التعدد حرّاً قبل الإسلام، مطلقاً من كل قيد. لقد شجب الإسلام بعض أشكال الزواج المشروط والمؤقت، التي كانت في الواقع أشكالاً مختلفة للتسري الشرعي (المعاشرة من غير الزواج)، وفوق هذا منح الإسلام المرأة حقوقاً لم تكن معروفة قط من قبل».

وتقول أيضاً: «القرآن يبيح الطلاق، ومادام المجتمع الغربي قد ارتضى الطلاق أيضاً، واعترف به في الواقع كضرورة من ضرورات الحياة، وخلع عليه في مكان تقريباً صفة شرعية كاملة، ففي ميسورنا أن نغفل الدفاع عن اعتراف الإسلام به، ومع ذلك فإننا بدراستنا له، وبمقارنتنا بين عادات العرب بالجاهلية وبين الشريعة الإسلامية، نفوز بفرصة تظهر فيها أن القانون الإسلامي قد دشّن في هذا المجال أيضاً إصلاحاً اجتماعياً. فقبل عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان العرف بين العرب قد جعل الطلاق عملاً بالغ السهولة.. أمّا القانون الإلهي فقد سنّ بعض القواعد التي لا تجيز إبطال الطلاق فحسب، بل التي توصي به في بعض الأحوال.. وليس للمرأة حق المطالبة بالطلاق، ولكنها قد تلتمس فسخ زواجها باللجوء إلى القاضي، وفي إمكانها أن تفوز بذلك إذا كان لديها سبب وجيه يبرره. والغرض من هذا التقييد لحق المرأة في المبادرة، هو وضع حد لممارسة الطلاق، لأن الرجال يعتبرون أقل استهدافاً لاتخاذ القرارات تحت تأثير اللحظة الراهنة من النساء. وكذلك جعل تدخل القاضي ضماناً لحصول المرأة على جميع حقوقها المالية الناشئة عن إنجاز فسخ الزواج. وهذه القاعدة، والقاعدة الأخرى التي تنص على أنه في حال نشوب خلاف داخل الأسرة يتعين اللجوء إلى بعض الموفقين، ابتغاء الوصول إلى تفاهم، تهضمان دليلاً كافياً على أن الإسلام يعتبر الطلاق عملاً جديراً باللوم والتعنيف. والآيات القرآنية تقرّر ذلك في صراحة بالغة... وثمة أحاديث نبوية كثيرة تحمل الفكرة نفسها...»⁽¹⁾.

(1) المرجع السابق، ص 88 - 103، نقلاً عن: عماد الدين خليل، (قالوا عن الإسلام)، مرجع سابق، ص 419 - 420.

الفصل الخامس

من بريطانيا.. الليدي ايفلين كوبولد

ورحلة البحث عن الله

الليدي "ايفلين كوبولد" كاتبة وشاعرة بريطانية، وواحدة من عظماء الغرب الذين اهتموا إلى الإسلام في الثلث الأول من القرن العشرين، وكان لهم دور بارز في إظهار عظمة الحضارة الإسلامية، وما تمثله من أهمية كبيرة في حلّ المشكلات التي يعيشها المجتمع الغربي اليوم على المستويين الروحي والاجتماعي.

وقد اشتهرت كوبولد، بين أهل المقاطعة التي تعيش فيها، يوم وفاتها سنة 1963م، وهي في الخامسة والتسعين من عمرها، حيث ماتت بمدينة جيلية باسكتلندا، وأوصت قبل وفاتها بأن تدفن في قمة تلة بالمقاطعة، وألا يسير أي رجل دين مسيحي في جنازتها، ويتمّ الدفن باللغة العربية، وتقرأ آيات من القرآن في الجنازة، ويكون قبرها باتجاه القبلة، ويكتب على القبر الآية الكريمة "الله نور السماوات والأرض" ..

وفي يوم 1 فبراير 1963م، نشرت إحدى الصحف البريطانية اليومية التي تصدر في المقاطعة، (جريدة أبردين) تقول: "دفن إسلامي في أعالي الهضاب.. الليدي كوبولد كانت حاجة".

• سيرة ذاتية

وإيفلين هي نبيلة أرستقراطية اسكتلندية، ولدت في ادنبره بانجلترا عام 1867م، ووالدها هو تشارلز موراي أدولفس، الاسكتلندي الشهير الذي سافر إلى العديد من أنحاء العالم، وأحياناً كانت ابنته ترافقه في رحلاته، وأمّها هي الإنكليزية "جيرترود".

وقد ارتبطت إيفلين بالعالم العربي والإسلامي منذ نعومة أظافرها، نتيجة لكثرة الأسفار التي كانت تقوم بها أسرتها إلى شمال أفريقيا والقاهرة، فأسرتها كثيراً ما كانت تقضي فصل الشتاء في الجزائر، وهناك تعلمت إيفلين اللغة العربية منذ طفولتها، وعاشت

ولعبت مع الأطفال الجزائريين، وكانت ترى نفسها "طفلة مسلمة في الواقع"، ولكنها لما غادرت الجزائر إلى أوروبا نسيت اللغة العربية التي تعلمتها، ونسيت الأطفال التي كانت تلعب معهم.

وفي سنّ الرابعة والعشرين، تزوجت إيفلين من "جون دوبوي"، وهو سليل عائلة ثرية تعيش في شرق إنجلترا، وتمّ الزواج في كنيسة بالقاهرة عام 1891م، وذهبت للعيش معه في منزله الجديد بايست انجليا، وأنجبت ثلاثة أطفال بين عامي 1893 و 1900م، وفي عام 1911م سافرت مع زوجها إلى الصحراء الليبية، والصحراء الغربية في مصر، وكان في الثالثة والأربعين من عمرها، وسجلت تجربتها هذه في كتاب "المسافرون في الصحراء الليبية".

وخلال الفترة من عام 1914م، وعام 1915م، قامت كوبولد بزيارات لمصر وسوريا، وبدأت تقترب من الإسلام، وارتبطت بصداقات مع البريطانيين المسلمين، ثم أشهرت إسلامها عام 1920م، واختارت لنفسها اسم "زينب كوبولد"، وأعلنت إعجابها الشديد بالمنهج الإسلامي في العقيدة والشريعة والسلوك، وكان ذلك سبباً في القطيعة بينها وبين أسرتها، حيث انفصلت عن زوجها رسمياً عام 1922م.

وبعد إسلامها وضعت كتاباً هاماً تحت عنوان "البحث عن الله"، سوف نعتمد عليه بشكل أساس في الوقوف على أفكارها، ومعتقداتها حول الإسلام وحضارته.

• الإسلام دين الفطرة

أمّا عن قصة هدايتها للإسلام، فتقول كوبولد: "كثيراً ما سئلت: متى ولماذا أسلمت؟، وأستطيع الإجابة بأني لا يمكنني تحديد اللحظة الحاسمة التي أشرق فيها نور هذا اليقين على قلبي، ويصعب عليّ تحديد الوقت الذي سطعت فيه حقيقة الإسلام أمامي، فارتضىته ديناً، ويغلب على ظني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى، ولا عجب في هذا، إذا علمنا أنّ الإسلام دين الفطرة يشبّ عليه الطفل إذا ترك على فطرته، وقد صدق أحد علماء الغرب إذ يقول: "الإسلام دين العقل والفطرة"...⁽¹⁾.

وكلمّا زادت دراساتي وقراءتي عن الإسلام، زاد يقيني في تميزه عن الأديان الأخرى، بأنه أكثرها ملاءمة للحياة العملية، وأقدرها على حلّ مشكلات العالم العديدة والمعضلة،

(1) إيفلين كوبولد، البحث عن الله، تحقيق: محمد أحمد خالد (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ط1، 2009م)، ص 9.

وعلى أن يسلك بالبشرية سبل السعادة والسلام!“. ولهذا لم أتردد في الإيمان بأن الله واحد، وبأن موسى وعيسى ومحمداً، عليهم صلوات الله، ومن سبقهم كانوا أنبياء أوحى إليهم من ربهم، لكل أمة رسول، وبأننا لم نولد في الخطيئة، ولم نُخلق خاطئين، ولسنا في حاجة إلى أي خلاص من المسيح، عليه السلام، وبأننا لا نحتاج إلى من يحمل عنا خطايانا أو يتوسط بيننا وبين الله الذي نستطيع أن نُقبل عليه بأي وقت وحال، وفي وسعنا أن نصل إلى أرواحنا في أي وقت نشاء، وبأنه حتى محمد أو عيسى، صلوات الله عليهما، لا يملك أحدهما لنا من الله شيئاً، وأن نجاتنا إنما هي وقف على سلوكنا وأعمالنا .. وكلمة الإسلام تعني الخضوع والاستسلام لله، كما أنها تعني السلام، ويعرف المسلم بأنه الرجل الذي يسير في حياته وفقاً لمشيئة خالقه وأوامره، والذي يعيش بسلام مع الله وعباده. ولعل أجمل ما في الإسلام، ما يتمثل فيه من وحدانية إلهية وأخوة إنسانية، وخلوه عن التقاليد والبدع، والتصاقه للصوق كله بما في الحياة من أمور عملية، والإيمان في القرآن إنما يقوم على العمل الصالح، وليس هناك في الإسلام إيمان دون ما عمل صالح أبداً⁽¹⁾.

وهي ترى أن الإسلام يقوم على دعامتين، أولاهما : وحدانية الله، وثانيتهما : الأخوة الشاملة بين البشر، وليس في الإسلام شيء من العقائد اللاهوتية المعقدة الثقيلة، وفي مقدمة كل مميزاته أنه عقيدة إيجابية دافعة.

وتقول : «الإسلام دين حيّ... حيّ في قلوب أتباعه ومريديه، وهو دين كلما تقدمت به الأيام زادت حيويته، وقوي أمره، وتبسط سلطانه، وفشت دعوته، ولولا ذلك لما أمكنه أن يعيش، وأن يظل محتفظاً بقوته وتأثيره وحب أتباعه له، “وروحانية الإسلام قوّة شديدة، فهي أبداً تدفع المسلمين بعضهم إلى بعض، وتجعل منهم قوة إنسانية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، مما لا يوجد مثله في العالم الحاضر⁽²⁾“.

وتقول عن الرسول، ﷺ : «إن العظمة والعبقريّة تهزان القلوب وتثيران الأفئدة، فما بالك بالعظمة إذ انتظمت مع النبوة، وما بالك بها وقد راحت تضحى بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية، أي آية أسمى وأقرب إلى الإنسانية، ودين الله، وتلكم الغاية التي كان يرمي إليها الرسول محمد ﷺ في توحيد القلوب وإظهار الحقيقة“.

(1) المرجع السابق، ص 12.

(2) المرجع السابق، ص 13.

• أثر القرآن في الحضارة

وفي بيان تأثير القرآن في الحضارة الإسلامية تقول : «إنَّ أثر القرآن في كلِّ هذا التقدم الحضاري الإسلامي لا ينكر، فالقرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكّنهم من إنشاء، إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير والإمبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمراناً وحضارة».

وذكرت موقف القرآن من العلم، وما في القرآن من سبق علمي، وما جاء فيه عن خلق العالم وكيف أنَّ الله سبحانه وتعالى، قد خلق من كلِّ نوع زوجين وكيف أنَّ العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة، ودراسات امتدت أجيالاً عديدة⁽¹⁾.

وبينت تأثرها بأسلوب القرآن في مواضع عديدة فقالت : «الواقع أن جمل القرآن، وبديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفاً ولا تعريفاً، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته، وما ينعم به من موسيقى لفظية، لست تجدها في غيره من الكتب. ولعلَّ ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبرُ كلَّ التعبير عن رأي مثقفي الفرنجة، وكبار مفكريهم قال : «إذا لم يكن شعراً، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فإنه في الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخاً ولا وصفاً، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل، ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شيء قليل أو كثير، ولا خطباً فلسفية كمحاورات أفلاطون، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلوب السامية، وإنَّ كان عالمياً في جملته، بعيد المعنى في مختلف سور وآياته، حتى أنه يردد في كلِّ الأصقاع، ويرتل في كل بلد تشرق عليه الشمس»⁽²⁾.

وقالت : «أشار الدكتور ماردريل المستشرق الفرنسي الذي كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن، إلى ما للقرآن الكريم من مزايا ليست توجد في كتاب غيره وسواه، فقال: «أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق، عزَّ وجلَّ، ذلك أنَّ الأسلوب الذي ينطوي عليه كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب، لا يكون إلاَّ إلهياً. والحقُّ والواقع أنَّ أكثر الكتاب ارتياباً وشكاً، قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره، وأنَّ سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحدِّ، الذي جعل أجانِب المبشرين يعترفون بالإجماع

(1) نور الدين أبو لحية، قلوب مع محمد، مرجع سابق، ص71.

(2) إيفلين كوبولد، البحث عن الله، ص 11، في : نور الدين أبو لحية، قلوب مع محمد، مرجع سابق، ص71.

بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن. ذلك أنّ هذا الأسلوب.. الذي يفيض جزالة في اتساق منسق متجانس، كان لفعله الأثر العميق في نفس كلّ سامع يفقه اللغة العربية، لذلك كان من الجهد الضائع الذي لا يثمر أن يحاول المرء (نقل) تأثير هذا النثر البديع، الذي لم يسمع بمثله بلغة أخرى“⁽¹⁾.

وقالت أيضاً: ”الواقع إنّ للقرآن أسلوباً عجيباً يخالف ما كانت تنهجه العرب من نظم ونثر، فحسّن تأليفه، والتثام كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه، وحسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله، كلّ هذا وغيره جعله في أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة، لا يمل قارئه ولا يخلق بترديده.. قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قلّ أن تجد فيها غريباً، وهي مع سهولتها جزلة عذبة، وألفاظه بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة لا تحسّ فيها لفظاً نابياً عن أخيه، فإذا أضفت إلى ذلك سمّو معانيه أدركت بلاغته وإعجازه“⁽²⁾.

• عظمة محمد وعبقريته

وقد ذكرت في كتابها ”البحث عن الله“، الثمرات العظيمة التي أنجزها محمد ﷺ، والتي تبرهن على صدق الإسلام، وكونه من عند الله، فقالت: ”كان العرب قبل محمد ﷺ أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعاتها، فلما جاء محمد ﷺ بعث هذه الأمة بعثاً جديداً، يصحّ أن يكون أقرب إلى المعجزات، فغلبت العالم وحكمت فيه آجالاً وآجالاً... لقد استطاع النبي ﷺ القيام بالمعجزات والعجائب، لمّا تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام، وقبول الوحداية الإلهية.. لقد وفّق إلى خلق العرب خلقاً جديداً ونقلهم من الظلمات إلى النور، وإنّ المرء ليجد نفسه أمام نبي مرسل وعبقري عظيم لم تلد مثله البطون حتى اليوم“⁽³⁾.

وقالت أيضاً: «مع أنّ محمداً ﷺ كان سيد الجزيرة العربية، فإنه لم يفكر في الألقاب، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظلّ على حاله مكتفياً بأنه رسول الله، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه ويصلح حذاءه بيده، كريماً باراً كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلّا تفضل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحيان قليلاً لا يكاد يكفيه»⁽⁴⁾.

(1) المرجع السابق، ص 112.

(2) المرجع السابق، ص 113.

(3) المرجع السابق، ص 52.

(4) المرجع السابق، ص 66-67.

• التسامح الإسلامي

وذكرت كوبولد إعجابها بالتسامح الإسلامي، فقالت في كتابها : إنَّ الإسلام لا يعرض لمعتنقي الأديان الأخرى بسوء، وهو لا يحملهم على قبول دينه، والنزول تحت شرعته، كما أنه لم يحارب الذين لم يعتنقوا دينه، ولا عمل على قتلهم وحرقهم وتعذيبهم، كما فعل غيره وسواه، وآية القرآن الكريم ظاهرة بينة ”لا اكراه في الدين“⁽¹⁾.

وتقدم مثلاً على ذلك فتقول : «هذا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، دخل بيت المقدس فاتحاً ظافراً.. أدركته الصلاة وكان في داخل كنيسة القيامة، فخرج منها وصلى خارجها. ولما سأله البطريق عن سبب ذلك، قال : أخشى أن يتخذ المسلمون بعدي من صلاتي هذه في الكنيسة حُجَّةً لقلبها إلى مسجد، فيخرقون المعاهدة بذلك.. وبذلك حفظ الفاروق للمسيحية كنيستهم الأولى».

ولما استرجع السلطان صلاح الدين بيت المقدس بعد معارك عديدة وطرد الصليبيين من البلاد، أظهر في حروبه ومعاركه كلَّ ألوان الرفق والرحمة والعطف والعفو عند المقدرة، وقد حفظ له كثير من كتاب الغرب هذه الصفات، ولم يتأخروا من المجاهرة بها، والإقرار بأنه كان أشرف الأعداء، وأطهر الفاتحين.

ومما يجدر ذكره أنَّ صلاح الدين لما افتتح القدس، وكانت أفعال الصليبيين الدامية بأهلها لا تزال ملء السمع والبصر، أبى أن يعامل المغلوبين إلاَّ بالحسنى والرفق، ورفض الانتقام ممن أساءوا وأحرقوا ودمروا، وزاد ندًى، فسمح لجميع المسيحيين بمغادرة المدينة، تحت رعاية رجاله ومحافظة قواده⁽²⁾.

• الإسلام والعلم

وتتعرض في كتابها للحضارة الإسلامية القائمة على العلم واحترام العقل، ودفعه إلى الإبداع في كل المجالات، فتذكر إعجابها الشديد بالحضارة الإسلامية المبنية على القيم التي نشرها الإسلام بمصادره الأصلية، وتقول : ”ليس من يجهل خدمات العرب للعلم والمعرفة في أيام حضارتهم وعزهم، وكيف أنهم أنشأوا المدارس، وعنوا بالمستشفيات، وعززوا المعارف، وأجازوا أهل العلم والعرفان، وعملوا على نشر الكتب وترجمة المؤلفات في كل الأقطار التي امتدت حضارتهم إليها، واستقام حكمهم فيها، حتى أصبحت بغداد في عصرها الزاهر مدينة

(1) البقرة : 256.

(2) المرجع السابق، ص 93-96.

العلم والفلسفة، وأوروبا ما تزال حتى يومنا هذا، مدينةً للإسلام بهذه الشعلة العلمية، التي حملها العرب في أيام حضارتهم، وحافظوا عليها كلَّ المحافظة، حتى أخذتها أوروبا منهم.

لقد جاء العرب إلى أوروبا ومعهم شعلة العلم في ذلك الزمان الماضي، وهو ما يحملنا أن نبكي مصرع الأندلس، لأن مصرعها كان ضربةً للحضارة الحديثة، والعمران القديم. وأصيب العالم والحضارة من سقوط العرب وانهيار سلطانهم بخسارة لا تعوض.

وقالت : ”اطلبوا العلم ولو في الصين“ هذه كلمة النبي العربي إلى المؤمنين، أوجب عليهم فيها طلب العلم من أقصى الأرض إلى أقصاها، وهي كلمة ألقاها وأمر بها منذ مئات السنين، ولكن العلم الأوروبي لم يتفهم خطورتها ولا اتبعها حتى القرن الثالث عشر، وبعد سبعة قرون من صدورها.

إنَّ الإسلام كان يقف شعلةً للمعرفة والعلوم.. ولقد عرف كلومبوس في جامعات إسبانيا الإسلامية أنَّ الأرض مدورة .. وكانت هذه الجامعات ترحب بطلاب المعرفة من اليهود والنصارى، الذين انتظموا فيها، ونالوا شهاداتها وتلقوا معارفها⁽¹⁾.

• كوبولد والمرأة المسلمة

وتتحدث كوبولد في كتابها عن بعض القضايا الخاصة بالمرأة المسلمة، ومكانتها في الإسلام، وما حظيت به من حقوق ومزايا فتقول : ”الحقُّ أقول إنَّ الحبَّ عندنا، وكما يفهمه الغربيون، ما يزال قريباً من الغريزة الجنسية، مقصورة دائرته أو تكاد، على ما تلهمه هذه الغريزة... فأما المناطق العليا التي يرتفع الحبُّ المذهب إليها.. الحبُّ بمعناه الإنساني السامي .. الحبُّ على أنه عاطفة إنسانية سامية، أساسها إنكار الذات، والراقي النفسي إلى عالم الخير والجمال والحقِّ، فهذا ما لا يفكر فيه أحد أو يتصور وجوده إنسان، وهو إلى ذلك كله موجود في الإسلام ، منطوي في هذه الأخوة الإسلامية. التي تجعل من الفرد عبداً يعمل لخير المجموع، وفرداً قصارى همِّه أن يعمل للإحسان والإحسان أبداً“⁽²⁾.

ثم تقول : ”لم تكن النساء (المسلمات) متأخرات عن الرجال في ميدان العلوم والمعارف، فقد نشأ منهن عالِمات في الفلسفة والتاريخ والأدب والشعر وكلُّ ألوان الحياة“⁽³⁾.

(1) للاستزادة انظر: المرجع السابق، ص 50-92.

(2) المرجع السابق، ص 28.

(3) المرجع السابق، ص 51.

وتبيّن ما حقّقه الإسلام للمرأة حتى وصلت إلى هذه المكانة، فتقول : ”لما جاء الإسلام ردّ للمرأة حرياتها، فإذا هي قسيمة الرجل، لها من الحقّ ما له، وعليها ما عليه، ولا فضل له عليها إلّا بما يقوم به من قوّة الجلد وبسطة اليد، واتساع الحيلة، فيلي رياستها فهو لذلك وليها يحوطها بقوته، ويدود عنها بدمه، وينفق عليها من كسب يده، فأما فيما سوى ذلك، فهما في السراء والبأساء على السواء. ذلك ما أجمله الله بقوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ ﴾⁽¹⁾، وهذه الدرجة هي الرعاية والحيطة، لا يتجاوزها إلى قهر النفس وجحود الحقّ، وكما قرن الله، سبحانه، بينهما في شؤون الحياة، قرن بينهما في حسن التوبة، وادخار الأجر، وارتقاء الدرجات العليا في الدنيا والآخرة. وإذا احتمل الرجل مشقات الحياة، ومتاعب العمل، وتناثرت أوصاله، وتهدم جسمه في سبيل معاشه ومعاش زوجته، فليس ذلك بزائد مثقال حبة عن المرأة إذا وفّت لبيتها، وأخلصت لزوجها، وأحسنّت القيام في شأن دارها“⁽²⁾.

ثم تروي ما كتبه زوجة السفير الإنجليزي في تركيا عن وضع المرأة المسلمة فتقول: ”كتبت اللادي ماري مونتكاد، زوجة السفير الإنكليزي في تركيا إلى شقيقتها تقول : ”يزعمون أنّ المرأة المسلمة في استعباد وحجر معيب، وهو ما أودّ تكذيبه، فإنّ مؤلفي الروايات في أوروبا لا يحاولون الحقيقة، ولا يسعون للبحث عنها، ولولا أنني في تركيا، وأنني اجتمعت إلى النساء المسلمات ما كان إلى ذلك سبيل، وإني أستمع إلى أخبارهم وحوادثهم وطرق معيشتهم من سبل شتى، لذهبت أصدق ما يكتب هؤلاء الكتاب، ولكن ما رأيته يكذب كلّ التكذيب أخبارهم، ولا أبالغ إذا قررت لك إنّ المرأة المسلمة، وكما رأيته في الآستانة أكثر حرّية من زميلاتها في أوروبا، ولعلها المرأة الوحيدة التي لا تعنى بغير حياتها البيتية، ثمّ إنهن يعشن في مقصورات جميلات، ويستقبلن من يرد من الناس..“⁽³⁾.

”إنّ جهل النساء في الإسلام أمر لا يتفق وأوامر الرسول الكريم ﷺ، فقد أمر رسول الله النساء بطلب العلم، وحظر الإسلام الجهل على المؤمنين به، وشدد في ذلك بما لا يدع مجالاً للشبهة والتأويل“⁽⁴⁾.

(1) سورة البقرة 228.

(2) إيفلين كوبولد، البحث عن الله، مرجع سابق، ص 81-82.

(3) المرجع السابق، ص 85.

(4) المرجع السابق، ص 86.

• الحجّ إلى مكة

ولقد حجّت كوبولد إلى بيت الله الحرام سنة 1933م، وعمرها 66 عاماً، فأصبحت أول بريطانية مسلمة تقوم بأداء فريضة الحجّ إلى مكة، وكتبت رحلتها الحجازية في كتاب تحت عنوان ”الحجّ إلى مكة“.

ورحلتها هذه للحجّ حظيت بالكثير من اهتمام وسائل الإعلام، وتم استعراض الكتاب، الذي يعدّ من أدبيات رحلات الحجّ، على نطاق واسع في كبري الصحف البريطانية وقت صدوره عام 1934م، وهو يتضمن 30 صفحة من الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود عن رحلتها، ومشاهداتها في مكة والمدينة المنورة وجدة.

وقد كتب مقدمة الكتاب الشيخ حافظ وهبة، سفير المملكة العربية السعودية في لندن وقتها، ويعدّ من أدبيات الحجّ، حيث يأخذ شكل يوميات، تروي من خلالها خواطرها خلال رحلتها في المدن المقدسة، وتتناول مواضيع شتى، مثل القرآن، وحياة النبي، وتقدم صورة نادرة عن حياة النساء المسلمات في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، إلى جانب دحض الانطباعات الكاذبة التي لا تزال موجودة في الغرب عن الحريم، كما تحدثت عن إنجازات الملك عبد العزيز، والمبادئ الإسلامية فيما يتعلق بالحرب والتسامح.

وكانت كوبولد على صلة طيبة بقيادة المملكة العربية السعودية، فالأمير فيصل بن عبد العزيز سهل لها مهمة الحصول على تصريح بدخول مكة لأداء فريضة الحج، بعد أن التقت به في جدة، وكان وقتها أميراً للحجاز، كما التقت بالأمير سعود بن عبد العزيز آل سعود، أثناء زيارته لبريطانيا عام 1935م، وكان برفقته عدد من المسؤولين السعوديين من بينهم الشيخ حافظ وهبة، سفير المملكة في بريطانيا في تلك الفترة.

جاءت رحلتها للحجّ بعد إسلامها، حيث قررت الذهاب إلى الحجّ، وتشاورت مع حافظ وهبة، لكي يحصل لها على تصريح بهذه الرحلة الحجازية، والذي كتب بدوره إلى الملك عبد العزيز ابن سعود بهذا الأمر. إلا أنها تركت انجلترا قبل الحصول على إجابة من السفير السعودي، وسافرت إلى مصر ثم أبهرت من السويس إلى جدة، وهناك التقت بهاري سانت جون أو (الحاج عبد الله)، الذي اعتنق الإسلام عام 1930م، وزوجته دورا، واللذان يملكان منزلاً في مكة المكرمة جاء كمنحة لهما من الملك عبد العزيز بن سعود، وعلى السفينة من السويس التقت أيضاً بالسير أندرو ريان، سفير بريطانيا في المملكة العربية السعودية.

وقد انتظرت كوبولد أسبوعين في جدة قبل أن تحصل على إذن بالسفر إلى مكة المكرمة، وفي جدة التقت بالأمير فيصل بن عبد العزيز، نائب الملك في الحجاز في حفلة شاي، والذي أعجبت بكرمه ورباطة جأشه، وقد سهل لها الأمير الحصول على إذن بالحج، ورتب لها الإقامة مع إحدى العائلات العربية في المدينة المنورة ومكة المكرمة، كما وفر لها سيارة بسائق تنقلها إلى المدينتين المقدستين، فقامت برحلة إلى المدينة المنورة أولاً، ثم عادت إلى جدة قبل أن تغادر إلى مكة المكرمة.

• جهود الملك عبد العزيز

وخلال الرحلة لم تخف كوبولد إعجابها بالملك عبد العزيز، وبرامجه التي وضعها للنهوض بدولته الفتية، وكيف أن أداء الحج أصبح يتم في ظروف آمنة، أكثر بكثير عما كان عليه الحال قبل ضمّ الحجاز إلى المملكة السعودية، وهناك شهدت كيف أنشئت محطات في طريق القوافل، التي شاع فيها طوال القرون السابقة انعدام الأمن والأمراض والجوع، والموت عطشاً. وشهدت كيف أنشئت فنادق لإيواء النزلاء من الرجال والنساء والأطفال في جدة، وينبع والمدينتين المقدستين: مكة والمدينة، وحددت أجور معقولة لنزلائها، وتحدثت بإعجاب عن الإصلاحات الاجتماعية التي أدخلها - ابن سعود - في دولته، ومنها: وضع برنامج رعاية اجتماعية للنساء المعدمات، وإنشاء مشافي وتوظيف أطباء يحملون أعلى الشهادات من باريس، وكانت ترى بصمات أعمال الملك عبد العزيز في كل مكان، وسيrote الطيبة على كل لسان في بلاده، خاصة ما وفره من رعاية للحجاج من علاج في محطات الطريق، حيث شكل الملك لجنة تتابع صيانة هذه المنشآت، بما يوفر راحة الحجاج.

وقد وصلت المدينة المنورة يوم 17 مارس 1933م، 21 ذي القعدة 1351 هجرية، وفي أول ليلة لها استيقظت على صوت آذان الفجر، ومن النافذة شاهدت المآذن العالية من الناحية الجنوبية، وشاهدت القبة الخضراء، تقول ”توضأت ونزلت بسرعة لأذهب مع المزور، أسدلت الحجاب جيداً على وجهي، ودخلت إلى بوابة محراب كبير، من باب آخر تصله أشعة نور الفجر، ويصدح فيه هديل الحمام، ورحلت أشعر من داخلي بإحساس من السعادة والهناء“.

وعن خواطرها ومشاعرها في مسجد الرسول، ﷺ، تقول: ”عندما دخلت المسجد النبوي تولتني رعدة عظيمة، وخلعت نعلي، ثم أخذت لنفسي مكاناً قصبياً، صليت فيه صلاة

الفجر، وأنا غارقة في عالم هو أقرب إلى الأحلام ... رحمتك اللهم، أي إنسان بعثت به أمة كاملة، وأرسلت على يديه ألوان الخير إلى الإنسانية!"⁽¹⁾.

وعندما وصلت إلى الكعبة المشرفة، وطافت بها، اعتبرت ذلك واحدة من أقوى التجارب الروحية في حياتها، فقد انبهرت بالمشهد الرهيب حول الكعبة، وأجادت في وصف هذا المشهد، فأشارت إلى أنها كانت وحدة صغيرة ضمن كثافة بشرية كبيرة، امتلأت بالحماس الديني، وأخذت الدموع تنهمر على الخدين من هول هذا المشهد الإيماني العظيم، وتلك الطريقة التي يتم بها الحجّ، والتي تجعل جميع الناس على قدم المساواة أمام الله.

• الحج تجربة روحية

وقد تحدث كوبولد عن رحلتها الحجازية وخواطرها حول الحجّ، فقالت في كتابها: "في فريضة الحجّ - وكلّ قول يقصر عن وصف آثارها - يرى الإنسان نفسه فرداً في الجموع الضخمة، التي وفدت من أركان العالم المختلفة في هذه المناسبة المقدسة، ليشترك إخوته في الإنسانية - بكل خشوع - في تمجيد الله، فيسري في روحه جلال المثل العليا في الإسلام، وتتاح له الفرصة الطيبة للمشاركة في واحدة من أعظم التجارب الروحية الملهمة، التي حبا الله بها البشر».

ثم تقول : "إنّ في زيارة مواطن نشأة الإسلام، وفي ارتياد أمكنة جهاد الرسول، ﷺ، عندما دعا البشرية الضالة لتعود إلى الله، إن في ذلك بعثاً لتلك الحياة المباركة في القلوب، وإحياء لذلك الجهاد الطويل، الذي قام به محمد، ﷺ، في سنوات المجد والفداء والاستشهاد، وإن في ذلك إثارة للروح ليصهرها ذلك اللهب السماوي، الذي أضاء أرجاء المعمورة جميعاً".

على أنّ ذلك - وكما تقول كوبولد - ليس كلّ شيء في الحجّ، إنه فوق كلّ شيء سواه، تحقيق للوحدة بين المسلمين، وإذا كان هناك ما يجمع شتات قواهم، ويصبغهم بصبغة الأخوة والعواطف المشتركة، فإنّ الحجّ هو الذي يؤدي لذلك، بما رسم لهم من نقطة التقاء يجتمعون حولها من كل فجاء الأرض، وبما هيأ لهم هذا اللقاء السنوي، ليتعارفوا فيما بينهم، وليتبادلوا وجهات النظر، ويتدارسوا شؤونهم، وليوحدوا بين كلّ جهودهم في

(1) أنور الجندى، آفاق جديدة للدعوة الإسلامية في الغرب (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1984م)، ص 360.

سبيل صالحهم العام، لا يقيمون وزناً لتباعد ديارهم، ويطرحون جانباً خلافاتهم الطائفية والمذهبية، وتتلاشى بينهم فوارق اللون أو الجنس أمام الإخاء في العقيدة، التي تجمع المسلمين جميعاً في أخوة شاملة توحى إليهم بأنهم هم ورثة ذلك المجد التليد.

وقالت : ”ومن فوائد الحجّ أنه يوطد الوحدة الإسلامية، ويغذي الأخوة التي أنشأها محمد، ﷺ، وهو يدعو المسلمين في كلّ عام مرة واحدة إلى التعارف والتقارب والتحدث فيما بينهم.. فالحجّ والحالة هذه، ليس فرضاً دينياً فحسب، وإنما هو إلى ذلك كلّه، جمعية أمم عظمى. ولقد أشار إلى هذه الظاهرة الخطيرة المستشرق الهولندي ”سنوك هيروغرنجه“، فقال : « لقد سبق الإسلام الحكومات الأوروبية في التوحيد بين الأمم والتقارب بين الشعوب، بما أقرّه من وجوب الحجّ على كلّ مسلم يستطيع إلى الحجّ سبيلاً، ولعمري إنّ هذه الديمقراطية والأخوة التي أقرّها الإسلام، وجعلها عامة بين أتباعه، لما يخجل الجامعات الأخرى التي لم تفتن لها ولا دعت إليها»⁽¹⁾.

وقالت أيضاً : ”إذا لم يكن في الإسلام إلّا هذه الأخوة التي قتلت التفرقة، وجعلت من الإنسانية شخصاً واحداً لا يعلو واحداً على رفيقه إلّا بالتقوى والعمل الصالح لكفى، ولكان الإسلام خير الأديان وأقربها إلى الله، وأرفعها درجات، ولقد أشار المستر بيكتول الكاتب الإنكليزي إلى هذه الظاهرة الغربية الفذة في تاريخ الإنسانية، وراح يضرب الأمثال بهذا الاختلاف العظيم، الذي يعمّ الغرب من أقصاه إلى أقصاه، ويفصل بين المرء وولده وشقيقه ونسيبه وجاره، وكيف أنّ الإسلام يقف وحيداً في هذه الظاهرة، حيث تقوم الأخوة الإسلامية فيه مقام العصبية والجوار وغيرها من الصلات⁽²⁾.

(1) إيفلين كوبولد، البحث عن الله، مرجع سابق، ص 13.

(2) المرجع السابق، ص 13.

الفصل السادس

من ايطاليا.. المستشرقة ريتا دي ميليو

وتسويق الإسلام في الغرب

تعدّ المستشرقة الإيطالية "ريتا دي ميليو"، أستاذة الدراسات الإسلامية بجامعة روما، واحدة من المستشرقات اللاتي تميزن بالنزاهة العلمية، وهن يبحثن في ثقافة الشرق الإسلامي وحضارته، فقد عاشت وتجولت في مدن العالم الإسلامي، ولم تكتب عن الإسلام إلا بعد أن قرأته ودرسته من مصادره الأصلية، وعاشت أهله وحضارته، ولذلك جاءت كتاباتها على قدر كبير من الإنصاف، بعيداً عن المواقف المسبقة والأحكام المغلوطة، التي يروج لها نفر غير قليل من المستشرقين عن الإسلام وحضارته.

وهذا الفكر النزيه، ومع المواقف المنصفة، جعلها تقف في خندق أولئك المستشرقين المحايدين، الذين أخذوا على عاتقهم تصحيح صورة الإسلام في الغرب، غير عابئين بالحملات الإعلامية الشرسة، التي يتعرضون لها بسبب ميولهم وآرائهم الداعمة للمواقف الإسلامية.

ولم تتخيل ميليو أنها قد تواجه مشكلات خطيرة جراء الإعلان عن رؤيتها المنصفة للإسلام، فقد تربت وعاشت في العاصمة الإيطالية روما، وتصدع رأسها بالحديث عن الحرية الفكرية، وحرية كلّ إنسان في تبني الأفكار التي يؤمن بها، وفي الإعلان عن تلك الأفكار بالصورة التي تحلو له، ولهذا فإنها عندما قرأت واقتنعت بالإسلام، سارعت إلى الإعلان عن مدى الظلم الذي يتعرض له هذا الدين في الغرب، ولم تدرك أنها بذلك قد فتحت على نفسها أبواب جهنم، حيث فوجئت بمن يطاردها في عملها الأكاديمي، ويجبرها على تدريس مناهج تشوه الإسلام، وعندما رفضت، فوجئت بتعرضها لكثير من الأزمات الوظيفية غير المبررة، الأمر الذي دعاها في النهاية لتقديم استقالتها.

ورغم المضايقات الشرسة التي تعرضت لها، فإنّ رؤيتها للإسلام لم تتغير، حيث ترى فيه الدين القادر على انتشال البشرية من أزماتها، وترى أيضاً أنّ الغرب ظلم الإسلام كثيراً بسبب سيطرة الأفكار الصهيونية على كلّ صانعي القرار في الإعلام الغربي.

• سيرة ذاتية

تقدم هذه المستشرقة النزيهة سيرتها الذاتية فتقول : «إسمي ريتا دي ميليو، ولدت في جزيرة أسيكا بخليج نابولي، وتخرجت في كلية الآداب بجامعة روما، متخصصة في الشؤون الإسلامية، وأعمل أستاذة لدراسات الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، كما عملت لفترة طويلة خبيرة في الشؤون الإسلامية بوزارة الخارجية الإيطالية».

«ولقد درست اللغة العربية، لأنني أردت أن أعرف الإسلام عن قرب، وذلك بقراءة تراثه باللغة الأصلية التي كتب بها، وقد تعرفت إلى الإسلام في البداية من حياتي، التي قضيت جزءاً كبيراً منها في العديد من الدول العربية، حيث عمل والدي طبيباً في عدّة مستشفيات بالدول العربية، والحقيقة أنني أعجبت بالإسلام كدين قويم يحثّ على الفضيلة والأخلاق، والتعايش السلمي بين كلّ الناس، بلا فرق بين أبيض وأسود».

«ورغم أنني لم أعتنق الإسلام حتى اليوم، إلّا أنّ هذا الدين دخل إلى قلبي بشدّة، ولعلّ هذا ما دفعني للكتابة عنه كدين عظيم، حيث حاولت من خلال كتاباتي أن أعلم تلاميذي في الجامعة، الكثير عن حقيقته ومساهماته في بناء الحضارة الإنسانية»⁽¹⁾.

وعندما سئلت عن الدافع وراء اهتمامها بدراسة الإسلام قالت : «لعلّ أهمّ ما دفعني إلى دراسة الإسلام، وعلومه وآدابه وتاريخه، وأنا غير مسلمة، هو السعي لمعرفة الحقيقة من خلال البحث العلمي النزيه، وهذه الدراسة هي التي فتحت أمامي آفاقاً رحبة لمواصلة البحث والدراسة، للتعرف على الإسلام وحضارته، والبحث في علومه وآدابه، وتعلم اللغة العربية، فضلاً عن أنني حاصلة على درجة الدكتوراه في الآداب العربية والإسلامية، وأقوم بالتدريس في جامعة روما في قسم دراسات اللغة العربية».

• الإسلام.. ذلك المجهول في الغرب

ومن مؤلفاتها التي حظيت باهتمام كبير في العالم العربي والإسلامي، وأثارت ردود فعل إيجابية، كتاب «الإسلام.. ذلك المجهول في الغرب»، والذي كان حصيلة لقراءات متعددة عن الإسلام وعلومه وآدابه، خاصة اللغة العربية والتاريخ الإسلامي، وسيرة النبي، ﷺ، والخلفاء الراشدين.

(1) حسام وهبة، دريتا دي ميليو أستاذة الدراسات الإسلامية في روما سابقاً: الإسلام له دور عظيم في الحضارات الإنسانية، جريدة (الخليج)، 11 سبتمبر 2009م، في :

تقول عنه : «لقد قرأت معظم ما كتب عن الإسلام في الغرب، فترسخ لدى أنّ الإسلام دين عظيم، وأنه تعرض لظلم كبير، عندما ترك العنان لجهات إعلامية غربية موجهة بالإساءة إلى الإسلام، ورموزه الدينية، فقررت نشر كتاب يقدم حقيقة الإسلام للمواطن الغربي، الذي ساهمت عوامل عديدة في تضليله، وتشويه معلوماته عن الإسلام، وإساءة علاقته بهذا الدين، ومن ثم التزمت الموضوعية في الكتابة عن الإسلام، الذي يدعو إلى السلام بين أتباع العقائد السماوية، وينهى عن التعصب والكرهية والعنصرية».

«ولعلّ إعجابي بهذه المبادئ الجميلة، هو ما دفعني إلى تأليف كتاب عن الإسلام، حاولت من خلاله أن أكتشف عن الكثير من الجوانب الإيجابية في الإسلام الحقيقي، ومساهماته في بناء الحضارة الإنسانية، والتي تخفى عن الغرب، وكذلك قمت أيضاً بتقديم فكرة شاملة عن العقيدة الإسلامية، كما يمارسها معظم المسلمين».

«وعرضت من خلال كتابي هذا الإسلام كدين وكثقافة وكحضارة، بمنتهى الحيادية والأمانة العلمية، كما بينت أنّ الإسلام، كدين سماوي، يحث أتباعه على الفضيلة والأخلاق الجميلة، والتعايش السلمي بينهم وبين كلّ الناس، ولا يفرق بين أبيض وأسود أو مسلم وغير مسلم، الناس جميعاً سواسية وإخوة في الإنسانية».

والكتاب بمثابة شهادة محبة من إنسانة مسيحية لكلّ مسلم، حيث يقدم فكرة شاملة عن العقيدة الإسلامية، كما يمارسها معظم المسلمين، وهو موجه إلى الإيطاليين بشكل خاص، والغربيين بشكل عام، الذين ليس لديهم معرفة عن حقيقة الإسلام أو يعرفونه بطريقة خاطئة، نتيجة الكتابات المشوهة المنتشرة في الغرب بكثرة، والتي أصبحت من دون شك، مصدراً إضافياً للخلافات والمنازعات الجارية بين عالمين، كانت تربطهما روابط تراثية وثقافية وتاريخية قوية⁽¹⁾.

ويحتوي الكتاب على جزئين : يتحدث الأول عن الدين الإسلامي بصفة عامة، وعن شخصية النبي محمد ﷺ وصفاته، كما يحتوي الجزء الأول على أركان الإسلام والأخلاق الإسلامية. أمّا الجزء الثاني فيتكلم عن الجهاد في الإسلام والتاريخ الإسلامي الحديث.

ويعدّ هذا الكتاب في مجمله جديداً على الثقافة الأوروبية، فهو صادر من أوساطها، ويتكلم بإحدى لغاتها، ورغم أنه بدا محايداً في عرض الإسلام كحضارة وثقافة، إلّا أنه، ربما

(1) المرجع السابق.

للمرة الأولى، يقدمه على أنه دين سماوي، يقف على قدم المساواة مع الأديان السماوية الأخرى، بعد أن كان دَيْدُنُ الغرب - والمستشرقون على وجه خاص - اعتبار أن الإسلام في أفضل الظروف طائفة منشقة عن المسيحية وخارجة عليها.

وتعلن دي ميليو، منذ بداية سطور الكتاب، أنها سوف تكتب عن الدين الذي تحبه وتحترمه، وتعمل على تبليغ محتواه لمن لم يعرفه، ليس لأنها تعمل في مجال الدعوة، بل لما ترى من تعرض الإسلام إلى ظلم كبير من جانب من لم يعرفه من الغرب، وقدم إليه بصورة مشوهة، أحياناً عمداً، وأحياناً عن جهل وضيق أفق.

ونحن هنا بصدد كتاب يكتب عن محمد ﷺ باعتباره نبي الله ورسوله، وعن الله الواحد الأحد في كل الأديان، وهي لا تنفي الاختلاف، ولكنها في الوقت نفسه تعزز الاتفاق، وهو في رأيها إتفاق كبير وذو مغزى، ولا يصح تجاهله.

• فصول الكتاب

جاء الكتاب في فصول سريعة بدأت بعرض لحياة الرسول ﷺ، أبرزت فيها المؤلفلة الخصال التي اشتهر بها قبل البعثة النبوية، مثل الصدق والأمانة، كما عرضت لحال المجتمع العربي قبل نزول الإسلام، وكيف جاء هذا الدين لكي يصلح الكثير من الأمور التي كانت تضرب في أساس هذا المجتمع، وليحوّله من مجتمع بدوي بدائي، إلى واحد من أعظم الحضارات التي شهدتها التاريخ.

وربما كان أهم ما في هذا الجزء من عرض الحياة الأولى للرسول ﷺ، هو أنه ابتعد عن الأطروحات التي سادت في كتب وأفكار عدد غير قليل من المستشرقين، بل ردّت عليهم المؤلفلة وأكدت أن محمداً هو نبي الله ورسوله، وأن رسالته منزلة من السماء، ولمحت إلى أن أول من اعترف بنبوة محمد ﷺ، كان مسيحياً، وهو ما استغله مفكرون آخرون ليقدموا في النبوة، ويشككوا فيها، عندما اعتبروا أن محمداً لم يكن إلا قساً متمرداً وناقماً.

والمؤلفة تطرح أفكارها بقوة، وترد عليها بقوة أيضاً، من دون خوف أو تردد، بل لا تتردد في اتهام كتاب بني جلدتها بالغرور حيناً، وبالجهل دائماً. فقد وضعت مقدمة لكتابتها تعبّر فيها عما يجيش في وجدانها من حبّ وتأثر بالدين الإسلامي، إلى الحد الذي يجعلك تتصور أنها اعتنقت الإسلام بالفعل.

وهي تشير إلى أنَّ الإسلام لا يمكن أن يحيط به أي كتاب مهما تضخمت صفحاته، فهو يستحق الكثير من الكتب، لكي تلم بجوانبه المتعددة، وهو كالماصة لها ألف بريق، وليس من الإنصاف اختصاره في كتاب واحد. وفي هذا إشارة إلى القضايا الكثيرة التي يمكن الكلام فيها عن الإسلام، والجوانب المتعددة له، وتبرير للقراءة الموجزة السريعة لهذا الدين، بهدف التعريف، أكثر من الدخول في مناقشات وجدل حول القضايا الخلافية.

ورغم نصّ الكاتبة على أنها تأخذ بمنهج التبليغ الإسلامي، فقد تعرضت في فصول كتابها المختلفة إلى كثير من القضايا الخلافية، قالت فيها رأيها بصراحة وجرأة، خاصة قضية الجهاد، التي قدمت فيها تبريرات منطقية عقلانية للجهاد الإسلامي، بعيداً عن استغلال هذا الفرض الديني لأهداف سياسية وإرهابية⁽¹⁾.

• الجهاد في الإسلام

ف نجد فصلها في الجهاد، رغم أنه يتحدث عن الجهاد بوصفه (الحرب المقدسة)، وهو التعبير الذي لم يعرفه الإسلام، ولكنه منقول عن الغربيين في حروبهم الصليبية، إلا أنها استخدمت المصطلح الغربي لكي تقرب إلى أذهان الغربيين هذا المفهوم. وهذا الفصل عن الجهاد يعدّ من أجمل ما كتبه قلم غربي منصف، ومحايّد في هذه القضية، فهي ترى فيه فرضاً على كلّ مسلم، ولكنها تقول إنّ الحرب في الإسلام دفاعية، لأنّ القرآن ينهى صراحة عن الاعتداء على الغير، ويأمر المسلمين بالدفاع عن أنفسهم، وعن أموالهم، وبالتعاقد لنصرة المستضعفين من المسلمين. وتأخذ دي ميليو بالمنهج العزيز على الغرب، وهو النقدي التاريخي، الذي يحاول أن يتناول الأحداث في الجزيرة العربية، من خلال الترتيب الزمني لحدوثها، وتفسيرها ضمن السياق التاريخي لهذه العصور، من دون أن تعطي للبعد الغيبي ثقلًا كبيراً في التفسير، ورغم هذا فهي تصل إلى النتائج نفسها التي يمكن أن يصل إليها علماء الدين، اعتماداً على النصوص المقدسة وحدها، دون تحليلها نقدياً، وضمن السياق الاجتماعي والإنساني والتاريخي لها. ولهذا فإنه ليس من المبالغة أن نعترف لها بفضل الاجتهاد في تفسير بعض أحداث التاريخ، التي تخصّ مسيرة الدين والحضارة الإسلامية.

وحول الخلط الواضح من قبل الغرب بين الجهاد كفريضة إسلامية وبين الإرهاب والعنف، تقول : «يجب أن ندرك أنّ أحد أهم أسباب انتشار ذلك الخلط، يعود إلى إحجام الحكومات الإسلامية عن نشر حقيقة الجهاد في الإسلام باللغات غير العربية، وأنا شخصياً

(1) الإسلام.. ذلك المجهول في الغرب... للكاتبة الإيطالية ريتا دي ميليو.. يسלט الضوء على عظمة الإسلام وسماحته، موقع 26 سبتمبر نت، 23 يناير 2008 م، في : http://www.26sep.net/news_details.php?sid=37496

رغم أنني غير مسلمة، وجدت عند قراءتي المتعمقة، أن هناك اختلافات جذرية بين الجهاد والإرهاب، فالجهاد يبدأ من جهاد النفس وصرها عن فعل سوء، كما أن الجهاد المسلح كأمر مسموح به في الإسلام، له شروط عديدة، لعل أبسطها هو ضرورة أن يدعو له الحاكم المسلم، وليس أي شخص آخر، ولو نظر كل إنسان في العالم إلى مبررات الجهاد في الإسلام، لعرف أن الجهاد لا يعني الإرهاب بحال من الأحوال؛ فالجهاد مثلاً هو حق من حقوق كل من احتلت أرضه من قبل شعب آخر أو دولة أخرى، فلماذا يصفون في الغرب المقاومة الفلسطينية بأنها إرهابية؟ وإذا كان ما يقولونه صحيحاً، فلماذا اعتبروا العمليات التي شنها الفرنسيون ضد جيش ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، مقاومة فرنسية؟ ولماذا خصصوا لها صفحات عديدة في التاريخ الأوروبي، ليرزوا عظمة تلك المقاومة؟».

«والحقيقة أن إصرار الغرب على وصف العمليات الاستشهادية الفلسطينية بأنها إرهاب، لهو من قبيل التناقض الذي أرفضه، فالفلسطينيون لا يملكون السلاح اللازم لمواجهة العدوان الإسرائيلي، ولهذا فإن لجوءهم إلى تفجير أنفسهم في المحتل الصهيوني، هو عمل عسكري شريف، يحث عليه الإسلام، ولا يستطيع أي عاقل أن يصفه بالإرهاب، فطالما أن الفلسطيني لا يملك سوى هذا العمل، فهو أمر يدخل تحت نطاق الجهاد الذي أباحه الإسلام، وحتى لو مات أبرياء نتيجة العمليات الاستشهادية، فهذا جزء من طبيعة الحرب. والحال نفسه بالنسبة للمحتل الأمريكي في العراق.. وقد حرصت في فصل الجهاد على التأكيد للقارئ الأوروبي، أن القرآن الكريم يقول فيما معناه، أنه لا ينبغي أبداً قتل الأطفال والأبرياء والنساء والشيوخ كبار السن، فهل دين يقدم مثل هذه التوصيات لأتباعه يستحق منا أن نربطه بالإرهاب؟، والغريب أن اليهود ظلوا دائماً يلقون معاملة حسنة طوال فترة عيشهم تحت الحكم الإسلامي، ولكنهم لا يردون هذه المعاملة بمثلها اليوم، وإنما كان أسلوبهم دائماً الغدر ونقض العهود».

• العرب قبل الإسلام

وتبدأ دي ميليو كتابها بعرض حياة العرب قبل الإسلام، وترسم خريطة للمعتقدات الدينية، التي كانت سائدة في هذه المنطقة، والتي تجاوزت فيها الوثنية إلى جانب عبادات غريبة للنباتات والأشجار، والأشياء المختلفة، كما كان هناك انتشار محدود، وفي مواضع بعينها للمسيحية واليهودية، خاصة في اليمن وفي شمال الجزيرة العربية.

ففي شبه الجزيرة العربية، وبخلاف تقديس الأشجار والنباتات، كانت هناك عبادات للأحجار المقدسة، وهي أحجار متحركة أو متساقطة أو صخور بارزة أو معلقة،

تحمل الملامح البشرية، ولم يكونوا يعبدونها لذاتها، وإنما باعتبارها حاملة للألوهية أو رمزاً لها، فكانوا يقيمون إلى جوارها الاحتفالات الدينية، التي تشتمل على القرابين، وأعمال الحجّ والمهرجانات. أمّا البدو الرحل، فكان لديهم على العكس محراب متنقل، يسمى القبة، وهو نوع من المراكب المقدسة، كانت ترافق القبائل في تنقلاتها السلمية أو الحربية. فضلاً عن الأصنام، كان العرب يؤمنون بالجن، وهي مخلوقات غير مرئية، يمكن أن تكون طيبة أو تكون شريرة، ويمكنها أن تؤثر سلباً أو إيجاباً على حياة البشر.

وتشير دي ميليو إلى النظام السياسي السائد في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وهو تنظيم سياسي واحد، هو القبيلة، وكانت الصلة الوثيقة بين أبناء القبيلة الواحدة ناشئة عن وعي أبنائها، بأنهم سلالة جدّ واحد مشترك. وهذا الجدّ، طبقاً للتراث العربي، سليل جدّ آخر، وهو زعيم مجموعة من القبائل، وهكذا من جدّ إلى جدّ نصل إلى شخصيتين رئيسيتين، تعدان الأصل في أهل شبه الجزيرة كلّها. وهاتان المجموعتان الكبيرتان، يمكن تقسيمهما إلى مجموعة الشمال ومجموعة الجنوب. المجموعة الجنوبية، هي القحطانية التي تنتسب إلى جدّهم قحطان، والمجموعة الشمالية، تحمل اسم العدنانيين، وتنتسب إلى عدنان، ويسمون كذلك بالإسماعيليين، لأنهم يعتبرون عدنان سليلاً لإسماعيل بن إبراهيم.

كان أهل مكة يسIRON على سنة باقي أهل شبه الجزيرة، ويعتمدون نظاماً اجتماعياً قائماً على القبيلة، وأكبر قبائل مكة التي كانت تضمّ معظم السكان، وبصفة خاصة الأغنياء، وكبار القوم، هي قريش، ومنها الكلمة المعروفة في الإيطالية، القرشيين Quraishiti. كان لمجلس القبيلة مقرّ، وله رئيس هو الذي يدير شؤون المدينة. وقد تكونت وتشكلت مهام توزعت على القبيلة، منها خدمة وصيانة الكعبة، ووفادة وسقاية وإطعام الحجيج، وهكذا دواليك. وقد وصلت الحياة الاجتماعية في هذه المدينة إلى مستويات أكثر رقياً من تلك التي شهدتها المراكز الحضرية الأخرى، خاصة مجتمعات البداوة. وهذا هو باختصار حال البيئة الدينية والاجتماعية، التي ولد محمد وعاش فيها حتى نزول الوحي، وما تبعه من انتشار للإسلام.

• مولد الرسول وحياته

وتعرض المؤلفة مولد وحياة الرسول محمد، ﷺ، بنفس الطريقة والمنهج التاريخي النقدي الذي يقبله الغرب، ولكنها تأخذ في الاعتبار في الوقت نفسه، أنّ المسلمين يعتبرون أنّ حياة محمد وأقواله وأفعاله جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، التي تقوم على القرآن والسنة.

كما تعرضت لزواجه من السيدة خديجة، التي جذبت استقامته انتباهها، فكلفتها بتجاريتها وأرسلت معه ميسرة، الذي حكى لها بعد عودته عن المعجزات التي أتى بها الرسول في رحلته، واستشارت فيها قريباً لها هو ورقة بن نوفل، الذي أكد لها أنَّ هذه الصفات تنطبق على النبي، الذي بشرت به الكتب المقدسة، والذي سوف يظهر في بلاد العرب. وقد فرحت خديجة بهذا، وعرضت الزواج على محمد، ﷺ، فقبل وأنجب منها أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وولدين ماتا.

وكان يسرّ الحال الذي جاءه من زواجه بخديجة، سبباً في أن يستطيع محمد ﷺ، التفرغ لحياة ثلاثم ميوله الطبيعية: الخلوة والتأمل. ثم تحكي المؤلفة كيف هبط الوحي على النبي ﷺ، في غار حراء، كما ترويهِ الروايات العربية، وقد جاءت في هذا السياق التاريخي متسقة ومتوافقة، والأهم أنها لم تبذر أي بذرة شك في بعثة الرسول، وفي نزول الوحي عليه، وفي أنَّ القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل للعالمين. وقدمت للهجرة النبوية وهجرة المسلمين الأولى والثانية، ووصفت محمداً ﷺ، في المدينة بأنه كان نبياً وكان زعيماً سياسياً عبقرياً، استطاع أن يقود الأمة منطلقاً من المدينة، رغم كلِّ مشاكلها، ورافعاً شأن الأمة إلى عنان السماء. كما أشارت إلى أول ميثاق للتعامل مع الآخر في التاريخ، وهو (صحيفة المدينة) التي رتبت حقوق المسلمين وغير المسلمين في دولة الإسلام الجديدة⁽¹⁾.

• اليهود ونقض العهود

وعرضت المؤلفة الوضع في المدينة، مبينة أنَّ اليهود ظلُّوا متصليين ومعادين رغم العهد الذي أشرنا إليه، ورغم أنهم ظلُّوا دائماً يلقون معاملة حسنة من الإسلام، ولكنهم لا يردون على هذه المعاملة بمثلها، وإنما كان ديدنهم دائماً الغدر ونقض العهود، وهو بالتأكيد من المواقف الشجاعة، التي يقلُّ من يقررها في الغرب، خوفاً من التهمة الشائعة بمعادة السامية، التي أصبحت تخيف الأقلام جميعها هناك.

والرأي الوحيد الذي تأثرت فيه بما يكتبه المستشرقون، هو ما روته المؤلفة عن فترة صدر الإسلام، وبالتحديد غزوة بدر، فقد قالت: "ودفعت ضرورة توفير احتياجات الجماعات محمداً إلى مهاجمة قافلة ثرية لمكة، كانت متجهة إليها من الشام. وعندما علمت قريش أرسلت جيشاً يغيثها، مكوناً من ألف رجل.."، فالمستشرقون عادة يرون أنَّ محمداً

(1) المرجع السابق.

والمسلمين كانوا يهاجمون القوافل ويقطعون الطريق لتوفير الطعام والشراب للمهاجرين، وهو ما لم يكن صحيحاً، وإنما كانت هناك أسباب أخرى يرغب عن ذكرها هؤلاء، ولم تذكرها المؤلفة أيضاً. رغم أنها بعد ذلك تروي معركة بدر من الوجهة الإسلامية، وأنَّ الله عزَّز فيها المسلمين بجند من عنده، كما يؤكِّد القرآن الكريم، ليس هذا وحسب، بل إنها عندما تعرضت إلى قضية الجهاد في الفصل العاشر من الكتاب، نفت عن غزوة بدر أن تكون بهدف قطع الطريق على قوافل مكة، وإنما كانت حرباً للدفاع عن النفس والمال.

• محمد النبي والإنسان

وتفرد المؤلفة جزءاً خاصاً بمحمد، ﷺ، النبي والإنسان، وتقرر فيه أنَّ شخصية محمد، ﷺ، هي إحدى الشخصيات الأكثر تفرداً من بين أعظم الشخصيات التي صنعت تاريخ البشرية، ومعجزاته، بالنسبة لمن يؤمن به، وبالنسبة لمن لا يؤمن، تعدُّ من الأحداث المذهلة، ولكنه كان هو نفسه المعجزة الأكبر، شخصيته وحياته. ولأنَّ ما تقوله ريتا دي ميليو في هذا الموضوع يستحق أن يعرض بالكامل، فهو ممتع كتابةً وأسلوباً، فسوف نعرض له في ما يلي مع بعض الاختصار غير المخلِّ بالمعنى والسياق.

تقول : «في مكة كان رجلاً وديعاً، يكاد يكون زاهداً في تعبده وفي عزلته الروحية. وكان ربَّ بيت مثالياً طوال عشرته التي دامت خمسة وعشرين عاماً من الحبِّ مع زوجته، التي كانت تكبره، خديجة. ورغم ما تعرض له من عداوة واستهزاء، فإنه ظلَّ واثقاً من نفسه، ومن النصر النهائي لربه، ويجب بهدوء ليهزأ من الكفار بآيات من القرآن، وهو يهددهم بنار السعير».

«وفي المدينة تحول إلى رجل سياسي محنك، حتى أصبح رئيس دولة ومحارباً لا يشقُّ له غبار. من ذا الذي يستطيع أن يتعرف في هذا الواعظ الوديع الذي كان في مكة، على الفارس المقدام الذي يقود جيشه لفتح الجزيرة العربية وما خلفها؟».

«من يريد أن يشوّه هذه الشخصية العظيمة فهو يضعه عادة في مقارنة بالمسيح، ولكن الشخصية الزاهدة للمسيح ليس لها أي علاقة بإنسانية محمد، ﷺ، فنبي الإسلام الذي كان يخوض الحروب، ويشنُّ الغارات ويمارس القصاص، يجب النظر إليه داخل البيئة التي وجد فيها، والذي كانت طريقة حياته فيها هي القاعدة. فقد كان "رجلاً مثل جميع الرجال"، رجلاً مصطفى، ولكنه في جميع الأحوال رجل، وقد أكَّد القرآن على هذا المفهوم

مرتين، المرة الأولى في سورة الكهف، الآية : 110 ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾. والمرة الثانية في سورة الإسراء، الآية : 93 ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾.

«والفارق بينه وبين الآخرين من البشر هو أَنَّ الله اصطفاه، وكلفه بتبليغ رسالته، وجعل منه خاتم الأنبياء. وهناك من لا يزال يرى في القرآن مجموعة من القواعد الدينية من أصول مسيحية ويهودية، تعلّمها محمد ﷺ، من خلال اتصالاته مع شخصيات كبيرة تنتمي إلى هذين الدينين، قابلهم في مكة وفي المدينة، ومنها لفق محمد قرآنه».

«أي أَنَّ هؤلاء يرمون محمداً ﷺ، بالانتحال، وفي هذا المجال فإنني أطرح الأسئلة التالية : لماذا كان عليه أن يخترع كذبة ضخمة مهولة مثل تلك؟. لجنون العظمة، حباً في السلطة؟. في مكة، حيث لم يحقق الكثير من النجاح، وواجه العديد من الآلام، لم يكن ليلتزم بهذا الصراع الذي كان يبدو بلا مخرج، إلا إذا كان مقتنعاً بصحة رسالته».

«كيف استطاع أن يفحم بآيات القرآن اللاذعة الكاذبين والمنافقين، إذا كان هو نفسه كاذباً؟، وإذا كان هو الذي ابتدع هذا الإسلام من بنات أفكاره، فلماذا لم يجعله بسيطاً سهلاً مقبولاً من غالبية قومه؟، هؤلاء القوم الذين كانوا مشركين وثنيين، وأتى لهم بدين توحيدي؟. بالإضافة إلى الديانة التوحيدية، لماذا فرض عليهم صيام رمضان، وهو أمر شاق جداً في شبه الجزيرة العربية، حارقة الحرارة؟، وكيف أمكن أن يصبح من أصدقائه أشخاص من نبلاء الروح، ومن الموهوبين بالذكاء الراقى، إذا لم يكونوا يعتبرونه من الصادقين؟. وكيف استطاع وهو الأمي أن ينتج عملاً على قدر كبير من القيمة أدبياً ولغوياً؟. كم من الأسئلة التي يمكن طرحها، وكم من الإجابات! ولكن هذا العرض، هو عرض إسلامي وليس دراسة نقدية».

«وبالنسبة للمسلمين فإنَّ محمداً هو نبي شديد النقاء والصدق، رسول الله، قدوة للمؤمنين، وخاتم للنبيين. والحروب التي قام بها، سواء دفاعية أو هجومية، كانت لنشر دعوته. وقد أمر جنوده: "لا تقتلوا شيخاً فانياً، لا تقتلوا امرأة، لا تقتلوا صغيراً رضيعاً، لا تهدموا بناءً، لا تحرقوا شجراً، لا تقطعوا نخلاً وأحسنوا"⁽¹⁾.

• تعدد زوجات النبي ﷺ

ثم تقول : «يحلو لبعض الكتاب الغربيين، على غير علم، أن يتندروا بالزيجات المتعددة، التي عقدها محمد ﷺ، في المدينة، ويركزون على الجانب الشهواني فيها، أولئك الكتاب لا

(1) المرجع .

يضعون في حسابهم، أو لا يعرفون، العادات السارية في زمن النبي، حيث كان الزواج يتم بسهولة فائقة وينفسخ من دون قيود، وتعدد الزوجات كان هو القاعدة العامة. والإسلام الذي كان يدعو إليه محمد، وضع للزواج قواعد لم تكن موجودة قبله. وينبغي التأكيد مع ذلك على أنه تقدم في العمر، وحتى الخمسين من عمره، كان مخلصاً لخديجة، وبعد أن ماتت عقد عدداً من الزيجات، منها ما كان لأهداف سياسية، فجميع زواجه (ومن بينهم التاسعة وهي يهودية) كن جميعهن أرامل، وواحدة فقط هي التي كانت صغيرة السن، وهي عائشة بنت أبي بكر، وقد تزوجها عذراء. ومن ثم فقد تحمل مسؤولية وأعباء أسرية ضخمة، رغم قلة موارده المالية، ومع ذلك لم يستخدم الحق في الطلاق. وعلى أي حال، فإن الإسلام لا يحبذ الطلاق. وهناك كثير من الآيات القرآنية التي تدين الطلاق ضمناً، وكثير من الأحاديث تؤكد على هذا المعنى. ولم يختلف سلوك محمد في هذا عن سلوك الأنبياء القدامى، مثل داوود وموسى، الذين لم يفكر أحد مطلقاً في إدانتهم بسبب تعدد الزوجات، بنفس القدر الذي حدث مع نبي الإسلام.

ورغم السلطة التي اكتسبها في المدينة لم يكن محمد، ﷺ، أبداً رجلاً ثرياً، أو سيداً عظيماً، أو ملكاً له قصور مشيدة وثياب فاخرة، لا لنفسه ولا لمن يعول، كان رجلاً معتدلاً مقتصدًا. يحكي التراث أن طعامه اليومي كان يتكون معظمه من بضع ثمرات تمر، وكوب من الحليب. وذات يوم دخل عليه عمر بن الخطاب، الذي سوف يصبح ثاني الخلفاء المسلمين، وسأله: أما أنا فأشهد أنك رسول الله، ولأنت أكرم على الله من قيصر وكسرى، وهما فيما هما فيه من الدنيا، وأنت على الحصر قد أثر في جنبك!!، فقال الرسول ﷺ: أما ترضى أن يكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟! وقد بنى لنفسه في المدينة في بداية هجرته إليها مسكناً واسعاً بسيطاً، له فناء كبير، حيث كان يعقد الاجتماعات مع المؤمنين لإبلاغهم بالوحي الإلهي، وإقامة صلاة الجماعة، وإعطاء الأوامر من كل نوع، سواء ذات الطابع الديني أو المدني أو الحربي، حيث كان محمد يستقبل السفارات التي تأتي للتعرف عليه. أما عن الثروات، فكان يستطيع الحصول على الكثير منها، ولكنه لم يكن يريد. حذره ربّه من هذا في كثير من سور القرآن.

وكان حبّ النبي للضعفاء حباً يضرب به المثل، سواء من الرجال أو الأطفال، من الفقراء واليتامى، فقد كان هو فقيراً يتيماً، وفي هذا المجال يكفي أن نذكر أقواله التالية: "خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشرّ بيت فيه يتيم يساء إليه، أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، ويشير بإصبعيه"، "من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل

شجرة مرت عليها يده حسنات»، «لكل أمر مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء، وهم جلساء الله يوم القيامة».

«أما حبه وعطفه على الحيوان، فيمكن أن نلخصه في القصة التالية: ذات يوم نام النبي وعندما استيقظ وجد قطاً قد تسلل إلى كم ثوبه الواسع، ونام هو الآخر، فتركه ولم يتحرك حتى لا يزعجه، إلى أن استيقظ القط وانصرف من نفسه».

ثم تقول: «كان محمد، النبي والإنسان، من أعظم الشخصيات في التاريخ الإنساني. فهو لم يكن وحسب صاحب دعوة لديانة توحيدية، وإنما كان منادياً بالأخلاق السامية، نصر الضعيف على القوي، والفقير على الغني، وعمل على حماية المعدمين، وأشار إلى أن الغاية الأخيرة هي الحياة الخالدة. ووصل إلى أرقى مراتب الأخلاق عندما راح يبلغ ما أرسله إليه ربّه»⁽¹⁾.

• رفض وتضييق

وحول كيفية تلقى الأوروبيين لكتابها ورؤيتها المنصفة عن الدين الإسلامي، تقول: «أولاً لابد أن نعرف أن معظم الأوروبيين يجهلون حقيقة الدين الإسلامي، ودوره العظيم في إثراء الحضارات الإنسانية، بل ودوره العظيم في وصول أوروبا لهذه النهضة الحضارية الكبيرة، ولكن للأسف، فإن الإعلام الغربي، الذي يدين معظمه بالولاء لجهات غير محايدة، نجح في تصوير الإسلام على عكس حقيقته، وفي ظلّ عجز الإعلام العربي والإسلامي عن تقديم الصورة الحقيقية للإسلام بالطريقة، وباللغات التي يفهمها الأوروبيون، توطن في اعتقاد الكثير من أبناء أوروبا، أن المسلم إنسان همجي وإرهابي، يجب الابتعاد عنه كثيراً، وأنا شخصياً، عندما بدأت أعلن وجهة نظري المحايدة والمنصفة للدين الإسلامي وللمسلمين، فوجئت بحالة الاندهاش التي انتابت الكثيرين، ممن قرأوا كتاباتي أو استمعوا لشهاداتي حول الإسلام، فالطلبة الذين أقوم بالتدريس لهم، أعربوا عن دهشتهم الشديدة، ولم يصدقوا في بداية الأمر، أن المسلمين سبقوا الغرب في الكثير من الاكتشافات الطبية والهندسية، وحتى في علوم الاجتماع والنفس، وبعض طلبتي أبدوا انزعاجاً شديداً بسبب رؤيتي الجديدة للإسلام، وسرعان ما تسرب الخبر للقائمين على أمر الجامعة قبل أن يصل للتيارات الصهيونية والشيوعية التي رفضت وجود أي صوت محايد للدين الإسلامي، وبدأوا في التحرش بي بشكل مباشر، ففي البداية، بدأوا يفرضون عليّ تدريس مناهج محدّدة مسبقاً، بحيث أجبر على تقديم رؤيتهم التي تدين الإسلام، وعندما رفضت تدريس تلك المزاعم ضغطوا عليّ حتى

(1) المرجع السابق.

نجحوا في استفزازي لأقدم استقالتني، وفوجئت بقبولها بأسرع مما كنت أتخيل لأجد نفسي، فجأة دون مورد رزق، وهو ما دفعني إلى السفر إلى منطقة الخليج، حيث أقمت في المملكة العربية السعودية، وافتتحت محلاً لحياكة ملابس النساء، وسبحان الله فقد فوجئت بإقبال المرأة الخليجية على التعامل معي، وكلما عرفت سيدة من سيدات المجتمع بحكايتي، أفاجأ بها تأتي لي بمزيد من السيدات، ليس هذا فحسب، بل كن يجزلن لي في العطاء لدرجة أنني كسبت من مهنة الحياكة في سنوات قليلة أضعاف أضعاف ما كسبته من عملي في الجامعات الإيطالية لسنوات طويلة، ولكنني رغم ذلك لم أقطع صلتني بالعمل الأكاديمي، حيث قمت باستغلال تلك الفترة التي قضيتها في المنطقة العربية لدراسة طبيعة الإنسان العربي المسلم، وطبيعة الحياة في المجتمعات الإسلامية، واكتشفت أن المسلمين ما زالوا يحتفظون بالكثير من القيم الإسلامية، ومن أبرزها قيم الحياء وتجريم العلاقات المحرمة، ولعل هذا هو ما ساهم في حماية المجتمعات الإسلامية كافة من تفشي الكثير من الأمراض المعدية والخطيرة، كما هي الحال في أوروبا»⁽¹⁾.

• حملات الهجوم على الإسلام

وللمستشرقة دي ميليو رؤية واضحة حول حملات الهجوم على الإسلام في الغرب، فهي ترى أن الجهل بالإسلام الصحيح وراء انتشار ظاهرة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا)، ووصفه بالعدو البديل، وهو مجرد وهم وخرافة، روج لها الإعلام في الغرب لخدمة أهداف سياسية، ولوقف ظاهرة انتشار الإسلام في الغرب، الذي يورق فئة معينة من أصحاب المصالح، وبعض رجال السياسة المتعصبين الغربيين.

وترجع سبب الهجوم الذي تتعرض له الحضارة الإسلامية في الغرب إلى تميزها بالانفتاح على الثقافات والحضارات الأخرى كافة، مؤكدة أن هذه الحضارة لم تحمل أي سمات تدعو إلى الصراع مع الحضارات الأخرى، وإن من أهم سماتها، أنها حضارة إنسانية قامت على أسس صحيحة، تقبل بالتعددية الثقافية والدينية.

وتعتقد أن الحملة المثارة ضد الإسلام في الغرب اليوم، لن تضر الإسلام، ولن تستمر طويلاً، خاصة أن هناك حملات مضادة بدأ يقودها المسلمون من مواطني الدول الغربية، للتعريف بالإسلام الصحيح، وهناك كثير من الغربيين بدأ يتجه لمعرفة الإسلام ودراسته.

(1) حسام وهبة، دريتا دي ميليو أستاذة الدراسات الإسلامية في روما سابقاً: الإسلام له دور عظيم في الحضارات الإنسانية، مرجع سابق.

وعن الدور الذي لعبه الاستشراق في تشويه صورة الإسلام لدى الغرب قالت: «إذا نظرنا إلى التاريخ فإننا سنجد العلاقة بين الإسلام والغرب قد مرّت بظروف تميزت بالشّد والجذب، فمثلاً إذا نظرنا إلى تاريخ الفتوحات الإسلامية، ودخول الإسلام إلى العديد من بلدان أوروبا، فالبعض يراه أنه غزو واحتلال بالقوة لأوروبا، ثم الحروب الصليبية وهكذا، فقد كان في الماضي مستشرقون متعصبون، وخاصة إذا كانوا من رجال الكنيسة، فلم يلتزموا الموضوعية، وعلى الجانب الآخر، كان هناك من نظروا إلى الإسلام نظرة محايدة، وقدموه بحيادية شديدة، ولكن المستشرقين الذين أساءوا للإسلام، ووصفوه بالعديد من الصفات غير الحقيقية، نجدهم قد ساهموا بلا شك في الأزمة الكبرى التي نعاني منها اليوم بين الإسلام والغرب.

ومن هنا يجب أن نتعامل مع قضية الاستشراق بإنصاف شديد، فنقول إنه كان هناك في الماضي مستشرقون من الغرب، نظروا إلى الإسلام نظرة محايدة، ووصفوا الإسلام بحيادية شديدة، ولكن على الجانب الآخر، كان هناك مستشرقون أساءوا للإسلام، وأساءوا لعلاقته بالغرب، وساهموا بلا شك في الأزمة الكبرى التي نعاني منها اليوم بين الغرب المسيحي والشرق المسلم.. فهؤلاء المستشرقون لم يقدموا الإسلام بصورته الحقيقية.. ومثلما كان الحال في الماضي، فإنّ الموقف اليوم لم يتغير، فهناك مستشرق محايد ومستشرق غير محايد، ولكن بشكل عام فإنّ الواقع يؤكد ضرورة أن يدلي المسلمون بدلوهم في هذا الأمر، من أجل أن يساهموا في دعم جهود المستشرقين المحايدين، ولا مانع من أن يمدّ العالم الإسلامي هؤلاء بالمواد العلمية والأكاديمية التي تساعد في التغلب على أصحاب النظرية التصادمية، من خلال تقديم الصورة الحقيقية للإسلام، ولا مانع من أن يقيم المسلمون في الشرق المؤتمرات العلمية، التي يدعون إليها المستشرقين المحايدين، ويمنحونهم الفرصة لدراسة الإسلام عن قرب.

وقالت «إنّ الحضارة الإسلامية تتعرض للهجوم في الغرب لأسباب كثيرة، أولها عجز المسلمين عن تعريف الغرب، وخاصة المواطن العادي، بحضارتهم، والسبب الثاني يعود إلى وجود منظمات وأحزاب سياسية متطرفة في الغرب، لها مصلحة من وراء ذلك، لكن يجب على المسلمين أن يقيموا علاقات حوار وتعاون ثقافي، ويبينوا فيه للغربيين أنّ حضارتهم تميزت بالانفتاح على الثقافات والحضارات الأخرى كافة، وأنّ هذه الحضارة لم تحمل أي سمات تدعو إلى الصراع مع الحضارات، وإنّ من أهم سماتها أنها حضارة إنسانية قامت على

أسس صحيحة، تقبل بالتعددية الثقافية والدينية وأن هذه الحضارة قد قدمت للبشرية تراثاً بكل زاخرو بكل أسباب التقدم⁽¹⁾».

• تشويه الصورة وواجب المسلمين

وعن أسباب انتشار المعلومات المضللة عن الإسلام والمسلمين في الغرب، تقول : «دعنا في البداية نعترف أن المسلمين قصروا كثيراً في حق أنفسهم، عندما تركوا الساحة للإعلام المضلل ينشر المعلومات المضللة عن الإسلام، دون أن يحاولوا كبح جماح ذلك التضليل، وعندما انتبه المسلمون لذلك، كان السيف قد سبق العذل، وأصبحت المجتمعات الغربية أرضاً خصبة لنشر كل المفاهيم المغلوطة عن الدين الإسلامي، وأصبح المواطن الغربي لديه حصانة خاصة ضد أي محاولات لتصحيح الصورة، وبالطبع نحن نعرف جيداً أن الصهيونية العالمية، هي أهم طرف من الأطراف التي عملت وتعمل على تشويه صورة الإسلام، لإدراكها أن تحسن العلاقة بين الغرب والمسلمين لن يصب في صالح إسرائيل، حتى وإن كان سيصب في صالح الإنسانية كلها».

«وأنا شخصياً، كثيراً ما ناديت وسائل الإعلام الغربية، بأن تكون صحافة سلام، تعنى بنشر الأخبار التي تبشر بالسلام لا بالحرب، وتعمل على إعادة ربط الأخبار وتقييمها بصورة فاعلة، فلأسف الشديد أن وسائل الإعلام الغربية تكاد تهتم فقط بأعمال العنف، ولا تعير أعمال السلام اهتماماً، ورغم أنه من الضروري بالطبع فضح كل ما هو سيئ، لا يكاد المرء يسمع شيئاً عن الإيجابيات في وسائل الإعلام الغربي».

ولمواجهة هذه المغالطات بصورة إيجابية، تقول : «مشكلة العرب والمسلمين أن تصرفاتهم بطيئة للغاية، ولا بد أن يتخلصوا من الروتين الذي سيطر على كل تصرفاتهم، ولا بد أيضاً أن يواجهوا المغالطات الغربية بنفس الطريقة، وهي الإعلام، لأن الإعلام هو السلاح الوحيد الذي يملك العرب والمسلمون استخدامه اليوم لتحسين صورتهم، ونشر حقيقة الدين الإسلامي السمح».

«فالغرب في حاجة فعلية للتخلي عن استخدام المصطلحات الضخمة، والبدء فوراً في مخاطبة الغرب عبر سلسلة تحقيقات واقعية، تستخدم اللغات الغربية كالإنجليزية

(1) محمد خليل، المستشرق الإيطالية ريتا دي ميليو: الحضارة الإسلامية تميزت بقبول فكرة التعددية والانفتاح على الثقافات والحضارات الأخرى كافة، جريدة الرياض، العدد 15276، 21 أبريل 2010م، في :

<http://www.alriyadh.com/518316>

والفرنسية والإيطالية وغيرها، وتقدم كلّ ما يتعلق بالمجتمعات الإسلامية، بحيث يشعر الغرب بأنّ المجتمعات الإسلامية لا تختلف في شيء عن المجتمعات الغربية، إن لم يكن تتفوق عليها في خلوها من الكثير من المشكلات الاجتماعية، التي يعاني منها الغرب بسبب الحرية المطلقة».

وهي ترى أنّ الصهيونية العالمية لعبت دوراً كبيراً في إثارة الحقد والبغضاء بين الشعوب المسيحية والإسلامية، من أجل تحقيق مصلحة إسرائيل في التوسع والتمدد والبقاء، ويمكن للمسلمين والمسيحيين التغلب على تلك المخططات من خلال تفعيل إرادات الشعوب، وإرادات القيادات السياسية، من أجل دعم جهود الحوار وإزالة البغضاء والكراهية، ولا بدّ للغرب أن يرى حقيقة الممارسات الإسرائيلية التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني الأعزل، ولن يحدث ذلك إلا إذا تفوق العرب في استخدام الآلة الإعلامية، وأصبح لديهم خبراء في تحديد الطريقة المثلى لمخاطبة الغرب بلغة إعلامية صحيحة، وقادرة على الوصول لعقلية المواطن الغربي⁽¹⁾.

• وضع المرأة في الإسلام

وعن موقف الإسلام من حقوق الإنسان، وخاصة حقوق المرأة، تقول : «المنهج الذي جاء به الإسلام لإقرار حقوق الإنسان، وفي مقدمتها حقوق المرأة، يعدّ منهجاً فريداً تميزت به الحضارة الإسلامية، فكان لها السبق في إرساء دعائم قانون عالمي لحقوق الإنسان، دون تمييز بين جنس أو نوع أو دين، كما أنّ الشريعة الإسلامية أعطت للمرأة المسلمة حقوقاً لم تنعم بها في الأديان أو الحضارات السابقة، وبالتالي فإنّ اتهام الإسلام بأنه دين انتقص من حقوق المرأة، كلام لا أساس له من الصحة، ولا يوجد عليه دليل علمي⁽²⁾».

وتتحدث عن وضع المرأة المسلمة، من خلال تعايشها معها مباشرة في المجتمعات الخليجية، فتقول : «لقد وجدت امرأة تختلف تماماً عما يتم الترويج له عبر وسائل الإعلام الغربية، التي تقدم المرأة العربية المسلمة كمجرد كيان جسدي للرجل العربي المسلم، وقتما يحتاج، ولا وظيفة لها سوى التزين انتظاراً لرجل يدور على نسائه الأربع، والأمر الذي قد

(1) حسام وهبة، د. ريتا دي ميليو أستاذة الدراسات الإسلامية في روما سابقاً: الإسلام له دور عظيم في الحضارات الإنسانية، مرجع سابق.

(2) محمد خليل، المستشارة الإيطالية ريتا دي ميليو: الحضارة الإسلامية تميزت بمنهج فريد لإقرار حقوق الإنسان، جريدة الشرق الأوسط، العدد 11298، 15 ذو القعدة 1430 هـ 3 نوفمبر 2009م.

يثير الكثيرون، أنني جئت إلى المنطقة العربية، وأنا في ذهني تلك الرؤية حول المرأة المسلمة، ولهذا دهشت للغاية، عندما فوجئت بصورة أخرى غير التي رسمتها، فقد وجدت المرأة العاملة المثقفة والجميلة، والقادرة على التواصل مع الآخرين بسهولة، وكذلك وجدت المرأة سيدة البيت التي تحمل قدراً كبيراً من الثقافة، فلا يعني أبداً وجودها في المنزل أنها جاهلة أو ما شابه، بل وجدت أنّ هناك الكثيرات تحملن شهادات عالية، وبعضهن يحملن الماجستير والدكتوراه، بل إنني وجدت من تناقشنني في طبيعة عملي حول التاريخ الإسلامي، ودور الإسلام في تنوير أوروبا، وسمعت من النساء العربيات اللاتي قابلتهن معلومات مدهشة حول التاريخ الأوروبي، قد لا تكون الكثير من نساء أوروبا يعرفن عنها شيئاً، وهو ما يعني أنّ المرأة العربية تعرضت لظلم بين وواضح في الإعلام الغربي الذي لم يعطها حقّها».

«ولابد أن يعي المسلمون، أنّ تعامل الإعلام العربي تجاه المرأة وقضاياها، كان سلبياً، وهو ما ساهم في نشر المغالطات الغربية عن وضعها، علماً بأنّ هناك عدّة محاور يمكن للإعلام الخوض فيها، وإظهار الصورة الحقيقية لمساهمة المرأة العربية المسلمة، من خلال مشاركتها في شتى الجوانب، وخاصة الحياة الاقتصادية، والتي تعتبر مشاركة المرأة العربية فيها إنجازاً كبيراً، لتحسين ظروفها المعيشية، ولزيادة مساهمتها في عملية التنمية عامة».

«ومن هنا، فإنّ على الإعلام العربي أن يلعب دوراً واقعياً في نقل الصورة الحقيقية لمساهمة المرأة العربية في مناحي الحياة، على الصعيد السياسي والثقافي والاجتماعي، حيث إنّ الغزو الإعلامي الغربي ساهم كثيراً في تقديم صورة باهتة»⁽¹⁾.

• الإساءات الغربية وردود الأفعال

وحول الإساءات الغربية للرسول ﷺ، تري دي ميليو «أنّ شتم المقدسات ونشر الإساءات ضدّ الإسلام ورموزه، هو نوع من الغيرة من تمسك المسلمين بعقيدتهم ودينهم، فالواضح أنّ غريزة الحضارة المادية التي تسيطر على الغرب اليوم، جعلت العديد من المتطرفين الغربيين يبحثون عن الإساءة لأتباع الإسلام، كتعبير واضح عن الغيرة التي تأكل قلوب هؤلاء، ولا ننسى أيضاً في هذا السياق، البحث عن الشهرة، فقد أدرك العديد من المغموين اليوم أنّ وسائل الإعلام العالمية تهتم وبشدة بكلّ ما يتناول الإسلام، وفي ظلّ

(1) حسام وهبة، د.ريتا دي ميليو أستاذة الدراسات الإسلامية في روما سابقاً: الإسلام له دور عظيم في الحضارات الإنسانية، مرجع سابق.

اهتمام وسائل الإعلام اليهودية بصفة خاصة بكل ما يسيء للإسلام، فقد حرص كل من يبحث عن الشهرة على العمل على إصدار خزعبلاته ضد الإسلام، ورموزه الدينية، وللأسف، فإنّ الغرب يستخدم مقولة حرية التعبير فقط، عندما يتعلق الأمر بالإساءة للإسلام.. أمّا عندما يتناول اليهود أو الصهيونية من قريب أو من بعيد، فإنّ قوانين معاداة السامية التي تهدّد كلّ شخص في أوروبا مهما علا منصبه بالسجن، ونسف المستقبل تبرز على الفور، وذلك لأنّ اليهود أقوياء في وقت ضعف فيه المسلمون، فهانوا على أصدقائهم قبل أعدائهم.. وبشكل عام فأنا أرى أنّ كلّ من يسيء للإسلام غبي، ولا يعرف حقيقة هذا الدين السمح، ولو عرف حقيقة النبي محمد لما وجّه هذه الإساءات، فمحمد لم يكن فقط رسولاً أو زعيماً دينياً، بل إنه أعظم شخصية في تاريخ الإنسانية.. شخصية ساهمت في صنع أمة، وقدمت للإنسانية الحضارة التي قامت على أسسها حضارات عديدة لم تكن لتظهر، لولا المبادئ التي أرساها محمد في نفوس أصحابه من حبّ الخير للآخرين، والعمل على التعايش السلمي مع جميع البشر، فمحمد كان نبياً وكان زعيماً سياسياً عبقرياً، وهو الأكثر تفرداً من بين أعظم الشخصيات التي صنعت تاريخ البشرية.. ولهذا فلا يليق أبداً أن نسيء إلى تلك الشخصية العظيمة.. وعلى الجانب الآخر، فأنا أنصح المسلمين جميعاً بأن يبذلوا المزيد من الجهد من أجل نشر السيرة الحقيقية للنبي محمد، وكذلك الصورة الحقيقية للإسلام، حتى لا يقع المواطن الغربي البسيط ضحية الإعلام الموجه، الذي يحاول دفع العلاقة بين الغرب والمسلمين في تجاه الصدام والكراهية المتبادلة».

وترى أنه في مواجهة الإساءات، يجب أن يتحكم المسلمون في أعصابهم، ولا ينساقوا خلف تلك الإساءات المتعمدة، ويجب أن تكون ردودهم محسوبة ومدروسة بعناية.. وأنا مثلاً، أرى أنّ مسألة المقاطعة الاقتصادية الشعبية أكثر تأثيراً في الغرب، وتجعل كلّ من يفكر في الإساءة يراجع نفسه مائة مرّة قبل أن يقدم على ذلك، وعلى الجانب الآخر يجب أن يحرص الغرب والمسلمون على زرع الحبّ والمودة بين المسيحيين والمسلمين، حتى نصل إلى بداية الصداقة ونرى الودّ والحبّ يرفرف على كلّ من يعيش في تلك المجتمعات، أياً كانت ديانتهم أو عقيدته.

الفصل السابع

من ألمانيا.. المستشرقة كريستيانا بولوس وخطوات على طريق الإنصاف

مازال خندق المستشرقات اللاتي أنصفن الإسلام وحضارته يضمّ العديد ممن تميزن بالنزاهة العلمية، ومن هؤلاء تلك الباحثة الاستشرقية الألمانية، الدكتورة «كريستيانا بولوس»، أستاذة اللاهوت بجامعة فرانكفورت، ومديرة مركز حوار الحضارات بألمانيا، والتي عشقت الإسلام، وسعت لإنصاف الحضارة الإسلامية، وبيان فضلها على الغرب المسيحي.

فقد دفعتها أوضاعها الاجتماعية إلى الاحتكاك بالمسلمين في المجتمع الألماني، حيث تزوجت من مصري مسلم عام 1989م، كان يعمل في إحدى الشركات الألمانية، ثم رحلت معه إلى مصر منذ ستة عشر عاماً، لتعيش في هذا البلد المسلم، ضمن أسرة مسلمة وسط زوج وأبناء مسلمين، وتلمس بنفسها ما يملكه المسلمون من قيم وأخلاقيات عظيمة، وترابط أسرى واجتماعي يفتقده المجتمع الغربي.

وبعد سنوات من النظر والبحث، أشهرت إسلامها عام 2012م بالأزهر الشريف، معلنة أنها تؤمن بالإسلام كعقيدة وشريعة، وترى فيه مشروعاً إنسانياً وحضارياً يضيف جديداً إلى الحضارات الإنسانية، وبعد ذلك جاءتها فرصة للعمل في كلية اللغات والترجمة للبنين بجامعة الأزهر، وتم تعيينها كخبيرة في اللغة الألمانية، حيث تقوم بتدريس مادة الدراسات الإسلامية باللغة الألمانية.

• أستاذة اللاهوت

تحدثت هذه المفكرة الألمانية عن رحلة انتقالها إلى الدين الإسلامي، فقالت: «ولدت في قرية صغيرة بفرانكفورت بألمانيا، ورغبت أسرتي في دراستي للاهوت البروتستانتي، حتى أكون قسيسة في الكنيسة بعد ذلك، لكنني لم أكن أريد العمل بالكنيسة، مع العلم أنّ الدراسة

في كلية اللاهوت تابعة للدولة، ومستقلة عن الكنيسة، لكنني عشقت من خلال الدراسة علم مقارنة الأديان، فبدأت أقرأ عن الإسلام وتاريخه منذ نشأته حتى الآن، مع التركيز على فترات الصراع بين الإسلام والغرب المسيحي، سواء أثناء الحروب الصليبية، أو أثناء وجود المسلمين في الأندلس، ووصولهم لمنتصف فرنسا، وكذلك الحروب العثمانية في قلب القارة الأوروبية.

ومن خلال دراستها للأديان توصلت كريستيانا إلى نتيجة مهمة، وهي أن الإسلام أكثر شمولاً لأنه يربط بين الدين والدنيا، ولا يفصل بينهما مثلما هو الحال في المسيحية، حيث ينصب غالبية اهتمامها على أمور الآخرة، والأمور المقدسة فيها ممنوع التفكير فيها والنقاش حولها، وهي كثيرة على عكس الإسلام، الذي نجد فيه إعمالاً للعقل والتفكير بشكل أكبر، إضافة إلى أن المقدسات أو الغيبيات التي لا يجوز التفكير فيها قليلة، ولذا قررت التحول إلى الإسلام.

وعن رد فعل إسلامها على أسرتها تقول: "كانت الصدمة كبيرة على أسرتي حتى أنهم أعلنوا العداء لزوجي، وقاطعوني عندما علموا بزواجي منه عام 1989م، ومع هذا كان زوجي صبوراً عليهم، مقدراً للظروف، والصدمة النفسية التي يعانونها، على عكس الوضع بالنسبة لأسرة زوجي، فقد رحبوا بهذا الزواج واحتضنوني، لهذا، فإنني فضلت أن يتم الزواج في مصر، ثم بعد ذلك عدنا إلى ألمانيا مدة عشر سنوات، وكنت قد أنجبت ابنتي رحيل على اسم أم سيدنا يوسف، وكنت حاملاً في ابني يوسف الذي وضعته في مصر، ومن يومها قررت الاستقرار في مصر، وبدأت أتعلم العربية، وقمت بتدريس اللغة الألمانية وآدابها والدراسات الإسلامية باللغة الألمانية في جامعة الأزهر⁽¹⁾.

• تصحيح صورة الإسلام في الغرب

وتركز باولوس على ضرورة تصحيح صورة الإسلام في الغرب، لإزالة المناخ العدائي ضد الإسلام والمسلمين، فتقول: «الحقيقة التي لا بد أن نلتفت إليها، أنه آن الأوان لتصحيح صورة الإسلام المشوهة في وسائل الإعلام بالدول الأوروبية، مع عدم المساس بثوابت العقيدة الإسلامية، والتركيز على إمكانية التجديد، والتفسير، والتطبيق دون المساس بالأصول. ولقد لاحظنا أن أسلوب عرض الإسلام والمفاهيم الإسلامية يتم بطريقة لا تناسب العقل الأوروبي والغربي، فالإنسان الغربي ليس لديه وقت طويل لمشاهدة برنامج تليفزيوني مطول، أو لقراءة موقع انترنت يشتمل على تعبيرات إنشائية جوفاء، لا تتقل معلومات عقلانية

(1) حسام قليعي، الألمانية كريستيانا باولوس... من مدرسة اللاهوت إلى التدريس بالأزهر، موقع الجريدة، 7 يوليو 2014 م، في: <http://www.aljarida.com/news/index/?mobile=true>

يتقبلها العقل والمنطق السليم، فالمقدمات المطولة عما كان عليه العرب في الجاهلية قبل ظهور الإسلام لم يعد لها داع، فالكُل يعلم أنَّ الإسلام ظهر في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، وهنا يأتي دور الجاليات الإسلامية في الغرب، فعندما يتصرف المسلم في الغرب وفق أحكام الإسلام الحقيقي، بعيداً عن الإفراط والتفريط، فإنه يمنح المواطن الغربي فرصة اكتشاف ذلك الدين العظيم، وبالتالي وتدريباً، سيبدأ المواطن الغربي في فهم الإسلام، ورفض الدعاية المغرضة التي تشنُّ ضده من جانب بعض المتطرفين، وبعض وسائل الإعلام التي لا يهتمها إلا البحث عن الإثارة، وبكل تأكيد سيبدأ المواطن الغربي في القراءة عن الإسلام لاكتشافه من جديد، وأنا شخصياً، شعرت عندما بدأت في القراءة عن هذا الدين، أنه يختلف كلية عما تروّجه وسائل الإعلام في الغرب».

«وعلى الجانب الآخر يأتي عرض الإسلام بأسلوب جديد، وهذا دور لابد أن يقوم به علماء وفقهاء المسلمين في جميع الدول العربية والإسلامية، مع عدم إغفال الدور الرئيس والمهم، الذي يمكن أن يضطلع به العلماء العرب المسلمون المقيمون في الغرب، حيث إن هؤلاء العلماء يجب أن يحلّوا محلّ المستشرقين في المعاهد العليا والجامعات، وفي إعداد الموسوعات العلمية العالمية التي تعيد صياغة المادة العلمية والثقافية، لتتناسب مع المعطيات الجديدة في العالم. وتعتبر قضية الاعتراف بالإسلام في الدول الأوروبية كدين لبعض مواطني هذه الدول من القضايا المحورية، التي يجب التركيز عليها، حيث إنها ستعطي للمسلمين الحق في المطالبة بتصحيح صورة الإسلام في المناهج الدراسية، وفي وسائل الإعلام في تلك الدول».

ثم تقول : «لقد فوجئت عندما قرأت عن الإسلام، بكم المعلومات المغلوطة التي كانت لدي عن هذا الدين، فقبل قراءتي في الإسلام من مصادره الصحيحة والمحايدة، كان الإسلام من وجهة نظري كما هو الحال بالنسبة للكثيرين جداً في الغرب، ديناً عنصرياً، ويحثُّ أتباعه على الإرهاب، كما أنه دين يشجع أتباعه على التفوق، وعدم مدّ جسور التفاهم والتعايش مع الآخرين، بالإضافة إلى الكثير من المفاهيم الأخرى المغلوطة عن الإسلام، وهي مفاهيم ترسخت لدى كثير من قادة الفكر والثقافة الأوروبية، وروّج لها المستشرقون الذين ساهموا في صياغة معظم المناهج الدراسية، التي تدرس في المدارس والجامعات عن الإسلام والمسلمين، في شكل يوحي بأن الإسلام دين يحثُّ أتباعه على العنف والإرهاب».

«ولكنني فوجئت، عند قراءتي عن الإسلام بعين محايدة، أنَّ الإسلام دين سماوي يستحق الاحترام، بل إنني اكتشفت أنَّ هناك قيماً إسلامية عديدة لو تم تطبيقها لتغيرت

أمور كثيرة في العالم إلى الأحسن، ولعلنا قرأنا جميعاً أثناء الأزمة المالية العالمية، كيف أن المبادئ الاقتصادية التي جاء بها القرآن كفيلة بمواجهة الأزمة، وخلق إقتصاد صالح وعادل لكل بني البشر. فالبشرية في حاجة إلى عقلانية الإسلام، وروح التسامح، وتجريم الجشع والربا والخمور، وضبط العلاقات الدولية، ومنع الاستعمار، والحد من أساليب الدمار، وحماية الناس من العنصريات، والفوضى الأخلاقية، والأحقاد الموروثة».

• أباطيل وافتراءات

«لقد اكتشفت بنفسي زيف الادعاء بأن الإسلام دين العنف والإرهاب، فالإسلام كما عرفته دين ينهي عن العنف وقتل الأبرياء، حتى عن طريق الخطأ، وتوقفت طويلاً أمام الآية الكريمة : ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾⁽¹⁾، فهي تؤكد عظمة الدين الإسلامي، فالذي يمنع إنساناً من قتل نفسه، أي الانتحار، أو قتل الآخرين فكأنه يساعد على إحياء الناس جميعاً، فهل يعدّ هذا الدين دين عنف وإرهاب ؟».

«ولقد زرت العديد من البلدان الإسلامية واكتشفت بنفسي أن كل ما يتم ترويجه عن الإسلام والمسلمين في الغرب ما هو إلا أباطيل، بل إنني تأكدت من حقيقة مفادها، أنه يمكن التشكيك والجدل حول مميزات وسلبيات أية حضارة إنسانية، ولكن التشكيك في الحضارة الإسلامية، ودورها الإنساني العظيم محكوم عليه بالفشل. والعالم الغربي إذا أراد أن يخلد حضارته في تاريخ الحضارات الإنسانية، فعليه أن يدرس الحضارة الإسلامية دراسة علمية بعيداً عن التأثير برؤى التطرف».

«للأسف فإن رؤية الغرب للإسلام وللرسول، هي رؤية مبنية على الجهل والخزعبلات والافتراءات التي كان يفتريها رجال الكنيسة في القرون الوسطى على الرسول ﷺ، فكانوا يقولون إن الإسلام انتشر بحدّ السيف، ويقولون: إن الرسول هو الذي كتب القرآن، وإنه نقله عن التوراة والإنجيل، فضلاً عن الاتهامات الفظيعة الأخرى الموجودة في الكتب القديمة، وتدرس في الجامعات، وفيها افتراءات على الرسول أفطع مائة مرة من الرسوم المسيئة⁽²⁾».

(1) المائدة: 32

(2) حسام وهب الله، د.كريستيانا باولوس أستاذ اللاهوت بجامعة فرانكفورت: التعريف بعظمة الرسول أفضل من مطاردة المسيئين قضائياً، جريدة عقيدتي، 29 مايو 2012م، وفي موقع مصرس، الرابط التالي:

<http://www.masress.com/akidaty/1205290600>

• مواجهة المسيئين للإسلام

وتتحدث عن المنهج الصحيح في مواجهة المسيئين للإسلام ونبيه في الغرب، فتقول: «أنا أدعو إلى ضرورة استغلال المليار ونصف مليار مسلم استغلالاً حسناً، فعليهم أن يستغلوا أعدادهم وانتشارهم في تعريف الغرب بنفحات من شخصية الرسول، وقيم الإسلام الجميلة، وبدلاً من أن يرفع المسلمون القضايا، وينفقوا آلافاً بل وملايين الدولارات على القضايا والمحامين، عليهم أن يدفعوها وينفقوها في إصدار الكتب، وعمل حملات توعية وندوات بالتعريف بالرسول والإسلام، وهذا في اعتقادي أنجح وأفضل، وللعلم فإنَّ كلَّ القضايا التي رفعت في أمريكا والدنمارك والسويد وهولندا وغيرها من البلدان خسرها المسلمون، في حين أخذ المحامون مئات الآلاف من الدولارات والتي كان يمكن أن يستغلها المسلمون في نشر كتب، وأفلام، وعمل دعايات تليفزيونية، وشراء مساحة في التليفزيونات الدولية والعالمية، والإتيان باختصاصيين يتحدثون بلغة هذه البلاد، ويتحدثون عن الرسول، وشخصيته الكريمة، وسماحة الإسلام».

«وقد تابعت أنا شخصياً ما فعلته إحدى الداعيات المسلمات في ألمانيا، حيث قامت صحيفة كبري هناك بنشر الرسوم المسيئة، فأصدرت الداعية بياناً ووزعته على المساجد والمسلمين لمقاطعة هذه الصحيفة، فقاطع كلَّ المسلمين هذه الصحيفة، فانهارت مبيعاتها، فجنَّ جنون رئيس التحرير، فذهب للتليفزيون، وقال لهم: إئتوني بهذه السيدة التي شنت هذه الحملة ضدَّ الجريدة، وخسرتني كلَّ هذا، فطلبوها لعمل مناظرة تليفزيونية ولاحظ هنا أنهم هم الذين سعوا إليها وطلبوا الحوار وعملوا مناظرة، فعرفت تلك الداعية العاقلة الجميع بشخصية الرسول، وأنَّ هذا الرسول هو أول من نادى في الوجود بإلغاء ما يسمى بالتمييز العنصري، وأول من قال بأنه لا فرق بين أبيض وأسود قبل دعاكم في أمريكا، الذين قاموا بثورة للزواج، وقبل الثورة الفرنسية، وهو أول من نادى بالمساواة بين الفقير والغني».

«هذا هو الأسلوب الذي يجب أن يتعامل به المسلمون مع الرأي العام في الغرب، وهو أن نعرفهم ما يجهلونه، فهم يحترمون حقوق الإنسان والمساواة وعدم التمييز، وعلمنا أن نكلمهم بلغتهم، لكن التنديد والصراخ.. كلَّ هذا لن يجدي⁽¹⁾».

(1) المرجع السابق.

• المسلمون وقيم الحضارة

وتستعجب باولوس من تخلف المسلمين ولديهم هذه القيم الحضارية، وتقول :
«لقد تخلف المسلمون لأنهم أصبحوا يقولون مالا يفعلون، والله، سبحانه، قال في القرآن الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾⁽¹⁾، ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها، أنَّ المسلمين يؤمنون بالدين الإسلامي ويمارسون عباداته، ولكنهم لا يطبقونها في الواقع العملي، فالفساد بكل أنواعه ينتشر في المجتمعات الإسلامية، التي يحثها دينها على عدم الإفساد في الأرض، والتعليم واجب في الإسلام، وهو ضعيف في شتي أنحاء الأمة الإسلامية، رغم أنَّ نبي الإسلام حثهم على التماس العلم ولو في الصين، وأنا متأكدة أنَّ الأمة الإسلامية لن تنهض إلاَّ عندما تؤمن بدينها الإسلامي قولاً، وتطبق تعاليمه فعلاً»⁽²⁾.

وتقول : «الإسلام هو الذي جعل العرب البدو رواداً للحضارة العالمية، بل وأثروا بالإسلام كما قلت من قبل، تأثيراً مهماً في نهضة أوروبا الحديثة، وهو ما أكدته أقلام غربية منصفة، منهم المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه. وأنا أرى أنَّ الاستعمار الغربي للبلدان الإسلامية، هو السبب المباشر لحالة التخلف التي تعيشها تلك البلدان، فهو رغم تركه للبلدان الإسلامية، لا يزال يتمتع بنفوذ يجعله يعطل عجلة التطور، والتقدم عن الانطلاق في تلك البلدان».

• الإسلام ونهضة أوروبا

وتتحدث باولوس عن تأثير الحضارة العربية الإسلامية على نهضة الغرب فتقول:
«لقد قمت بترجمة كتاب المفكر المصري الشيخ أمين الخولي «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية»، ووجدت أن هناك من الغربيين من يقرُّ بفضل الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا، حيث كشف كثير من الغربيين في القرن الماضي عن أنَّ حضارتهم تأثرت بالحضارة الإسلامية إلى حدٍّ كبير خلال العصور الوسطى».

«وحاولت بعض البحوث الغربية الأخرى من إنتاج غير المنصفين أن تُدلل على أنَّ هذا التأثير الإسلامي، كان ضئيلاً أو ليس له أهمية، وحاول هؤلاء المفكرون غير المنصفين،

(1) الصف: 2-3.

(2) المرجع السابق.

الزعم بأنّ تطوّر أوروبا جاء من نفسها، أي من الإرث اليوناني، وأنّ دور المسلمين لم يكن أكثر من كونهم وسطاء بين الفلسفة اليونانية التي ترجموها وبين أوروبا فقط».

ولكن المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه في كتابها الموسوعي (شمس العرب تشرق على أوروبا)، ومعها باحثون غربيون عديدون، أثبتوا أنّ العرب والمسلمين تجاوز دورهم ترجمة الفلسفة اليونانية إلى إنتاج علوم جديدة في الطب، والفلك، والرياضيات وغيرها، ومنها نقد الفلسفة اليونانية ذاتها، وتقديم الفلسفة الإسلامية التي تسمى علم الكلام، التي تناقش قضايا اللاهوت المسيحي من منظور إسلامي.

وتحدث عن قيام الباحثين الغربيين غير المنصفين بطمس حقيقة فضل الحضارة الإسلامية على أوروبا، فتقول : «خلال عصر التنوير المبكر، تمّ وضع برنامج لإزالة كلّ الأسماء والمراجع العربية و الإسلامية من كتب العلوم، والفلسفة، والطب، وبُذلت بالأساطير اليونانية، بهدف تأكيد الزعم الذي حاولوا الترويج له، بأن العرب ليس لهم أي دور في نهضة أوروبا».

وتردّ على بعض المفكرين الغربيين، الذين يزعمون أنّ الإسلام خطر على الغرب، فتقول : «الإسلام هو صاحب الفضل على المدنية الأوروبية المعاصرة، وبالتالي فهو ليس خطراً على المجتمعات الغربية، إنما الخطر يأتي من بعض الأفراد المسلمين الذين يغضبون من جرائم الأمريكان ضدّ المدنيين في العراق، وأفغانستان، وباكستان، والصومال، ويعبّرون عن غضبهم بهذه الأعمال الخاطئة ضدّ المدنيين في الغرب، وهي أعمال لا يوافق عليها الإسلام. لذا فإنّ أعمالهم ضدّ المدنيين الغربيين، هو ردّة فعل خاطيء على إرهاب، يمارس من جانب الإدارة الأمريكية، وحلف الناتو منذ عهد بوش، وحتى الآن وأنا أرفض تصرفات الطرفين معاً»⁽¹⁾.

(1) علي عليه، مستشرقة ألمانية تنصف الإسلام وتشهد شهادة حق له، شبكة محيط، 6 مايو 2010م، في:

http://www.moheet.com/show_news.aspx?nid=372099&pg=1

الفصل الثامن

من روسيا.. المستشرقة فاليريا كيربتشينكو وترجمة الأدب العربي

نحن هنا أمام مستشرقة روسية ارتبطت بالأدب العربي ارتباطاً وثيقاً واشتهرت في العالم الإسلامي بهذه الصفة، وهي المستشرقة "فاليريا كيربتشينكو"، التي استهواها الأدب العربي، فأقبلت على قراءته، وأمضت قرابة أربعين عاماً في ترجمة كنوزه إلى اللغة الروسية، وتعريف المجتمع الروسي بالثقافة العربية، مما جعل الكاتب الروائي المصري يوسف القعيد يعتبرها مستشرقة خدمت الثقافة العربية أكثر من العرب أنفسهم.

وفاليريا تنتمي إلى مدرسة الاستشراق الروسي، التي تتميز بموضوعيتها، وعمقها، وتنوع اهتماماتها، وابتعادها عن النزعة الاستعمارية، وقد ولدت في 11 يناير سنة 1930م، في مدينة "جاتشينا" القريبة من بطرسبرج، والتي أصبحت ليننجراد فيما بعد، ثم عادت لاسمها القديم مرة أخرى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق.

درست هذه المستشرقة اللغة العربية بمعهد الاستشراق بموسكو عام 1952م، وأقامت في القاهرة من 1955م إلى 1960م، خلال سنوات حكم الرئيس جمال عبد الناصر، وكانت تعيش في حي الزمالك، مرافقة لزوجها الذي كان مسؤولاً مهماً في السفارة السوفيتية بالقاهرة، ولعب دوراً هاماً في وصول العلاقات المصرية السوفيتية في ذلك الوقت إلى مستوى قريب من المثال، ووضعها على طريقها الصحيح. كما عملت هي مستشاراً ثقافياً بالسفارة الروسية بالقاهرة، خلال الفترة من 1971م إلى 1974م، وظلّت تدرس الأدب العربي في جامعة موسكو خلال الفترة من 1976م إلى 2002م.

• أدب يوسف إدريس

وقد حصلت كيربتشينكو على درجة الدكتوراة، وكانت رسالتها العلمية حول أدب الروائي المصري يوسف إدريس، الذي تعرفت عليه خلال فترة إقامتها بمصر، باعتباره واحداً

من الأدباء والصحفيين اليساريين، أخذه إليها أول مرة الكاتب الصحافي المصري محمد عودة، الرجل الذي قضى عمره خادماً لكل موهبة مصرية حقيقية، يقدم لها أقصى ما يمكن أن يقدمه.

ولم تكتف فاليريا بقراءة أدب يوسف إدريس وترجمته إلى الروسية، لكنها قدمت دراسة كبيرة عنه، ووضعت يدها في تاريخ مبكر على ملامح كتابات يوسف إدريس، وشكلت اعترافاً مبكراً بقيمة تجربته الأدبية خارج مصر. وأين؟ في موسكو، وما أدراك ما موسكو في نهاية خمسينيات القرن الماضي وأوائل الستينيات⁽¹⁾.

ولها عدد من المؤلفات الهامة تخصّ الأدب العربي، مثل: **”النثر العربي المعاصر“**، **”نجيب محفوظ أمير الشرق“**، و**”تاريخ الأدب المصري في القرنين التاسع عشر والعشرين“**، و**”الموجة الجديدة في مصر“**.

وهذه المستشرقة تمثل جسراً ثقافياً بين ثقافتين عريقتين، وهي لا تترجم إلّا الأعمال الأدبية التي لها قيمة عالية، فقد ترجمت رواية **”الزيني بركات“** لجمال الغيطاني عام 1986م، وناضلت من أجل إنجازها، وكان هذا مؤشراً إلى أنّ هناك تحولاً عميقاً يحدث في الاتحاد السوفيتي، لأنّ الرواية ضدّ القمع والمخابرات والرقابة، وترجمت **”تلك الرائحة“** لصنع الله إبراهيم، كما ترجمت قصة **”الخطوبة“** لبهاء طاهر في منتصف الستينيات، وترجمت له أيضاً رواية **”الحب في المنفى“**، التي تحتفي بالبعد الإنساني في كل مكان، وقدمت بانوراما لما يحدث في مصر وأوروبا والشرق الأوسط.

• ترجمة الأدب العربي

وقد تحدثت فاليريا عن تجربتها في ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الروسية، فقالت: «اللغة العربية صعبة، وأحياناً تحتاج من دارسها إلى ربع قرن لإجادتها، وقد ظهر أول كتاب من ترجمتي، بعد عشرين عاماً من تعلّمي للعربية، بعنوان **”عمار يا مصر“**، وكان عبارة عن مجموعة قصص لمبدعين مصريين، كما ترجمت **”سيرة الظاهر بيبرس“** عام 1975م، وطبع منها خمسون ألف نسخة، وكتاب **”تخليص الإبريز في تلخيص باريز“** لرفاعة الطهطاوي عام 2009م، وطبع منه 2000 نسخة وزعت في أنحاء روسيا.

كما ترجمت ليوسف إدريس **”أرخص ليالي“** و**”بيت من لحم“**، وظهر من خلال الترجمة التطور والرؤية العميقة في أسلوبه، أمّا كتابات نجيب محفوظ فتحوّلت إلى

(1) يوسف القعيد، فاليريا كيريتشنيكو.. وداعاً، جريدة الأهرام، 14 يونيو 2015م.

الرمزية بعد الثلاثية، وقد ترجمت له "زعبلاوي"، و"المرايا" و"أولاد حارتنا"، و"أحلام فترة النقاها"، كما ترجمت ليوسف القعيد روايات: "أخبار عزبة المنيسي"، و"يحدث في بر مصر"، وأرى أن القعيد تأثر بيوسف إدريس في بداياته، لكنه أخذ منحى وثائقياً عكس إدريس، الذي يستخدم الصور المتتابعة في كتاباته. وانتقدت كيريتشينكو اتجاهات الاستشراق الحالية، التي تهتم بالسياسة والاقتصاد على حساب الأدب والثقافة⁽¹⁾.

وعن رأيها في ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الروسية، قالت: "لغة العربية وضع خاص عند الترجمة، لا يفيد معه الترجمة الحرفية، بل يجب على المستعرب معرفة تقاليد وقيم وعادات العرب، والشرق، حتى يستطيع ترجمة أدبهم".

وتذكر أنها ترجمت أول كتاب لها بعد 20 عاماً من محاولاتها لتعلم اللغة العربية في مركز الاستشراق، وكان كتاب "عمار يا مصر" لصالح حافظ، وصدر ضمن سلسلة القصص الشرقية التي نشرتها دار الأدب الفني بروسيا.

وقالت إنها كانت تعمل ضمن مبادرة لترجمة مائة رواية عربية، كان قد رحب بها المستشرقون الروس، ولكنها توقفت بسبب ضعف الإمكانيات المالية، ولم يترجم سوى خمس روايات فقط، من ضمنهم "حب في المنفي" لبهاء طاهر، وكانت هي مترجمتها⁽²⁾.

ومن عشق فاليريا للغة العربية، كانت تعتبر تعلمها في بيتها يعتبر فرض عين، وكانت بناتها تتعلم العربية، وتعاونها في ترجمة روايات الأدب العربي إلى الروسية، وعندما كتب زوجها مذكراته باعتباره مسؤولاً كبيراً في الدولة السوفيتية عن جهاز سيادي مهم، قال إن زوجته ورفيقة عمره بعد عودتها من مصر، جعلت اللغة العربية في البيت ركناً أساساً من الحياة اليومية لهم.

وقد ازدهرت ترجمة الأدب العربي للغة الروسية منذ ثلاثينيات القرن العشرين، كما تؤكد فاليريا، مع ترجمة "عودة الروح" لتوفيق الحكيم، و"الأيام" لطه حسين. وبعد ظهور ثلاثية نجيب محفوظ في الخمسينيات، حظي أدبه باهتمام كبير في روسيا، وتمت ترجمة العديد من أعماله للروسية⁽³⁾.

(1) خالد بيومي، المستشرقة الروسية فاليريا كيريتشينكا: واقعية الأدب العربي تستهويني، جريدة الأخبار، 17 أكتوبر 2012م.

(2) مروة إبراهيم، مستشرقة روسية: التفكير في رموز نجيب محفوظ يسبب صداماً، شبكة محيط، 15 أكتوبر 2012م، في: <http://www.masress.com/moheet/474241>

(3) أحمد صلاح الدين، بين روسيا والعالم العربي.. تاريخ ممتد وحاضر باهت، أخبار الأدب، العدد: 1159، 6 يونيو 2015م.

• المستشرقة والقعيد ومحفوظ

ولقد كان ليوسف القعيد صلات طيبة بهذه المستشرقة، فهي التي ترجمت عدداً من رواياته، وقدمت أدبه للمجتمع الروسي، يقول عن هذه الصلات : «سافرت إلى موسكو عام 1986م. وأقامت لي دار نشر "رادوجا" حفل توقيع، وشاهدت طابوراً من الذين ينتظرون أن أوقع لهم على مجلد الروايات الثلاث التي أصدرتها الدار. وقد زرتها - يقصد المستشرقة فاليريا - في بيتها بموسكو، وكانت بنتها تساعدانها في ترجمة "أولاد حارتنا" لنجيب محفوظ، وقد توقفت الثلاث أمام كلمة (مرة) في عبارة تقول: قل أنا (مرة)، وقد نطقها بضم الميم، ولم يعرفن أن المرأة قد تسمى (مرة) في الحارات الشعبية، ومن أجل الدقة في الترجمة توقفت أمام الكلمة، ولم تستمر الترجمة إلا بعد النطق العامي⁽¹⁾».

«يومها أدركت أن فاليريا تأخذ عملها بقدر كبير من الجدّة، وأنّ ترجمتها توشك أن تكون إعادة خلق وإبداع للنص من خلال لغة بلادها، وأنها ليست نقلاً للمعنى من لغة إلى أخرى. وقد جمعتني بها مع نجيب محفوظ مناسبة، عندما جاءت لمصر بعد ذلك بعامين، سنة 1988م، وذلك عندما حصل نجيب محفوظ على نوبل، ودعيت فاليريا لحضور الاحتفال المصري الكبير بهذه المناسبة، كانت قد أحضرت لنجيب محفوظ هدية من موسكو، "سماور" كبير، قابلناه في صباح مبكر في مقهى (علي بابا) بميدان التحرير، كان نجيب يجلس عليه، وعندما قدمت له "السماور" سألتها عنه، فقالت له، وهي تشرح أن كلّ دوره تسخين المياه فقط. أما باقي عملية عمل الشاي أو القهوة فلا علاقة له بها، فضحك نجيب محفوظ ضحكته الصادرة من قلبه، وقال لها : وهل تسخين المياه مسألة سهلة؟، إنّ البشرية مرت بمراحل مهمّة في تطورها لكي تصل إلى تسخين المياه، ولولا اختراع النار ما تقدمت البشرية، ووصلت إلى ما نقول عنه الآن : الطاقة ومشتقاتها ومشكلاتها اليومية⁽²⁾».

• نقص الدعم المالي للترجمة

ولقد عاشت هذه المستشرقة وهي تحمل همّ ترجمة الأدب العربي إلى الروسية، ولذلك كانت تطالب في سنواتها الأخيرة، وقبل رحيلها في يونيو من عام 2015م، بضرورة توفير الدعم المالي اللازم لترجمة ونشر روائع الأدب العربي باللغة الروسية، وكانت تؤكد على أن المستعربين الروس يشتكون من نقص التمويل اللازم لذلك.

(1) يوسف القعيد، فاليريا كيربتشنيكو، جريدة الوطن، 12 أكتوبر 2012م.

(2) يوسف القعيد، فاليريا كيربتشنيكو.. وداعاً، مرجع سابق.

فالمترجم الروسي - في رأيها - يعاني حالياً من مشكلة كبيرة، هي عدم وجود ممول، فأحياناً ينجز العمل ولا يوجد من يطبع الكتاب. وقالت إنها قامت بترجمة آخر ما كتبه نجيب محفوظ، وهي مجموعة قصصية بعنوان "أحلام فترة النقاهة"، لكن الظروف لم تسمح بنشر الكتاب ليتوافق نشره مع الاحتفال بمئوية الأديب الراحل⁽¹⁾.

وقبل رحيلها بسنوات قليلة عن عمر يناهز الخمسة وثمانين عاماً، كان من الضروري تكريم هذه المستشرقة عاشقة الأدب العربي، وهذا ما قامت به الجمعية المصرية لخريجي الجامعات الروسية والسوفيتية بالتعاون مع المركز القومي للترجمة، وأيضاً المركز الثقافي الروسي، حيث قاموا بتكريمها عام 2012م، باعتبارها رائدة الاستشراق الروسي، عن مجمل أعمالها خلال أربعين عاماً من العربية إلى الروسية، وجاء التكريم في يوم المترجم، وكانت سعيدة بالتكريم، لأنه يأتي من بلد تستخدم اللغة التي أحببتها واعتبرتها لغتها الأولى، واعتبرت أنّ هذا التكريم مهمّ بصورة لا يمكن وصفها بالنسبة لها.

(1) مستشرقة روسية تدعو لتوفير الدعم المالي لترجمات الأدب العربي، وكالة أنباء الشرق الأوسط، وموقع مصراوي، 12 يناير 2012م، في : <http://www.masress.com/masrawy/4729643>

الفصل التاسع

من ايطاليا.. المستشرقة إيزابيلا كاميرا ورحلة مع الأدب العربي

مازال عشاق الأدب العربي من المستشرقات يتوالون، فبعد المستشرقة الروسية كاربثسينكو، التي عشقت الأدب العربي، كما رأينا، ففضت في ترجمته إلى الروسية قرابة أربعين عاماً، تأتي المستشرقة الإيطالية الدكتورة إيزابيلا كاميرا دافليتو، التي هامت هي الأخرى بالأدب العربي، فعكفت على ترجمته إلى اللغة الإيطالية.

كانت بداية هذه المستشرقة من فلسطين، حيث أثار فضولها خلال دراستها الجامعية ما كانت تسمعه في الإعلام، عن الصراع بين اليهود والإسلام والقضية الفلسطينية، وهذا الفضول رسم ملامح مستقبلها، فبدأت رحلتها نحو محاولة فهم أسباب الصراع والخلاف بشأن القضية، لينتهي بها المطاف لأن تكون من الرواد القلائل، الذين أخذوا على عاتقهم جزءاً من هموم العالم العربي، فآلت على نفسها ترجمة أدبنا العربي إلى الإيطالية، والتزمت بدورها في نقل حضارة وثقافة العرب إلى الغرب، وبالتحديد إلى بلدها إيطاليا من خلال الأدب العربي.

ومنذ أكثر من عشرين عاماً كانت هذه الباحثة المستعربة، تخوض تجربة ترجمة الأدب العربي المعاصر إلى لغتها بمفردها، عندما لم يكن هناك أحد في مجالها يشاركها هذه المهمة الصعبة، ونقلت إلى الإيطالية اثنتي عشر رواية وأكثر من سبعين قصة.

ولدت إيزابيلا في جنوب إيطاليا، وعائلتها من "نمالي" قرية صغيرة أمام جزيرة ديكابري المشهورة لتاريخها القديم، وجذبها للسياحة، وهي أكاديمية ومترجمة وناقدة إيطالية، وأستاذة كرسي الأدب العربي المعاصر في كلية الدراسات الشرقية بجامعة روما، حيث حصلت على الدكتوراة في الأدب العربي المعاصر، وهي عضو في مجلس الدراسات العليا في جامعة نابولي، وتقوم حالياً بتدريس اللغة العربية في كليات اللغات بالمعهد الجامعي الشرقي في مدينة نابولي.

وقد درست اللغة العربية على يدّ المستشرق الإيطالي الشهير "فرانشيسكو غابريلى" في جامعة روما، وكتبت العديد من الأبحاث والمقالات الأدبية التي يدور أغلبها حول الأدب العربي المعاصر، ونشرتها في مختلف المجلات الإيطالية والعالمية، وتُدير منذ عام 1993م سلسلة "كُتّاب عرب معاصرون" الصادرة عن دار "جوفانس" في روما، حيث أشرفت على ترجمة 40 رواية لأشهر الكتاب العرب.

• هكذا كانت البداية

تقول عن بدايات رحلتها مع الأدب العربي : «كنت أحاول من خلالها الإحاطة والتعرف على التفاصيل التي تشكل العالم العربي، لذلك كان الأدب أقرب الوسائل لهذه المعرفة، إذ أنّ الأدباء يحملون قضايا وأفكار عالمهم، وينعكس ذلك في أعمالهم الإبداعية، وعلى هذا الأساس، بدأت تتشكل العوامل الأولية لدي، في مجالات ترجمة الأدب العربي المعاصر إلى اللغة الإيطالية، أضف إلى ما سبق، أنّ الأدب العربي في نظري يحمل خصوصيات عميقة، وذات معان إنسانية لا يستهان بها، لذلك قبل أن أخوض هذه التجربة، لم يكن في مخيلتنا عن الآداب العربية سوى ألف ليلة وليلة، ولا تزال هذه الانطباعات في دول الغرب في اعتقادي من خلال ألف ليلة وليلة أو بالأحرى البكاء في الماضي».

ثم تقول : «بدأت دراستي للغة العربية مع مطلع السبعينيات، حينها كانت تغمرني مرحلة الشباب، وفي تلك الفترة، كانت الشاشات والأخبار تنقل لنا ما يحدث في فلسطين، والحروب تدور هناك، هذه الأخبار كانت تؤثر فينا، وتكررت أثناء حرب الخليج الثانية، حيث زاد الاهتمام بالإقبال على دراسة اللغة العربية، على اعتبار أنّ الشباب يطمحون إلى معرفة ما يعرض في الإذاعات المرئية أكثر مما يكتب في الصحافة، وعلى هذا كانت القضية الفلسطينية تشغل تفكيري، وفي خضم هذا الوضع تعرفت على رواية (عائد إلى حيفا) للروائي الفلسطيني غسان كنفاني، وقمت بترجمتها إلى اللغة الإيطالية، وتشكلت بداياتي حول معرفة الظروف التي تحيط بالقضية، وتجسدت جميعها في الرواية السابقة، وأرى أنّ حجم اهتمام الشعب الإيطالي بالقضية الفلسطينية لا يوصف، وإلى هذه اللحظات تتداول روايات غسان كنفاني (عائد إلى حيفا) و (شمس الشروق) بين طلاب الجامعات والمدارس الإيطالية، لأنّ من جانبهم دائماً هناك أسئلة، لماذا هذه الحرب داخل فلسطين، والإجابات عنها تحتويها صفحات تلك الكتب الأدبية، واختياري لهذه الرواية (عائد إلى حيفا) ساعد القضية الفلسطينية، وإلى يومنا هذا، يحرص طلابنا في الإطلاع عليها، وبالتالي، متابعتهم لتطورات القضية على جميع المستويات.

وعن العوائق والمصاعب التي واجهتها خلال تجربة ترجمة الأدب العربي، تقول: «التجربة بكل جوانبها كانت صعبة للغاية، عندما كنت أترجم لم يكن هناك مترجمون، ولا يوجد اهتمام، ومع هذا اعتبرتّها تجربة لا بأس بها، تعلمت خلالها العمل، والاستفادة من الأخطاء التي وقعت فيها، وعلى العموم، كانت فوائدها متنوعة، أمّا مصاعبها فقد ظلّت تلازمي أثناء الترجمة نفسها، التي تركّزت في صعوبة فهم المعاني، مع أنّ اللغة العربية بسيطة وواضحة في ذاتها، وسبب الصعوبة، علامة الحركات، فبدون وجود الحركات لا تستطيع الفهم الدقيق، ولذلك عند الشروع في الترجمة، وحتى لا يحدث سوء الفهم، نحاول تكوين علاقات مع أصحاب الأعمال بحيث لا تحدث الأخطاء. أيضاً هناك مسألة أخرى تتلخص في صعوبة التعامل مع دور النشر، وربّما تتلاشى هذه الصعوبات تدريجياً بعد ازدياد أعداد المترجمين».

«فمن الصعوبة بمكان وجود دور النشر الإيطالية التي تقوم بمهمة النشر، لذلك كنت أمارس أدوار متعددة لإقناع تلك الدور، التي تعتبر عدم إقبال القراء على هذا الأدب، يسبب لها خسائر مادية. وفي دور النشر الكبيرة، ترسخت في أذهانهم أفكار نمطية عن العرب، ولا يريدون سوى الكتاب الذين يتحدثون عن الصحراء ليستثمروها، لكنني أختار الكتاب الواقعيين، أمثال عبد الرحمن منيف، حنا مينا، إدوارد الخراط، إبراهيم الكوني، محمد شكري، عادة السمان.

ولكن من الأشياء التي تؤلمني، أنّ دور النشر المهتمة لا تهتم، وعلى كلّ حال، علينا أن نكون متفائلين، وأن نطلّ في الساحة، ولو تعاملنا مع دور النشر الصغيرة، لكي يشعر الآخرون بوجودنا، فعندما خرج كتاب **«الأدب العربي المعاصر من النهضة حتى يومنا هذا»**، اهتمت وزارة الثقافة الإيطالية نفسها به، وقامت بطباعته على نفقتها، وفي الوقت الحالي أمور كثيرة تغيرت، وأخرى سنتركها للمستقبل. أمّا معايير الاختيار، فتتركز في مدى قبول الإيطاليين للعمل الإبداعي بما فيه الجوانب الفنية وغيرها، لهذا، عندما نتحصل على رواية على قدر من الذوق الفني والجمالي ننتقيها، وإذا كانت غامضة ويصعب فهمها لا نختارها، لشعورنا بالمسؤولية الكاملة تجاه ما نقوم به، ونهتم بالإضافة إلى ذلك بالكاتبات، لإزالة الصورة المسبقة عن العالم العربي بالذات في مسألة المرأة».

وعن مدى اهتمام الجامعات الإيطالية بالأدب العربي، تقول : «في السابق لم تكن هناك كتب كثيرة عن هذا الأدب، قد تجد رواية أو قصة أو ديوان شعر داخل إحدى مكتبات الجامعة، وربّما كانت بداياتي في الطريق الصعب مع مجموعة من المترجمين، الذين تحملنا

معهم مشقة الترجمة، ونستطيع أن نقول بعد هذه المرحلة، إنه توجد الآن مدرسة، بعد إقناعنا لدور النشر للاهتمام بهذا النوع من الأدب العالمي، واليوم هناك عدد من دور النشر الصغيرة، التي تعمل على نشر الكتب والروايات، ولا نعتبر هذا نجاحاً بالمعنى الشامل، وما قمنا به نقطة في المحيط، لكنها محاولة سعدت بها، فقد وفرت لنا فرصة الالتقاء بالأدباء والكتاب العرب، الذين من جانبهم يقدّرون جهودنا في نشر أدبهم باللغة الإيطالية، ولغات أخرى، من أمثال ادوارد الخراط، وغادة السمان، وهدى بركات، وصنع الله إبراهيم، وجمال الغيطاني، ورشيد الضعيف، ومحمد شكرى، وإبراهيم الكوني الذي يعدّ في نظري من أفضل الكتاب العرب، وفي تونس حسن نصر، وحالياً نعمل على ترجمة رواية له، وهو كاتب له أسلوبه، لذلك نأمل أن نكون قد فتحنا الطريق الصعب⁽¹⁾.

«ولا شك أنه مع مرور السنوات، بدأت الدول الأوروبية تسعى لتطوير علاقاتها مع الدول العربية في المجالات كافة، وخاصّة في مجال العلاقات الثقافية، وقامت حكومات تلك الدول بتأسيس أقسام اللغات العربية، والدراسات العربية والإسلامية في جامعاتها، وقام عدد من طلاب تلك الجامعات المتفوقين بتأليف عدد من الكتب عن الحضارة العربية، ونشروا مقالات وبحوثاً في المجلات الأجنبية، وحاولوا إعطاء الوجه الصحيح الحضاري للعرب. ولقد صححت الكثير من الخبرات الترجمة الآمنة والصادقة، والمحبة للثقافة العربية كثيراً من المفاهيم الخاطئة، وحاولت هذه الخبرات بناء جسر للتبادل الثقافي، وتفعيل العلاقات بين العرب والغرب⁽²⁾».

ولقد كتبت إيزابيلا العديد من الأبحاث والمقالات الأدبية حول الأدب العربي المعاصر، ونشرتها في مختلف المجلات الإيطالية والعالمية، وألفت العديد من الكتب عن الأدب العربي، منها: **«مائة عام من الثقافة الفلسطينية»**، وترجمت إلى الإيطالية اثنتي عشرة رواية وأكثر من سبعين قصة من بينها **«ميرامار»** لنجيب محفوظ. و**«سداسية الأيام الستة»** لإميل حبيبي، و**«رجال في الشمس»** و**«العودة إلى حيفا»** و**«أم سعد»** لغسان كنفاني، و**«أصوات»** لسليمان فياض، و**«مختارات قصصية»** لغادة السمان، ومختارات قصصية لكاتبات سعوديات وروائين وقصاصين عرب.

(1) خالد المهير، الإيطالية إيزابيلا كاميرا دافليتو: نخوض في ترجمة الأدب العربي مثل دونكيشوت، موقع فوبيا، 2 أبريل 2011م، في: <http://www.fobyaa.com/2011/04>

(2) سها شريف، المستعربون الأوروبيون... جسر ثقافي للتفاعل الحضاري، مجلة الكويت، العدد: 373، نوفمبر 2014م، في: <http://www.kuwaitmag.com/index.jsp?inc=5&id=13001&pid=4492>

وكانت تطمح من خلال الترجمة والكتابة في الصحافة إلى دحض الأفكار المغلوطة عن العالم العربي، فهي ترى أنَّ الأدب العربي يحمل خصوصيات عميقة، وله معانٍ إنسانية لا يستهان بها، وتفتخر بما قدمته من كتب مترجمة رغم الصعوبات، وتقول: ”هذا هو النجاح الحقيقي في الحياة بالنسبة لي، وهو نجاح أفخر به، وأشعر بعمق الرضا، لأنني ساعدت شبابنا على معرفة الآخر، من دون أن يكتفوا بما يسمعون عنه من وسائل الإعلام، والذي شوهته السياسة أيضاً، بل أن يتعمقوا في معرفة الآخر معرفة مباشرة“. وقد قامت الحكومة الإيطالية بتكريمها، ومنحتها وساماً لجهودها في التعريف بالثقافات الأخرى⁽¹⁾.

• تقصير عربي

وأسوة بجميع من تبنا مبادرات فردية في نقل الثقافة العربية إلى الغرب، أمثال آلن روجر، والدكتورة سلمى الجيوسي وغيرهم، تعتب كاميرا على المؤسسات والحكومات العربية، لتقصيرها في دعم المشاريع التي تهدف إلى تقديم صورة مشرقة ومشرقة عن العرب، كما تسلط الضوء على زاوية أخرى على الإهمال والتجاهل أيضاً، وهي أنَّ اهتمام العرب وإن كان محدوداً، ينحصر في اللغتين الانجليزية والفرنسية فقط، وهذا غير سليم في رأيها، نظراً لأنَّ الدول الأوروبية تضمُّ لغات عديدة، كالإيطالية والألمانية والإسبانية والبرتغالية وغير ذلك.

وتعرب عن أسفها لكون بعض دور النشر في الغرب، تقدم أعمالاً عربية تجارية لا تمت بصلة للأدب العربي أو لثقافة بلدانه، مما يعني ضرورة مضاعفة الجهود في هذا الإطار. إلى جانب أنَّ المستشرقين في الماضي ترجموا أعمالاً نمطية لا تعكس الصورة الصحيحة إضافة إلى أنَّ تعاملهم مع الترجمة كان أكاديمياً، مجرداً من اللمسات الأدبية، وخصوصية أسلوب الكاتب. كما قالت إنها يئست من تغيير نمطية تفكير جيلها في إيطاليا، إلَّا أنها شديدة التفاؤل بشأن الأجيال الجديدة، الأكثر انفتاحاً على الحضارات الأخرى.

وتقول: «للأسف، العرب أبطال في إضاعة الفرص الثمينة، فعلى سبيل المثال، قدمت شركة أوروبية خاصة عام 1994م مشروع ”ذاكرة المتوسط“ لترجمة عدد من الأعمال العربية إلى اللغات الأوروبية، كالإسبانية والبولونية والسويدية وغيرها، وتذكر أن مجموعة المترجمين كانت تجتمع، وغالباً في مدرسة الترجمة في طليطلة لتختار الروايات.

وتوضِّح أنَّ هذا المشروع استمر مدَّة ست سنوات، وتمَّ ترجمة 10 كتب إلى الإيطالية، و8 أو 9 إلى الفرنسية، و4 أو 5 إلى اللغات الأخرى، بعد ذلك صرحت الشركة أنَّ دورها انتهى

(1) المرجع السابق.

عند هذا الحدّ، وبما معناه: نحن بدأنا والعرب يتابعون، كان ذلك في عام 2000م وسرعان ما قامت كاميرا بزيارة لعدد من البلدان العربية، من ضمنها منطقة الخليج لمتابعة المشروع من الطرف الآخر، لكن الجميع اكتفى بعبارات الإشادة والتقدير، وهكذا ضاعت فرصة ثمينة، كما هو الحال مع معرض فرانكفورت للكتاب.

وحينما سئلت كاميرا عن مشاريعها المستقبلية بشأن الترجمة، قالت : ”توقفت عن الترجمة.. تعبت كثيراً من العمل بمفردي لمدة 30 عاماً، فهذا العمل يتطلب الكثير من الجهد والوقت، فالترجمة والدراسة الأكاديمية تختلف كثيراً عن ترجمة الأدب، لاسيما إلى اللغة الإيطالية“.

ومن الصعوبات التي واجهتها أيضاً في رحلة الترجمة، محاولات إقناع دور النشر بطبع الأعمال، والترويج لها، وإقناع الصحفيين بالكتابة عنها، هذا إلى جانب المعاناة في التعامل مع الأدباء أنفسهم. وتقول: ”إنهم يعتقدون أنّ هذا العمل لا يستغرق وقتاً وجهداً مضمناً، ويستمترون في الاتصال واللوم بصورة ملحة، وبعد ذلك يطلبون منا ترجمة أعمالهم الأخرى، وإن لم نفعّل يغضبون إلى حدّ القطيعة. لكننا نعلم أنّ ذلك يعدّ جزءاً من نرجسية معظم الكتاب في مختلف أنحاء العالم“. وتوضح أنه من الممكن للدول العربية أن تقوم بمبادراتها الخاصة، وما تحتاجه، هو ميزانية لدعم مشروع الترجمة، أو ربّما دعم الكتب المترجمة عن العربية، كي تباع بأسعار تشجع الإنسان العادي في إيطاليا على شرائها⁽¹⁾.

ورغم كلّ الصعوبات التي واجهتها في رحلتها مع ترجمة الأدب العربي إلى إيطاليا، تقول إيزابيلا : «لم يكن الأدب العربي بالنسبة لي دراسة وعملاً، وإنما كان عشقاً حقيقياً، وكلّما توغلت في الترجمة، كلما أحسست أنّ ذلك الحاجر الجميل الذي يسمى بالترجمة، يملكني تملكاً كاملاً، ولهذا مثلي، مثل الكثير من المترجمين الغربيين، أحسست بواجب نحو ما اكتشفته من نصوص جميلة للقارئ الإيطالي».

• مائة عام على الثقافة الفلسطينية

ومن المؤلفات الهامة التي وضعها إيزابيلا كتاب ”مائة عام على الثقافة الفلسطينية“، الذي أصدرته في نوفمبر عام 2007م، وهو يهدف إلى تقديم تاريخ فلسطين

(1) رشا المالح، المستشرقة الإيطالية إيزابيلا كاميرا: العرب أبطال في إضاعة الفرص، جريدة البيان، 10 أغسطس 2008م، في:

<http://www.albayan.ae/paths/books/1218267089834-2008-08-10-1.664482>

من خلال التجارب الشخصية، وأعمال المثقفين الفلسطينيين، ولذلك لا يتكلم عن أدب المقاومة فحسب، بل عن الأدب كنوع من أنواع المقاومة ضد العنف، ولاسيما ضد عنف السلطات الداخلية، والألغاز المرتبطة بالقضية، وضد إلغاء الذاكرة، وضد الرقابة، وكل أنواع القمع التي تمارس داخل المجتمع الفلسطيني.

وقد لقي هذا الكتاب رواجاً واسعاً في الشارع الإيطالي، ونفذ من الأسواق بسرعة، وصدرت الطبعة الثانية في مارس 2008م، وبيع منها ما يقارب الثلاثة آلاف نسخة. كما نشرت كتاباً بعنوان "تاريخ الأدب العربي من النهضة وحتى يومنا هذا".

• الأدب والسياسة

وترى إيزابيلا أن الترجمة هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن على أساسها بناء القواعد، لمد جسور متينة بين الشعوب، وإنّ الأدب قام بدور سياسي واضح، إذ إنه بفضل الترجمة، صار الأدب الفلسطيني مثلاً في الغرب معروفاً، وقد صاغ جليل الأعمال في الأدب العربي بفضل أدباء وكتاب، مثل كنفاني وحبوبي وجبرا إبراهيم وإدوارد سعيد، وشعراء مثل درويش وغيرهم. وقالت إنّ الأعمال التي أنجزت في إيطاليا مثلاً، كانت نتاجاً لمبادرات فردية، إذ لم تكن هناك أية رعاية من قبل المؤسسات الإيطالية، ولا من نظيراتها العربية أيضاً.

ومن واقع تجربتها الشخصية، أوضحت الأديبة الإيطالية، أنه لم يوجد في أي بلد عربي اهتمام بترويج ترجمة الأعمال الأدبية للكتاب العرب في إيطاليا، مع أنّ الكتاب والشعراء التونسيين واليمنيين، كشفوا في رواياتهم وقصصهم وقصائدهم الأوضاع السياسية والاقتصادية في بلدانهم، وهي نفس الأوضاع التي تفجرت لاحقاً، فيما يعرف بالربيع العربي.

وبفضل كتاب سورين، مثل زكريا تامر، وحديثاً خالد خليفة أو مصطفى خليفة، عرف الغرب المظاهر الرهيبة للقمع السوري، وبمساعدة العديد من الكتاب المصريين، استطاعوا إدراك أسباب الانتفاضة الشعبية في ميدان التحرير⁽¹⁾.

(1) عبد الغني بوضرة، إيزابيلا وهارتموت يناقشان واقع الأدب العربي في ظل الثورات، العرب، 23 أبريل 2013م، في: <http://www.alarab.qa/story/240008>

• الإسلام والغرب

وتتناول إيزابيلا كاميرا موقف الغرب من الإسلام بعد سقوط الشيوعية، فتقول: "الغرب كان، وما يزال بحاجة إلى (اختراع) عدوّ، حتى يضمن لنفسه خطأً دفاعياً، ويظلّ مترفعاً ومتعالياً على ما تبقى من العالم لسنين طويلة، أو حتى لعقود، كان هذا العدوّ متمثلاً بالشيوعية، وبالمعسكر الشرقي، وعندما انهارت الشيوعية، برز لدى الغرب التساؤل التالي: من سيكون عدوّنا المقبل؟! وإذا به يسحب من خزانة، تراكم عليها غبار الزمن، صورة العدوّ التاريخي القديم، المتمثل بالعالم الإسلامي. لكن الغرب، كان أيضاً بحاجة إلى وسيلة لإقناع مواطنيه بمصادقية هذا الاكتشاف (الجديد والقديم)، لذا كان طبيعياً أن يحاول ترسيخ ملامح (البعبع) من خلال تقديم (الأصولية الإسلامية) في صورة (العدوّ العنيف)..."⁽¹⁾.

إنها بالفعل، رؤية سليمة لتلك المستشرقة الإيطالية عن الواقع، الذي يعيشه العالم الإسلامي اليوم في علاقته مع الغرب، والذي يقوم على الصراع الفكري والأيدولوجي، أكثر مما يقوم على التوافق، والتعاون، والتفاهم المتبادل بين الحضارات والثقافات.

(1) نقلا عن مجلة الوسط، رقم 101 ص60، في: ياسين بن علي، الإسلام المعتدل، شبكة الناقد الإعلامي، 8 ديسمبر 2009م، الرابط التالي : <http://www.naqed.info/naqed/thought/54-q-q.html>